الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد السادس والثلاثون . السنة الثالثة . يناير ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 36 - January 2002

محمد حسنين هيكل

دفاتر أزمة !



حريم الغرب
وحريم الشرق



الفن القبطى
وصورة مصر

على هوامش الحدث الأفغانى / طارق البشرى

الإسلام وحرب الكراهية / نصر حامد أبو زيد

١٠٠ يوم غيرت العالم ! / سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة

العدد السادس والثلاثون

يناير ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتاب العدد:

- **إسماعيل سراج الدين** .. مدير عام مكتبة الإسكندرية.
- **جودى مابرو** .. كاتبة بريطانية.
- **خالد فهمى** .. أستاذ مساعد تاريخ الشرق الأوسط بجامعة نيويورك.
- **ريم سعد** .. مدرس بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- **سلامة أحمد سلامة** .. صحفى.
- **شريف بسيونى** .. أستاذ القانون بجامعة «دى بول» بشيكاغو، ورئيس الجمعية الدولية لقانون العقوبات بفرنسا.
- **طارق البشرى** .. كاتب ومؤرخ.
- **عبد العظيم أنيس** .. أستاذ بجامعة عين شمس.
- **محمد حسنين هيكل** .. صحفى.
- **محمد الميلى**... المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- **مينا بديع عبد الملك** .. أستاذ الرياضيات بجامعة الإسكندرية.
- **نصر حامد أبو زيد**.. أستاذ الدراسات الإسلامية فى جامعة ليدن بهولندا.
- **وليد محمود عبدالناصر** ... باحث متخصص فى الشئون السياسية.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ محمد حاكم ـ سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٢٠٤٩٠/ ٣٩٢٠٤٩٢/ ٣٩٢٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٢٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

بحكم التقويم، هذا العددُ من «وجهات نظر» هو الأولُ فى عامٍ جديد. وبحكم ما تستوجبه مناسبات الانتقال «الفارقة» أو ما نتصور أنها كذلك، يقف الناس - أو بعضُهم على الأقل - لينظروا إلى ما كان.. ويتدبروا ما هو آت: ما فاتهم، وراح.. وما يجب عليهم فعله. أو على الأقل «شرف المحاولة».

وللوقفة على الأعتاب - وهى هنا لعامٍ جديد - كما أن لطرقِ الأبواب - وهى هنا لمستقبلٍ (مجهولٍ بطبيعته.. مأمولٍ بحكم الضرورةِ والحاجةِ والهدف) - آدابٌ وتقاليد، وشروط؛ من «إرادةٍ» ضروريةٍ «للفهم». و«استشرافٍ» مطلوبٍ «للفعل».

٢٠٠١ - ٢٠٠٢

لم يكن عاما، ننزع آخر أوراقه اليوم، هو الأكثر دموية فى التاريخ؛ فضحايا هيروشيما ونجازاكى «المدنيين» أضعاف من سقطوا تحت أنقاض مركز التجارة العالمى فى نيويورك صباح ذلك اليوم «الأشهر إعلاميا»: الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ والذى أدى انهياره فى نهاية المطاف إلى الإجهاز (فيما سماه الأمريكيون Collateral Damage) على آلاف القرويين ورعاة الأغنام فى سفوح وهضاب أفغانستان الفقيرة الوعرة. ولكن تظل دالةً، ومعبرةً.. وصادمةً مشاهدُ وصورُ العام الذى نودعه اليوم (٢٠٠١) بوصفه يحمل الرقم الأول فى قرن جديد، كان المبشرون يعدوننا فيه بعالم «عولمى» جديد، نحصد فيه. شرقًا وغربًا ثمار انتصار الحضارة الغربية و«تفردها» من خير وسلام وحرية ورفاهية.

حفل البوم صور العام الأول بعد الألفين بمشاهد لمذعورين يعدون فى شوارع نيويورك.. وأطفال يواجهون الدبابات ويحصدهم القناصة فى شوارع نابلس.. ومعدمين ألفوا - وربما أدمنوا - الحربَ فى فيافى أفغانستان وشوارع كابول المتربة الفقيرة.

وازدحمت سماوات العام الأول بعد الألفين وأثيرُه بصيحات الحرب وتهديداتها.. وتنظيرات التراجع ومسوِّغاتها.. وصرخات التظاهرات وشعاراتها، عالية تصم الآذان.. ثم تذوى أصداؤها فى الفضاء وتخبو رويدًا رويدًا، إن لم يكن بحكم قوانين الفيزياء وطبيعتها، فبحكم قوانين السياسة و«واقعيتها».

وامتلأت أوراق ومنتديات العام الأول بعد الألفين باختلافاتٍ بين الجميع حول التعريف، والمصطلحات.. واللغة: حربٌ على الارهاب، أم حربٌ صليبيةٌ..؟ صدامٌ أو حوارُ حضاراتٍ، أم صراعُ مصالح وسياسة..؟ انتحارٌ إرهابيٌ، أم استشهادٌ فدائى..؟

بين مشكلات التعريف والتوصيف والتنظير فى العام الأول من القرن الجديد، يبقى الأهم للمهتمين - باستشراف ماهو آت - موضوعًا براقًا تم استحضاره من قبل حكماء وسياسيين.. ومشعوذين، والنفخ فيه على عجل تحت عنوان كبير يلائم الحدث والغرض: «صدام الحضارات». والقصة قديمة. وتعود جذورها أيضًا - ربما بالمصادفة - إلى بداية قرن. فقبل حوالى مائة عام، بدأت كتابات الاستشراق فى التمهيد لما كتبه المستشرق المخضرم برنارد لويس بعنوان «جذور الغضب الإسلامى». يومها - ولاعتبارات كثيرة - لم تستوقف المقالة الكثيرين. إلا أنه منذ سنوات قليلة، وفى عدد ربيع عام ١٩٩٣ لمجلة فورين أفيرز (النافذة والمؤثرة) نشر صموئيل هنتنجتون مقالته الشهيرة عن «صدام الحضارات». المقالة التى اعتمدت إلى حد كبير فى خطها الفكرى على مقالة برنارد لويس فى بداية القرن جذبت فوراً مقداراً مفاجئاً من الاهتمام وردود الفعل.

يومها روج هنتنجتون لمقولة إن المصدر الأعمق للصدام فى هذا العالم الجديد لن يكون - فى الدرجة الأولى - أيديولوجيا أو اقتصاديا، بل ستكون الثقافة هى المنبع المهيمن على الانقسامات والصدامات الكبرى بين البشر. وحسب ماقرره فى مقاله الشهير - ومن بعده فى كتابه الذى حمل الاسم نفسه - فإن «صدام الحضارات سيسيطر على السياسة العالمية.. وإن الصدامات الرئيسية فى العالم الجديد ستبرز بين دول ومجموعات تنتمى إلى حضارات مختلفة».. وبرغم حقيقة التنوع الحضارى، اختزل هنتنجتون الأمر برمته ليقرر بأن «الصدام الرئيسى سيكون حتماً بين الإسلام والغرب» !!

شئنا أم أبينا.. ووافقنا الرجل أم اختلفنا معه، فإن الواقع يقول - للأسف - بأن قرنا جديدا بدأ، وصدى آرائه يتردد حولنا فى كل مكان، مختلطة بكثيرٍ من خلطٍ وتعميمٍ وضبابيةٍ وغرض، نسمعها ونقرؤها حيناً - ونشمها أحيانًا أخرى - فى تصريحاتٍ لزعماء ومسئولين كبار، وفى كتابات تملأ صحفا رزينة محترمة، لن يكون أبداً آخرها العدد الذى خصصته النيوزويك أخيرًا للترويج للمقولة.

مشاهد العام الأول من القرن الجديد حفلت أيضاً بكثيرٍ من الخرافات، والأساطير، والغرائب، وفقدان الذاكرة. فنبوءات نوستراداموس تم ترويجها. والكهل المريض القابع فى إحدى مغارات أفغانستان تمكن من مهاجمة «البنتاجون» رمز القوة والحداثة والهيمنة العسكرية الأول فى العالم. وقاذفات B52 ذهبت لتقصف بيوتًا من الطين على الناحية الأخرى من العالم. وجون ووكر ليند الأمريكى القادم من كاليفورنيا الناعمة، ذهب ليحارب مع طالبان. والفيتو استُخدم فى مجلس «الأمن» اعتراضاً على قرارٍ بإرسال مراقبين دوليين الى الأرض الفلسطينية لضمان «أمن» الطرفين.

فقدان الذاكرة الذى هو بالطبيعة مرضُ الأعوامِ الأخيرةِ لا الأولى فى عمر البشر، كان سمةً لسلوكيات كثيرة فى العام «الأول» من القرن الجديد. ففى أفغانستان حارب المتحالفون (الحلفاء.. والحلف الشمالى) عدوا نسوا أن من بينهم من صنعوه، ومن بينهم من حالفوه، ومن بينهم من استخدموه. وفيما يدور فى «الضفة والقطاع»، نسى الجميعُ أن الأراضى «محتلة» باتفاق الجميع، وأن النظر للصدام أو العنف أو الدماء لابد أن يأتى فى هذا السياق. وفى أمريكا التى اعتمدت إدارتها المحاكمات العسكرية وقانون «باتريوت»، نسى المندفعون فيها أنهم ربما يخسرون جوهر وسر قوة البلاد ذاتها، وهو المتمثل فى معنى ذلك التمثال الواقف على شاطئ نيويورك - ليس بعيدا - عن المبنى المنهار.

وفيما تزداد كل المفاهيم - خصوصا فى عالمنا العربى - التباسًا وارتباكًا، تبقى أسئلةُ العامِ المنقضى بلا إجابةٍ عند الكثيرين: بدءًا من «هل فعلَها أم لم يفعلها؟» وحتى «أين تبخر بن لادن؟!». ويبقى السؤال الرئيس فى عام جديد: ماهى أمريكا؟ أو كيف هى فى عالم جديد؟

على بوابة معسكرهم (العدالة) جنوبى أفغانستان، كتب مشاة البحرية الأمريكية ماوصفوه بـ«الدستور الجديد» وجاء فيه: «نحن شعب الولايات المتحدة الأمريكية.. سنقوم بركل مؤخراتكم..».

وإلى حد كبير، ستظل تلك العبارة أو الـ Slogan بالمفهوم الأمريكى تلقى ظلالها، قاتمةً ومربكةً لخطوات كل أولئك الدالفين اليوم إلى عام جديد.

وجهات نظر

محمد حسنين هيكل



دفاتر أزمة!

ما الذى فعلناه بأمتنا العربية، وما الذى فعلناه بأنفسنا، وقضايانا، والمستقبل؟. أسئلة تذكر بها مناسبات:

○ المناسبة الأولى: أننا فى نهاية عام أخذ وقته وانقضى، وفى بداية عام جديد تهل اليوم مطالعه، وقد تعود الناس فى مثل هذه المناسبات أن يقوموا بعمليات جرد يفحصون فيها دفاترهم، ويراجعون بنودها، ثم يتفكرون فيما كان ويكون!

○ والمناسبة الثانية: أن الأمة وبشكل واضح تعيش حالة أزمة. والأزمات فى التجربة الإنسانية الواعية أشد ما يدعو الناس إلى الفحص والمراجعة، لأن أحوال اليسر. تزين لهم بحقائق الأشياء أن يتساهلوا ويتفاءلوا. لكنه فى أوقات العسر. فإن حقائق الأشياء تضغط عليهم بالتنبيه والتحذير قبل أن تتراكم الخسارة على الخسارة ويحل الإفلاس!

○ والمناسبة الثالثة: أن الأمة العربية (بكافة شعوبها) تحس أن ما جرى ويجرى فى أفغانستان وفلسطين اليوم، والمنطقة الواقعة بين أفغانستان وفلسطين غدا. يطوقها بحالة حصار أو شبه حصار: عسكرى وسياسى. اقتصادى وفكرى. وكانت الأمة تستشعر قبل أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ (صواعق النار فوق نيويورك وواشنطن) أنها تنزلق إلى منحدر، وفى أعقاب ما تداعى بعد ١١ سبتمبر، اكتشفت الأمة أنها بالفعل على حافة الهاوية، وحولها ركام من بقايا حقائق وأكاذيب. وبقايا أحلام وأوهام ليس بينها «وتد» متين يمكنها التعلق به أو الاستناد إليه لتفادى السقوط. إلا أن تقع معجزة!

والمعجزة فى حياة إنسان فرد تحتاج إلى الخوارق أو شىء منها، لكنها فى حياة الشعوب والأمم لا تحتاج لغير شرط واحد هو «يقظة الإرادة»، خصوصا فى حالة أمة وراءها تجربة فى صنع التاريخ. ومعها ثقافة استوعبت عصورا من شراكة الحضارة الإنسانية بدرجة زادت أحيانا وقلت. وفوقهما نضج صنعته قرون طويلة من صراعات القوة انتصرت فيها مرات أو عجزت.

والشاهد أن «يقظة الإرادة» تستدعى ثقافة التجربة، ثم إن ثقافة التجربة بدورها تستدعى حكمة العقل، برغم ما تدفع إليه مشاعر الخوف بهاجس أن مزالق الخطر لا تستطيع انتظار الحكمة، بل تستعجل سرعة الحركة. بينما الحقيقة أن الحركة بغير الحكمة رد فعل لا إرادى، عصبى أقرب إلى التشنج منه إلى القصد والفعل الواعى. كما أن الخوف وما يتعجل به آخر المطلوب عند الحافة وعندما تكون فرص النجاة معلقة بالمعجزة!

ولعل مساءلة النفس بقصد المراجعة والفحص هى النقلة الأولية والضرورية لناحية السلامة، ثم الابتعاد. ولو زحفا. عن الحافة نقلة بعد نقلة حتى يمكن الوقوف على القدمين بحثا عن مخرج من حالة الحصار والعودة من جديد إلى مجرى الحياة.

والأمم والشعوب القادرة حين تسائل نفسها لا تفعل ذلك بقصد التفجع والندم فهى تعى أن حركة التاريخ زمان غير قابل للاستعادة حتى يمكن تعديل مساره بأثر رجعى، وهى تعى أيضا أن حركة التاريخ تتأثر بعناصر لا إرادية، مجملها أن الأمم والشعوب لا تختار مواقعها من الأرض ومواردها، ولا تتحكم فى جوارها ومحيطها كى تختار الأكثر أمنًا فيه والأوفر غنى.

وبالتحديد فإن حركة التاريخ احتكاك مطالب ومصالح، وضغوط مشاق ومصاعب، وتدافع أشواق تطلب الرقى والرفعة، وهي توفر لنفسها حق الاختيار إذا أحسنت التقدير، وتلك بالضبط مهمة السياسة، باعتبارها علم وفن استخدام إرادة المجتمعات فى إدارة إمكانيات مواقعها ومواردها وطاقاتها الإنسانية لتحقيق طموحاتها حاضرا ومستقبلا.

وهنا يجيء ما يستحق الوقوف أمامه فى ذلك القول المأثور عن الرئيس الأمريكى الأسبق «دوايت أيزنهاور» والذى جمع فيه خلاصة خبرته قائلا: «إن السياسات الطيبة ليست ضمانا أكيدا للنجاح، لكن السياسات السيئة ضمان محقق للفشل».

وأمام مناسبات تدعو الأمة إلى التذكر والتفكر، وتفرض إعادة فحص الدفاتر ومراجعة الحسابات. فإن مساءلة النفس واردة وربما واجبة:

«كيف وصلنا إلى هنا؟. عن أى طريق؟. ولأى سبب؟

وتلك الأسئلة فى الظروف الراهنة، مشروعة، عاجلة وملحة، وهى تستحق إجابات تقريرية وليست إنشائية، محددة وليست مطلقة. وذلك هو الأسلوب المعتمد فى تقدير حسابات الربح والخسارة والمضاهاة حسب تعبير أيزنهاور «بين سياسات طيبة قد لا تضمن النجاح أكيدا، وسياسات سيئة تضمن الفشل محققا»!

والظاهر للجميع أن «الفشل المحقق» هو النتيجة التى ضمنتها السياسة العربية لنفسها بشهادة ما جرى ويجرى اليوم فى أفغانستان. وفلسطين. وغدا حولهما وفى المنطقة الواقعة بينهما من قلب آسيا حتى شرق البحر الأبيض. ومعنى ذلك بمرجعية أيزنهاور: أن السياسات العربية كانت سيئة. مع اعتبار أن أيزنهاور مرجعية يمكن الاعتماد عليها لأن تجربته كانت بشهادة النتائج ناجحة وكذلك شاملة:

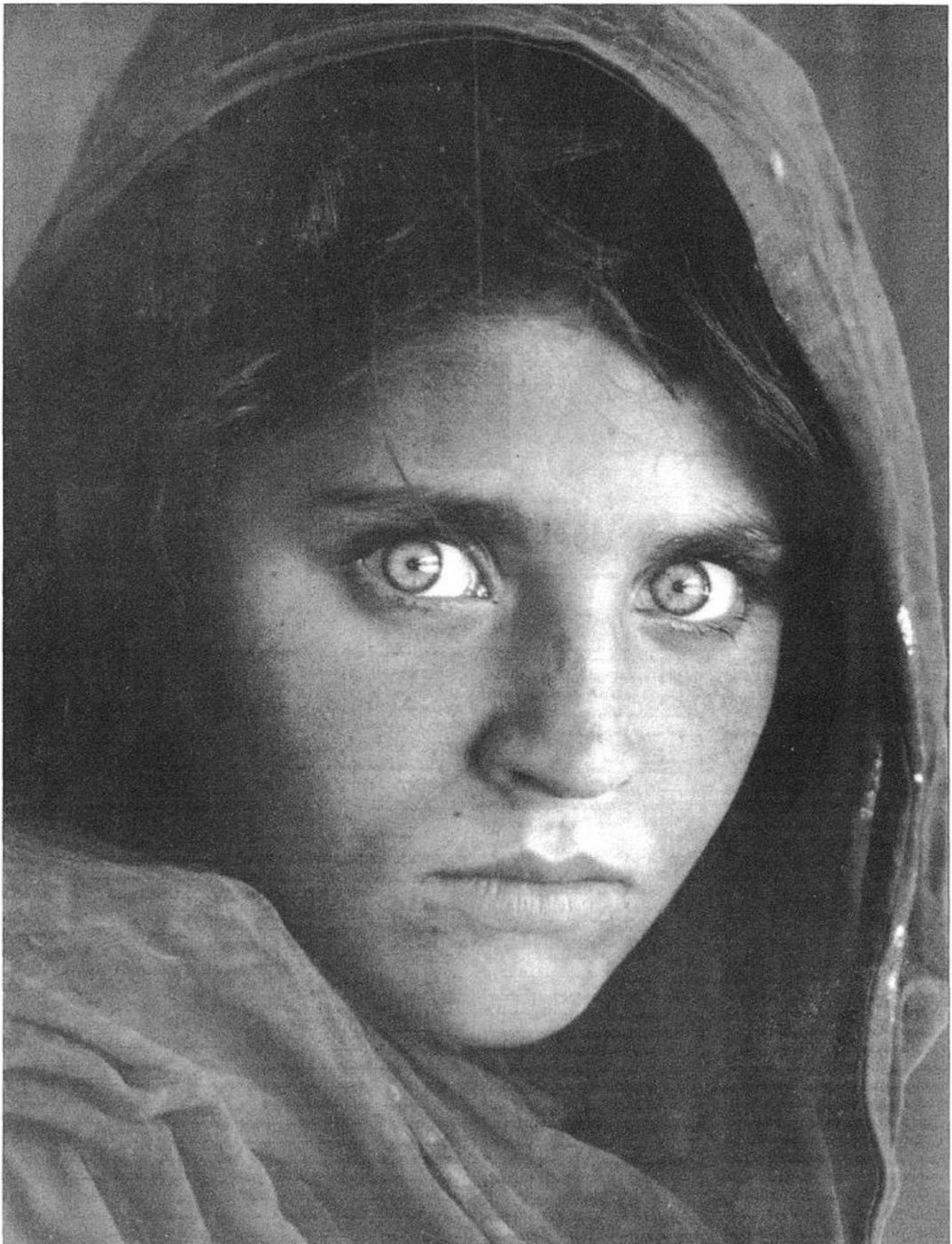
. ف: أيزنهاور هو الضابط العسكرى رفيع الرتبة الذى قاد جيوش الحلفاء لانتصار الحرب العالمية الثانية، وتلك أقرب وأشهر قصة صراع فى الذاكرة البشرية.

. وهو أيضا رئيس الدولة الذى أدار سياسة أمريكا ثمانى سنوات من بداية إلى نهاية خمسينيات القرن العشرين، وهى فترة شهدت مجىء الولايات المتحدة من وراء المحيط مصممة على أن يكون لها الدور المحورى فى ترتيب شئون عالم ما بعد الحرب والنصر.

. ثم إن تلك السنوات الثمانى كانت مرحلة الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى، وفيها جرى اعتماد «السياسة» أو السياسات التى ثبت أنها حققت لأمريكا انتصارها فى الحرب الباردة بدليل سقوط الاتحاد السوفيتى وانفراط عقده.

ومن المدهش أنه حين يسأل العرب أنفسهم: كيف وصلنا إلى هنا؟ وعن أى طريق؟ ولأى سبب؟ فإن المفاجأة التي تنتظرهم هى لحظة يكتشفون أن بداية الخلل فى دفاترهم وأخطائهم فى الرصد والقيد وقعت بإملاء أيزنهاور أو سياساته على الأقل.

والشاهد هو الملفات والأوراق!



وجـــه لاجئـــة أفغانيـــة



دفاتر أزمة!

الدفتر الأول

الورقة الأولى:

الحرب بإطلاق الأفكار وليس بإطلاق النار

عندما استسلمت جيوش ألمانيا النازية بلا قيد ولا شرط أمام الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الثانية بقيادة «دوايت أيزنهاور»، كانت القوى المسيطرة في أمريكا تفكر فعلا في الحرب القادمة مع الاتحاد السوفيتي، رغم أنه كان شريكها الشرقي في النصر. وكان محسوسا وملموسا حتى من قبل نشوب الحرب، أن العداء لهتلر هو الذي جمع الأمريكيين على الروس مضطرين أكثر من مختارين، فالرأي الأصلي عندهم - قبل هتلر وبعده - أن المستقبل صراع إلى النهاية بين الرأسمالية وبين الشيوعية، أي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.

وفي اللحظة التي انتهت فيها الحرب العالمية الثانية - فإن القوى المتنفذة في أمريكا وقع اختيارها على قائد النصر ضد «هتلر» ليكون بنفسه قائد النصر ضد «ستالين»!

وكان ظاهرا - بدون إعادة السؤال مرتين - أن الحرب الجديدة ليست تكرارا للحرب السابقة، لأن السلاح الذي فصل في الحرب السابقة وهو القنبلة الذرية، لم يعد قابلا للاستعمال في الحرب اللاحقة، لأن الولايات المتحدة خسرت احتكارها للأسلحة الذرية عندما لحقها الاتحاد السوفيتي إلى سرها بفاصل سنتين اثنتين.

وكان تأهيل «أيزنهاور» لقيادة الحرب الجديدة إعدادا يستحق النظر:

● ومثلا فإنه عندما نشر «أيزنهاور» مذكراته عن سنوات الحرب - كان العنوان الذي «اختاروه» لها هو: «حملة صليبية في أوربا» "A Crusade in Europe"، وكان المقصود بالعنوان أنها «حرب ضد الجهالة» (النازية في تلك الحالة)، لكن الإشارة إلى الحروب الصليبية - الدينية - الإيمانية - كانت لها مقاصد ومعبأة بحمولات.

● وفي مثال آخر - فإنه عندما بدأ إعداد «أيزنهاور» للحياة المدنية، كان المنصب الذي «اختير» له هو منصب رئيس جامعة «كولومبيا»، وهكذا فإن الرجل الذي خلع سترته العسكرية بنهاية خدمته قائدا عاما لقوات الحلفاء، اكتسى بالرداء الجامعي يبدل هندامه ويرتبه للخدمة في البيت الأبيض رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية (وزعيما للعالم الحر كما كان يقال تلك الأيام).

● وحدث فيما بعد وعندما أراد «أيزنهاور» أن يكتب مذكراته عن سنوات رئاسته للولايات المتحدة، أن العنوان الذي «اختاروه» لها كان «شن السلام» "Waging Peace"، والعادة أن الحرب هي التي «تشن»، لكن السلام لا «يُشن» وإنما يصنع بأسلوب آخر غير شن الحملات (صليبية أو غير صليبية).

لكن تلك كلها كانت إشارات محسوبة ومتعمدة، تومئ إلى تغيير رئيسي في الأسلحة تنتقل به الحرب من «إطلاق النار» إلى «إطلاق الأفكار».

كان التقدير أن الصراع بين الرأسمالية والشيوعية حتمي، وأن هذا الصراع لا يمكن أن يدور بين الاثنين مباشرة في ميادين قتال، لأنه في تلك الميادين معرض أي لحظة للتصاعد إلى المستوى النووي، وذلك فوق احتمال أي طرف حتى إذا سبق عدوه في حجم ما تكدس داخل ترساناته من رؤوس نووية، ذلك أن إمكانية الردع المتبادل بحاملات الرؤوس النووية من الصواريخ المتحركة (في أعماق البحر أو أعالي الفضاء) - تلغي الفاصل بين النصر والهزيمة بدمار مروع للطرفين، المهزوم فيه قتيل بالكامل والمنتصر ثلاثة أرباع قتيل، وكلا الاحتمالين مستحيل!

وإذن فهو صراع إلى النهاية بغير سلاح - وبغير نار!

ثم إنه صراع مزدوج:

● طرفان كل منهما نظرية في ترتيب وإدارة شئون المجتمعات: مواقعها، مواردها، ومستقبلها. ومكمن الخطر أن كل نظرية تطلب التفوق تجسد نفسها ذات الوقت في قوة عظمى، ومؤدى ذلك أن النظريتين في النهاية قوتان نوويتان على طريق صدام. وفي غيبة القدرة على فرض التفوق بالنار، فإن كل نظرية ليست لديها وسيلة غير أن تعرض ما لديها على الدنيا وعلى الناس باعتباره طريق الخلاص.

ومعنى ذلك أنها صور في الأحلام لها القدرة على صنع مثال في الواقع - يجذب قلوب وعقول آخرين بعضهم ينتمي إلى العالم المتقدم (وهم يريدون إعادة ترميم حياتهم بعد إعصار الحرب)، وبعضهم الآخر ينتمي إلى العالم المتخلف الذي أيقظه إعصار الحرب، (وقد هرولوا إلى الساحة باحثين عن حلم وعن مثال).

ومعنى ذلك - أيضا - أن الصراع في شكله الجديد صراع نظريات (أفكار) لها القدرة على التحقيق (تجربة حية).

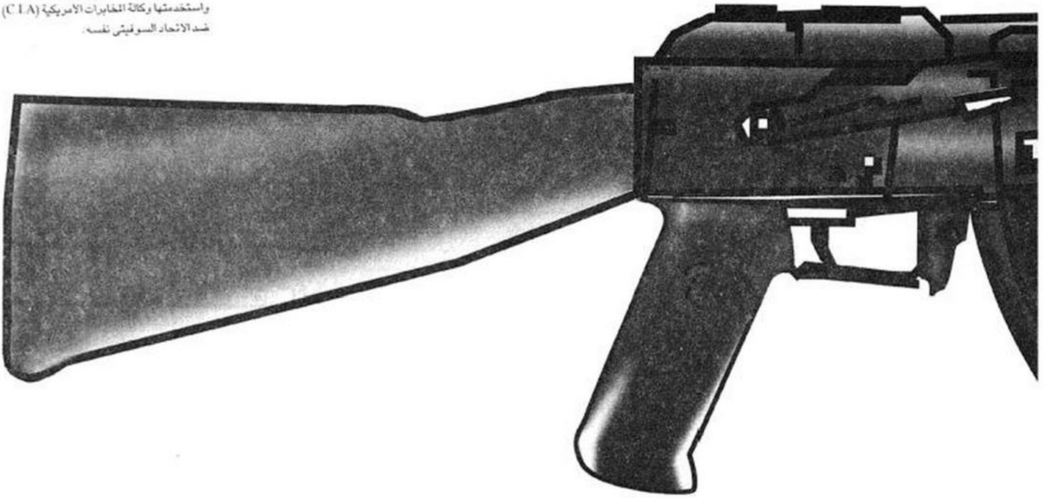
● يصاحب ذلك إدراك عملي بأن احتكاك النظرية الرأسمالية والشيوعية - و«المثال» المجتمعي المتجسد للاثنتين في دولة، لن يكون بينهما مباشرة وإنما «يجوز» أن يكون عند غيرهما وعلى أرضه.

يلي ذلك أنه إذا وصل الاحتكاك إلى الدرجة التي يتطاير فيها شرر وينشب حريق، فإن النار يجب أن تظل بعيدة عن الترسانات النووية - أي هناك على أرض الآخرين!

وهكذا فهي بالدرجة الأولى حرب في قلوب وعقول هؤلاء الآخرين - ثم إنها في الدرجة الثانية وإذا حكمت الظروف - حريق على أرض هؤلاء الآخرين.

وكذلك انطلقت النظريتان، القوتان - إلى سباق بقطع الأنفاس وكانت تلك هي الحرب الباردة!، وقد توافقت بدايتها مع رئاسة «أيزنهاور» للولايات المتحدة الأمريكية، وكانت إدارته هي التي وضعت استراتيجياتها وخططها وسياساتها.

البندقية الروسية أ.ك ٤٧
(كلاشنيكوف) رمز السلاح السوفيتى
استخدمتها حركات التحرير فى كل العالم
واستخدمتها وكالة المخابرات الأمريكية (C.I.A)
ضد الاتحاد السوفيتى نفسه.



الورقة الثانية:

حول البحر الأبيض ... شرقا وغربا

■ وكانت الساحة الرئيسية على خريطة الحرب الباردة تدور حول البؤرة التى دار حولها التاريخ الإنسانى المكتوب، وهى البحر الأبيض وما حوله فى كل الاتجاهات: شمالا وشرقا وجنوبا.

- إلى الشمال: هناك أوربا الغربية وقد خرجت بلدانها بلا استثناء منهكة من الحرب (فرنسا وإيطاليا مثلا)، أو مدمرة (ألمانيا وحتى بريطانيا).

- إلى الشرق: هناك الخلجان والوديان والصحارى الواقعة من البحر وحتى أقاصى الهند، وهى ما يطلق عليه وصف الشرق الأدنى أحيانا والشرق الأوسط أحيانا أخرى.

- إلى الجنوب: هناك الشواطئ الخضراء وبحار الرمال والغابات حتى قلب أفريقيا.

وهنا موقع العالم العربى فى الوسط تماما من هذه الرقعة الواسعة. وخارجها كانت بقية العالم بعيدة خصوصا أن بعض الأقاليم تبدت مصائرها مقررة أو مؤجلة أو معزولة: أمريكا اللاتينية مقررة كمنطقة نفوذ للولايات المتحدة، والصين مؤجلة لأنها - الآن - فتحت أبوابها للشيوعية، وبلد مثل أستراليا بعيد بالمكان - وحتى بالزمان!

وكذلك تركز صراع الحرب الباردة حول البحر الأبيض: شماله (فى أوربا)، وشرقه (العالم العربى وغلافه الإسلامى: بالذات تركيا وإيران وباكستان).

وباختصار فقد كانت للحرب الباردة ضفتان: ضفة غرب أوربية - وضفة شرق أوسطية، وكل منهما تحتاج إلى استراتيجية خاصة بها وإلى خطط وسياسات تصلح لها وحدها.

وبان للناظرين أن كل ضفة رسمت خريطتها بنفسها - أى بأحوالها وظروفها:

(بالنسبة للضفة الشمالية - الغرب أوربية - فإن بلدانها جميعا كانت دولا متقدمة استنزفتها الحرب، والظاهر أن هذا الاستنزاف هو الذى يكشفها لغواية العقيدة الشيوعية ومثالها السوفيتى - مع ملاحظة أن هذه البلدان والدول وصلت بالتقدم الذى أحرزته قبل الحرب إلى درجة عالية من الديمقراطية سمحت - ضمن ما سمحت - بوجود أحزاب شيوعية، ومع الأوضاع المستجدة بعد الحرب فإن هذه الأحزاب يمكن تشجيعها وتوجيهها بحيث تتحول إلى قواعد موالية لموسكو داخل أوطانها، وإذا كان يُراد حماية هذه الأوطان من غواية العقيدة الشيوعية ومثالها السوفيتى - إذن فإن الحل هو مساعدة هذه البلدان والدول بما يمكنها من العودة إلى سابق أحوالها المتقدمة ويضخ الحيوية فى عروقها، ويحصنها بالرخاء ضد العثرات والمزالق، وذلك ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية بمساعداتها السخية التى أتاحت للغرب الأوربى أن يعاود الوقوف على قدميه قادرا على مواصلة التقدم، متمسكا بالتعددية الديمقراطية، وقد عرفها من قبل الحرب العالمية.

● وأما بالنسبة للضفة الجنوبية - الشرق أوسطية - فإن واقع الحال كان مختلفا، ذلك أن معظم بلدانها ودولها فاتتها عصور التنوير، والنهضة، ومنظومة القيم التي أتت معها، كما فاتتها عصور الانطلاق التجارى والصناعى والمالى واتساع الثروة التي راكمتها، وبالتالى فهذه البلدان والدول أمامها على طريق التقدم عقبات وعوائق يصعب اجتيازها ببرامج للمساعدات الاقتصادية مهما كانت سخية، ومع التخلف والضعف الذاتى زائدا عليها جاذبية صور التقدم التي تراها هذه البلدان والدول الشرق أوسطية متحققة أمامها فى عوالم قريبة منها (على الضفة الأخرى شمال البحر الأبيض) - فإن هذه البلدان والدول - جنوب البحر - سوف تجد نفسها ممزقة بين واقعها وطموحها، وذلك يجعلها مكشوفة، فإذا أريد تحصينها ضد الغواية، إذن فهو الدين يعوض عن الدنيا، ويعد بجنة فى الحياة الأخرى تشتريها هذه الحياة الأولى. والأرضية اللازمة لهذه المقايضة جاهزة لأن مادية الشيوعية بالقطع متصادمة مع روحانية الدين.

وكذلك رسمت الخرائط وكذلك تحددت وسائل الحرب الباردة وتحددت أسلحتها على ضفتى البحر الأبيض: شمالا وجنوبا:

● الضفة الغرب أوربية - فإن الوسيلة الرئيسية فيها «مشروع مارشال» يعطى للمتقدمين سابقا فرصة استعادة التقدم ومعه الديمقراطية، والسلاح الحامى لاستئناف التقدم هو منظمة حلف الأطلنطى.

● والضفة الشرق أوسطية - فإن الوسيلة الرئيسية فيها هى الدين وأفضله - من وجهة نظر أمريكية - ما ركز على استعادة القديم بدعوى الرجوع إلى الأصول، والسلاح الضامن للأصول - فى هذه الحالة - عمل من وراء ستار، لأن الولايات المتحدة لا تستطيع على المكشوف أن تقف وتدعو من شرفات المآذن أو أبراج الكنائس إلى التمسك بأهداب الدين والعزوف عن مطالب الدنيا رجاءً فى نعيم الآخرة. ■

> **كان التقدير أن الصراع بين الرأسمالية والشيوعية حتمى، وأن هذا الصراع لا يمكن أن يدور بين الاثنين مباشرة فى ميادين القتال، لأنه فى تلك الميادين معرض فى أى لحظة للتصاعد إلى المستوى النووى وذلك فوق احتمال أى طرف من الأطراف**



الورقـــة الثـالثـة:

خطـــف الأديـــان سـبق خطـــف الطـــائرات!

■■ عندما انتخب «دوايت أيزنهاور» رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٢ ـ ودخل البيت الأبيض أواخر يناير ١٩٥٣ ـ اختار معه رجلين لأعلى المناصب فى إدارته. وتصادف انهما شقيقان لأب قضى عمره وعمله قسيسا داعيا إلى ملكوت السماء!

● أولهما «جون فوستر دالاس» فى موقع وزير الخارجية. وكان المبشر الأعلى صوتا بأن «الدين» هو السلاح الأكثر فاعلية ونفاذا فى العالم الثالث. لأنه الهوية التقليدية لشعوب وأمم مازالت مع وعيها العذرى الفطرى. والدين بالنسبة لها عقد سياسى واجتماعى وحيد تقيم به جسرا بين الآخرة والأولى!

● والشقيق الثانى «آلان دالاس» فى موقع مدير وكالة المخابرات المركزية التى أوكلت إليها مهمة إدارة الحرب الجديدة (الباردة) وسلاحها «إطلاق الأفكار وليس إطلاق النار». وبما أن الاستراتيجية الأمريكية فى العالم الثالث اعتمدت على سلاح الاعتقاد ضد تهديد الإلحاد. فإن وكالة المخابرات الأمريكية تجاسرت على اتخاذ شعارات الإسلام ـ وهى العقيدة الأكثر انتشارا فى المنطقة ـ لتكون وسيلتها وذخيرة سلاحها.

وفى الشهر الأول من رئاسة «أيزنهاور»، كانت الخطوط الرئيسية لسياسة إدارته قد تم تحديدها، بل وتسميتها بوصف معركة القرن (نصف القرن فى الحقيقة لأن القرن العشرين كان قد بلغ منتصف عمره!). وميدان المعركة هو الشرق الأوسط بالتحديد، والسبب حسب شرح الرئيس «أيزنهاور» فى وثيقة توجيه استراتيجى بتوقيعه: «أن منطقة الشرق الأوسط هى المنطقة الوحيدة فى العالم التى تعيش حالة انكشاف كامل أمام الاتحاد السوفيتى عسكريا وسياسيا».

ـ عسكريا: لأن حلف الأطلنطى يغطى أوربا الغربية، كما أن حلف جنوب شرق آسيا يدور على جوار الصين، لكن المنطقة بين الحلفين هى الثغرة المفتوحة والقلقة. والإمبراطورية البريطانية تزعم أنها قادرة على ملء الفراغ فى هذه المنطقة، بينما هى عاجزة وحدها، ثم إنه عندما اقتنعت بريطانيا بأن الأمن فى المستقبل ترتيبات جماعية وليس تفردا إمبراطوريا ـ فإن الحكومة البريطانية أصرت أن تكون هى التى تعرض الترتيبات الجماعية للأمن الإقليمى فى الشرق الأوسط، لكن دول هذه المنطقة تشككت على الفور فى العرض البريطانى واعتبرته محاولة للتغطية على الوجود الإمبراطورى الذى طال على أراضيها، والآن يراد منحه رخصة متجددة للاستمرار بتمويه شكل حلف جماعي، وكذلك كان الرأى فى واشنطن انه إذا كانت بريطانيا فى موضع الشك، فإن الولايات المتحدة تستطيع أن تطل على المنطقة بشيرا بوعد جديد ليس له ماض إمبراطورى (فى الشرق الأوسط على الأقل)، وإذن فإنه يتعين على الولايات المتحدة أن تأخذ الأمور فى يدها وتبادر هى وتعرض!

ـ وسياسيا: فإن شعوب منطقة الشرق الأوسط راودها حلم أن تستقل وتنهض بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لكن هذه الشعوب فقيرة مستضعفة، فإذا كان على الولايات المتحدة أن تملأ الفراغ العسكرى فى المنطقة، فإن الفراغ السياسي يصبح مسئوليتها كذلك، ومن أجل ملء الفراغ السياسى فى المنطقة فإن الولايات المتحدة عليها:

١ ـ أن تساير القوى الجديدة فى المنطقة بأن تدغدغ أحلامها بأسلوب وطريقة الحياة الأمريكية وبريقها، وتحاول مساعدتها ـ إلى حد يعطيها الفرصة للضغط عليها عند اللزوم ـ ونقديرها أن طموح هذه القوى الجديدة لا يستند إلى بنية أساسية حديثة: زراعية أو صناعية أو علمية قادرة ـ أو تراث تحررى له فى الأرض جذور ـ بحيث تنطلق لتحقيق مشروعها بالطريق الديمقراطى. ومؤدى ذلك أن القوى الجديدة فى الشرق الأوسط سوف تواجه ـ فى الغالب ـ عقبات كبيرة تعطل أحلامها وتصيب شعوبها بالإحباط نتيجة التناقض بين «الوعد» والتأخر فى «الوفاء بالوعد»!

٢ ـ أن الولايات المتحدة عليها فى الوقت نفسه أن تحتفظ بعلاقاتها وتدعمها مع القوى التقليدية فى الشرق الأوسط: لأن هذه القوى هى الأقرب إلى أرض الواقع الراهن، يساعدها أن مسئوليتها فيه مأمونة، فهى ليست مطالبة بغير «المحافظة على الموروث»، وذلك على عكس التزام قوى التجديد «بالتغيير» ـ ولكل تغيير مخاطره.

يتصل بذلك وتلك حقيقة لا يصح أن تُنسى ـ أن القوى التقليدية فى الشرق الأوسط هى بذاتها السلطة الحاكمة فى مناطق البترول، فى شبه الجزيرة العربية (على الأقل إلى عقود قادمة)، ومعنى ذلك أن السياسة الأمريكية عليها حفظ ميزان شديد الحساسية بين القوى الفاعلة فى الشرق الأوسط: تقليدية سابقة أو تجديدية لاحقة.

٣ ـ ولأن حفظ هذا الميزان مسألة معقدة فإن مرونة السياسة الأمريكية أمامها امتحان صعب: كيف يمكن لها مسايرة قوى التجديد بحيث لا تتحول إلى تهديد تجمح به التطلعات إلى بعيد داخل المنطقة ـ أو خارجها؟

وفى المقابل كيف يمكن مساندة قوى التقليد بحيث تستطيع المحافظة على سلطتها إلى أطول زمان ممكن، لأن هذه القوى ـ فضلا عن سلطتها فى مناطق النفط ـ تستطيع تثبيت قوى التجديد فى مكانها، وتعطلها إذا «شردت» بما يؤثر على استقرار وأمن المنطقة (من وجهة نظر أمريكية)؟



كانت الخطوط الرئيسية لسياسة إدارة «أيزنهاور» قد تم تحديدها وتسميتها بوصف معركة القرن وميدان المعركة هو الشرق الأوسط بالتحديد والسبب أنها المنطقة الوحيدة فى العالم التى تعيش حالة انكشاف كامل أمام الاتحاد السوفيتى عسكريا وسياسيا

٤ ـ وبما أن هذا الشد والجذب بالدرجة الأولى صراع أفكار فى عقول الناس وقلوبهم، وبما أن ممارسته لا يمكن إدارتها بأى وسيلة من وسائل الإجبار ـ فإن وكالة المخابرات المركزية مكلفة بإدارة معركة القرن فى الشرق الأوسط، ولها كل الصلاحيات فى مسايرة قوى التجديد وحماية قوى التقليد، ولها فى ذلك مساندة العنف إذا دعت الضرورة (مع ملاحظة أن عنف أجهزة المخابرات لا يكون فى العادة حربا مسلحة وإنما يكون انقلابا من الداخل).

٥ ـ ولكى يمكن إدارة معركة القرن بأمان فإن الضرورات تستوجب فك أجهزة التفجير فى «بؤر التوتر» المشحونة بالخطر فى المنطقة، وأولها الصراع العربى الإسرائيلى. فهذا الصراع هو «جهاز الاشتعال» الجاهز الذى يستطيع الاتحاد السوفيتى أن يلعب به، ثم إن هذا الصراع هو كذلك مخزن الوقود الذى يمكن أن تستولى عليه قوى التجديد «لتسخين» جماهيرها وتعبئة هذه الجماهير.

أى أن حل الصراع العربى ـ الإسرائيلى يصبح المهمة الأولى التي يجب أن تضطلع بها «وكالة المخابرات المركزية» تساعدها وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، كلٌ فى دورها وبإمكانياتها.

....

....

[وبالفعل فإن وثائق تلك المحاولات لحل الصراع العربى ـ الإسرائيلى تتكدس تلالاً من الملفات السرية تحت عناوين مختلفة فيها: «العملية أوميجا» (ترتب لسلام عربى ـ إسرائيلى عام) وفيها «العملية ألفا» (ترتب لصلح مصرى ـ إسرائيلى منفرد.]

....

....

٦ ـ وبينما هى تؤدى ذلك كله فإن الولايات المتحدة لابد لها أن تتحمل بالتزام قطعى تجاه الدولة اليهودية فى إسرائيل، فهذه الدولة كانت «تعهدا» بريطانيا تحول إلى «مشروع» أمريكى، ومع ذلك التحول أصبحت إسرائيل هى الدولة الأقرب فى الإقليم إلى النموذج الأمريكى بجانب أن تقدمها ـ وضمنه قوتها العسكرية (على ذلك الموقع من شرق البحر الأبيض) ـ يجعل منها قاعدة ملجأ أخير Last Resort إذا تعقدت الأمور فى الإقليم لسبب أو آخر بما يؤثر فى مصالح وأمن الولايات المتحدة.

وفى أوائل عهد «أيزنهاور» ما بين انتخابه فى نوفمبر ١٩٥٢ ودخوله إلى البيت الأبيض أواخر يناير ١٩٥٣ واعتماده لسياساته فى الشرق الأوسط، شاءت الظروف أن أكون فى الولايات المتحدة: لتغطية الحملة الانتخابية «لأيزنهاور» (ضد منافسه «أدلاى ستيفنسون»)، ثم لمتابعة توجهات الإدارة الأمريكية الجديدة بعد ظهور نتائج الانتخابات.

وقد أشرت مرات من قبل إلى هذه الزيارة وإلى أطراف من وقائعها، وأهمها لقاء فى وزارة الدفاع (البنتاجون) مع الجنرال «ألفريد أولمستيد» المشرف على برامج المساعدات العسكرية الأمريكية، ولأن سياق هذا الحديث



يستقيم أكثر باستعادة وقائع هذه المقابلة وما جرى فيها، فإنى أعود إلى روايتها (معتذرا عن التكرار):

....

....

[طرحت على الجنرال «أولمستيد» حاجة مصر إلى أسلحة أمريكية، وأشرت إلى أن نائب وزير الدفاع الأمريكى السابق «ويليام فوستر» وعد بذلك أثناء لقاء أجراه فى شهر سبتمبر الماضى مع عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة فى مصر بينهم اللواء «محمد نجيب» و«جمال عبد الناصر» وآخرون غيرهما. وقلت: «إنه بناء على هذا الوعد يزور واشنطن الآن وفد عسكرى برئاسة قائد الجناح «على صبرى»، وقد أتى هذا الوفد ليتفاوض عمليا فيما وعد به مساعد وزير الدفاع الأمريكى قبل شهور. لكن هذا الوفد حتى الآن كما ذكر لى رئيسه («على صبرى») لا يفعل شيئا إلا القيام برحلات منظمة إلى بعض القواعد العسكرية الأمريكية بمقولة «مشاهدة السلاح الأمريكى والتعرف إليه عن قرب»، والوفد الآن يطلب خطوة عملية على أساس ما جاء إلى هنا من أجله».

واستمع الجنرال «أولمستيد» إلىّ بصبر ثم سألنى بما ملخصه:

ـ «لماذا تريدون سلاحا قبل أن تقرروا من هو العدو؟ أنتم حتى الآن اعتبرتم إسرائيل عدوكم، كان ذلك قبل التغيير الثورى فى مصر (٢٣ يوليو ١٩٥٢)، ونحن حتى الآن لم نعرف من الجنرال «نجيب» ولا من الكولونيل «ناصر» إذا كان رأيهما فى العداء لإسرائيل هو ما كان أيام «فاروق»، أو أن الدراسة العسكرية لكلا الرجلين وخبرتهما منذ ١٩٤٨، إلى جانب آمالهما للشعب المصرى قد علمتهما أن الخطر على المنطقة ليس من إسرائيل وإنما الخطر من الاتحاد السوفيتى ومن الشيوعية.

أنتم كلكم فى المنطقة دول إسلامية، والإسلام دين سماوى يتصادم مع الإلحاد الماركسى، أليس كذلك؟!»

قالها الجنرال ثم وقف من مقعده واستدار يلمس زرا كهربائيا انفتح به ستار كبير كان يبدو للناظر وكأنه جزء طبيعى من جدار المكتب، وبفتح الستار بانت خريطة بعرضه لمنطقة الشرق الأوسط وجوارها غربا وشرقا، وكان جوار المنطقة على الناحيتين مغطى ببقع من الأعلام والدبابيس الملونة تشير وتلفت، فى حين أن وسط الخريطة ظهر سطحا خاليا إلا من الألوان الأصلية للخريطة.

ومد الجنرال «أولمستيد» يده فتناول مؤشرا وجهه نحو غرب القارة الأوروبية وقال: «هنا حلف الأطلنطى يصد الاتحاد السوفيتى ويحصره فى الشرق».

ثم وجه المؤشر إلى ناحية رسم القارة الآسيوية وقال: «وهنا حلف جنوب شرق آسيا يصد الاتحاد السوفيتى والصين».

ثم عاد الجنرال بالمؤشر إلى وسط الخريطة ـ الشرق الأوسط ـ وواصل «عرضه»: «هذه المنطقة بين القارات فراغ برغم أنها الأهم، وهى كما ترى خالية من أعلام أو دبابيس، ترمز إلى وجود قواعد عسكرية ومطارات وموانئ ومراكز للقيادة ونطاقات للدفاع... أى أنه لا شىء فى الشرق الأوسط حتى الآن إلا الفراغ.

وعاد الجنرال «أولمستيد» إلى مقعده وركز نظره علىّ قائلا ببطء بقصد إعطاء الفرصة لسامعه يتدبر ما سمع:

«نحن نعرف أنك صديق لـ الكولونيل ناصر وهو الرجل القوى فى النظام المصرى الجديد، وإذا كنت تريد أن تخدم بلدك وتساعد صديقك فقل له أن يتذكر دروسه فى الاستراتيجية، وأن يعرف أن أمن بلاده ليس معلقا بصفقة سلاح معنا، وإنما معلق بانضمام مصر إلى حلف عسكرى يملأ فراغ المنطقة ويبنى حائطا دفاعيا ضد الاتحاد السوفيتى كما حدث فى أوروبا الغربية وكما حدث فى جنوب شرق آسيا».

وكنت أسمع الجنرال «أولمستيد» باهتمام واستطرد هو:

«الحلف المرغوب فيه والمطلوب عندكم جاهز وأساسه طبيعى متسق مع طبيعة الإقليم، الإقليم كله إسلامى ولذلك فإن ما يطرح نفسه للدفاع عنه لا يمكن إلا أن يكون حلفا إسلاميا».

وكنت مازلت أسمع واستطرد الجنرال «أولمستيد»:

«تصور لو أن حلفا إسلاميا قام على أساس ثلاث ركائز: مصر وهى أعرق بلد إسلامى بالتجربة التاريخية ـ وتركيا وهى أقوى بلد إسلامى بجيش حسن التدريب والتسليح ـ وباكستان وهى أكبر البلاد الإسلامية من ناحية التعداد.

هذا الحلف يستطيع أن يجذب إليه بقية شعوب ودول المنطقة ـ من أفغانستان حتى المغرب. والدول الإسلامية تستطيع إقامة هذا الحلف فى أربع وعشرين ساعة: لأن هناك كثيرين جاهزون للمساعدة لأن أمن المنطقة يهمهم، «مثلنا نحن والبريطانيين وربما قوى أوروبية أخرى»!

وبدا لى أن الجنرال أولمستيد لم يفرق بين اهتمامى بسماع ما يقول وبين اقتناعى به، فقد زاد فى شرحه وفاض ووصل إلى صميم الموضوع وقلبه قائلا:

«هذا الحلف لن يكون حلفا عسكريا فقط، ولن يكون مجرد تجمع دفاعي، وإنما سيكون تنظيما له قوة جذب فكرى غالب من الناحية الإستراتيجية العالمية: تذكر ـ تذكروا جميعا ـ أن هذا الحلف سوف يكون بمثابة «مغناطيس جبار» يشد إليه كتلا من المسلمين داخل الاتحاد السوفيتى وداخل الصين. لاحظ أن الجمهوريات الجنوبية فى الاتحاد السوفيتى مسلمة: كازاخستان ـ طاجيكستان ـ تركمانستان ـ أذربيجان، القوقاز بأسره تقريبا ـ كلهم يعتنقون الإسلام. وإذا كان تعداد الاتحاد السوفيتى ١٥٠ مليونا (فى ذلك الوقت) فمعنى ذلك أن داخل الدولة السوفيتية ما لا يقل عن ستين مليون مسلم. والصين نفس الشىء ـ لأننا نعرف أن الإسلام قوى فى غرب الصين. تقديرنا أن هناك ثمانين مليون مسلم على الأقل فى غرب الصين.

وتوقف الجنرال «أولمستيد» ونظر إلىّ يحاول قياس رد الفعل ثم أضاف:

ـ هل تستطيع تقدير تأثير «مغناطيس إسلامى جبار» على جنوب الاتحاد السوفيتى وعلى غرب الصين؟

وختم الجنرال «أولمستيد»:

فى هذا الإطار مستقبلكم ومن داخله تحصلون على السلاح والمساعدات الاقتصادية، ويصعب علىّ تصور أننا نعطيكم سلاحا دون أن تعرفوا ونعرف نحن أيضا من هو العدو الذى تستعدون له.

تأكدوا أن إسرائيل ليست عدوا «طبيعيا» لكم فى إطار إسلامى، وإنما هى عدو «مصطنع»، والحقيقة أن التناقض بينكم وبينها يظهر عندما تضعون عملكم فى إطار قومى ـ لكنه فى إطار إسلامى يزول التناقض لأن إسرائيل قريب لكم وابن عم «فأنتم جميعا أبناء إبراهيم»!]

فى نفس الزيارة إلى أمريكا قابلت لأول مرة وزير الخارجية الأمريكية العتيد «جون فوستر دالاس» وكان «دالاس» الذى يتأهب لزيارة الشرق الأوسط ـ حريصا على أن يسمع عن أحوال المنطقة ما يستطيع سماعه قبل أن يرى بعينيه على الأرض. لكن اللقاء مع «دالاس» جاء مختصرا لم يزد على عشرين دقيقة بسبب ضيق وقته، على أن معظم هذه الدقائق العشرين أكدت اهتمام الإدارة الجديدة بالحالة الإسلامية للمنطقة، باعتبارها المحدد الرئيسى (فى تقديرهم) لهويتها ولمستقبلها.

وحاولت أن أشرح لوزير الخارجية الجديد، أن هوية المنطقة عربية باللغة الواحدة والتاريخ المشترك على الأقل ـ وأن المحتوى الحضارى للهوية القومية «إسلامى» بلا جدال، وهو فى معظمه إسهام ثقافات عاشت قبل الإسلام ثم آمنت به وصبت فيه ثقافاتها مثلما فعلت مصر والشام (حافة الدولة البيزنطية) وفارس وتركيا وحتى أوربا المسلمة فى الأندلس ـ لكن وزير الخارجية الجديد لم يكن جاهزا للكلام عن مكونات الحضارة وإنما كان يفكر فى شىء آخر وقد أفلت منه أثناء الحديث قوله «إن المنطقة عندكم تعوم على بحرين: بحر من البترول وبحر من الدين»!

ولم يكن على بالى وقتها أنها معركة حول «الأفكار» وأن للإسلام فيها دورا مرسوما، وأن شعارات هذا الدين على وشك أن تصبح رهينة فى يد «آلان دالاس» شقيق «جون فوستر دالاس» فى معركة القرن التى بدأت، وأن خطف العقائد فى الخمسينيات سوف يسبق خطف الطائرات فى السبعينيات!

....

....

[وفيما بعد علمت (ومن مساعد وزير الخارجية والسفير الأمريكى بالقاهرة «هنرى بايرود») ـ أن إدارة أيزنهاور تأثرت فى سياستها إزاء العالم العربى بدراسة قام بها فريق من أساتذة جامعتى «برينستون» و«شيكاغو» وعلى رأسهم الدكتور «بولك» ـ أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة شيكاغو ـ وقد ذهبت هذه الدراسة إلى أن الدولة الوطنية فى العالم العربى ظاهرة حديثة وهشة، وأن المنطقة عاشت إلى مطالع القرن العشرين تحت سلطة خلافات إسلامية انتهت «بالعثمانيين» الذين حكموا من «استنبول» إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى.

وأضافت الدراسة أنه حتى فى قرون الحكم المملوكى الطويلة فإن أمراء المماليك غطوا فجوة الشرعية فى دولهم بخلفاء من بقايا العباسيين حمل كل واحد منهم لقب «خليفة المسلمين»، ومع ذلك ظل ألعوبة فى يد «الأمير المملوك».

أضافت الدراسة أيضا أن مشايخ الدين ـ بمن فيهم علماء الأزهر ـ قاموا باستمرار بدور الوسيط بين الأمير «المملوك» وبين رعاياه المسلمين. وعن طريق هؤلاء



حتى فى قرون الحكـــم المملـوكى
الطـويلة فإن أمـــراء الممـــاليك غطـــوا
فجــــوة الشـــرعية فى دولهـــم بخلفـــاء
من بقـــايا العـبـــاسيين حـــمل كل واحـــد منهم لقب
«خليفـــــة المســـــلمين»، ومـــع ذلـــك
ظـــــل ألعــــــــوبة فــى يـــد
«الأميـــــــر المملــــــوك»



المشايخ كانت الرعية ترفع للملوك مظالمها، وإلى هؤلاء المشايخ كان الملوك وأعوانه يعطون التوجيهات ضمانا للسمع والطاعة.]

....

....

والدول العظمى لا تغير استراتيجياتها بسهولة: لأن هذه «الاستراتيجيات» لا تصنع بالإلهام أو النزوة، ولا تتقرر بقيام حكم أو سقوط حكم، ولا يؤثر فيها أن يذهب رئيس ويجيء رئيس، فالاستراتيجيات إملاء جغرافيا وتاريخ، وقد تتغير السياسات المعبرة عنهما لتتلاءم مع متغيرات الظروف، لكن الاستراتيجية تعلم دارسيها أن الأهداف يمكن الاقتراب منها عن طريقين: اقتراب مباشر أو اقتراب غير مباشر، مع بقاء الهدف في الحالتين ظاهرا أمام عيون طالبيه حتى وإن أخذتهم «التضاريس» إلى الطرق الدائرية!

والذي حدث في المنطقة بعد ذلك معروف مشهور:

- كانت مصر تدعو إلى العمل القومي وجاءت إليه بقوى التجديد، وفي المقابل أنشأت الولايات المتحدة حلف بغداد وجمعت فيه قوى التقليد العربية مضافا إليها القوى الإسلامية الموالية لها في المنطقة: باكستان وإيران وتركيا.

- وعندما سقط حلف بغداد بثورة العراق سنة ١٩٥٨، كان دالاس هو صاحب نظرية الحلف المركزي كي يضم دول النطاق الشمالي للعالم العربي وهي: باكستان وإيران وتركيا، وكلها إسلامية، على أنه من «معجزات» تلك الفترة أن الحلف المركزي ما لبث أن سقط بدوره، وذلك عندما قام انقلاب في تركيا أطاح بعدنان مندريس (داعية حلف بغداد والحلف المركزي بعده) - وأكثر من ذلك فإن هذا الانقلاب حاكم مندريس وحكم عليه بالإعدام ونفذ حكمه!

- وكان أن السياسة الأمريكية توجهت في أعقاب ذلك ومباشرة إلى إنشاء «حلف إسلامي» صريح نقل مركزه إلى الجنوب والشرق خطوة أو خطوات، فبعد أن كان حلف بغداد يجمع في عضويته كلا من: العراق وباكستان وتركيا وإيران، جاء الحلف المركزي ليجمع في عضويته: باكستان وإيران وتركيا (أي بدون العراق) وعندما تحول الحلف المركزي إلى الحلف الإسلامي أوائل الستينيات، فقد جمع في عضويته كلا من: باكستان وإيران (أي بدون تركيا التي عدلت مسارها والتفتت إلى أوروبا ولو بالانتساب) - وأخيرا وفي نهاية المطاف أمكن تشجيع المملكة العربية السعودية - بعد حرب سنة ١٩٦٧ وضربتها القوية ضد الحركة القومية العربية - على إنشاء «منظمة المؤتمر الإسلامي». ■

الورقة الرابعة:

باكستان: دور خاص في الحرب الباردة!

■ في ذروة سنوات الحرب الباردة (من ١٩٥٥ إلى ١٩٧٥)، كانت معارك هذه الحرب على أشدها في آسيا وأفريقيا (والعالم العربي جسر واصل بين الاثنين).

وفي حرب قصد بها أن تدور «بأسلحة الأفكار وليس بأسلحة النار»، فإن بلدين - دولتين بقيت لهما - بعد كل ما جرى لسياسة الأحلاف - أهمية خاصة في الحسابات الأمريكية لهذه المنطقة الشاسعة (آسيا وأفريقيا والجسر الواصل بينهما).

● البلد الأول هو المملكة العربية السعودية، باعتبارها موطن الإسلام الأصلي (ومع أن الإسلام هاجر شمالا في كل اتجاه ليحقق انتشاره ويصنع تاريخه ويقيم حضارته) - فإن ذلك البلد (ومهما قيل عن الانتشار والتاريخ والحضارة) بقي مقر الحرمين الشريفين بما لهما من هيبة وقداسة، لكن وساوس المملكة ظلت تؤرقها لأنه حينما تكون القيمة غنى فإن القيمة ذاتها تصبح مصدر التهديد لأن الطمع حولها يزيد!

يضاف إلى ذلك أن الطبيعة خصت هذا البلد بثروة نفطية هائلة تمكنه من نفوذ سياسي يضيف إلى المكان مكانة يساعد عليها قيام منظمة المؤتمر الإسلامي.

● وأما البلد الثاني فهو باكستان باعتبارها «دولة الإسلام» في شبه القارة الهندية، وربما في العالم: لأن الإسلام فيها هوية وطنية إلى جانب كونه عقيدة دينية، وقد نشأت باكستان بالعداء وبالانسلاخ عن الهند في وقت كان للهند فيه وضع خاص في حركة التحرر الوطني عبر القارات - وبهذه النشأة فإن باكستان شعرت بوحشة حاولت تعويضها بصلات وثيقة مع الولايات المتحدة، وكان من هنا أن باكستان شاركت في كل مشروعات الأحلاف الأمريكية للشرق الأوسط (حلف بغداد والحلف المركزي والحلف الإسلامي) - والمشكلة أن هذه الأحلاف جميعا تعثرت على الطريق وسقطت، وبقيت دولة الإسلام وحيدة تبحث عن صحبة أو تبحث عن غطاء.

كانت باكستان موقعا وضعته الجغرافيا ملاصقا للهند ومجاورا للصين وقريبا من الاتحاد السوفيتي، وعلى الخريطة فإن باكستان هي أقرب نقطة من جنوب الاتحاد السوفيتي إلى المياه الدافئة، وذلك حلم الإمبراطوريات الروسية من عصر بطرس الأكبر إلى عصر ستالين الرهيب.

بالزيادة على ذلك ومع اشتداد الحرب الباردة، فإن موقع باكستان جعلها بالضبط في منتصف المسافة بين عالمين كلاهما يفور مثل بركان:

- عالم على الشرق منها يحتوي كوريا والهند والصين وفيتنام.

- وعالم على الغرب منها يحتوي الدول العربية وإيران، وكانت تلك الدول - تلك الأيام - وعلى خط ممتد من القاهرة إلى طهران تعيش مرحلة من التغييرات العنيفة سياسية واجتماعية، اندلعت فيها ثورات ووقعت انقلابات ونشبت صراعات أهمها بالطبع صراع العرب مع إسرائيل.

وفي المسافة بين العالمين - على الشرق وعلى الغرب - كانت باكستان أرضا واسعة وسماء مفتوحة تنادي القواعد العسكرية برية وبحرية وجوية، وبالطبع كانت الولايات المتحدة أول الراغبين.

وكانت باكستان بحكم التاريخ - بعد حكم الجغرافيا - تكوينا إنسانيا فريدا في تركيبته، ذلك أنه حينما أصر حزب الرابطة الإسلامية - بقيادة محمد علي جناح على تقسيم الهند - لأن الحياة داخل وطن واحد غدت مستحيلة بين المسلمين والهندوس - فإن اللورد «لويس مونتباتن» نائب الملك (الأخير) في الهند قام بتشكيل لجنة عهد إليها برسم خطوط تقسيم شبه القارة بين دولة هندية - هندوكية - وبين دولة جديدة (هندية في أعماقها)، إسلامية في تعبدها وصلاتها - وكان المبدأ الذي جرى اعتماده عند رسم الخط الفاصل بين الدولتين، أن المناطق التي تحوي أغلبية هندوكية تبقى في الهند - وأما المناطق التي تكون أغلبيتها من المسلمين فإنها تتجمع مع بعضها لتصبح كيان باكستان. وكانت عملية التقسيم أشبه ما تكون بسكين يقطع في اللحم الحي، وعلى الأرض فإنه لم يكن في باكستان غير ثلاثة أقاليم إلى حد ما هما إقليم «البنجاب» وإقليم «السند» وإقليم «البنغال» (الذي انفصل عن باكستان فيما بعد وأصبح اليوم بنجلاديش) وأما بقية الدولة فقد كانت قطعة من هنا وقطعة من هناك، وإضافة تلتحق بهذه الناحية أو تلتصق بالناحية الأخرى.

وترتبت على قيام باكستان بهذا الشكل خصائص حتمية:

- بما أن باكستان دولة جديدة جرى سلخها عن دولة قائمة - إذن فهي في خطر من البلد الأصلي الذي يعتبرها جزءا منه - ولذلك يتعين عليها أن تحمي نفسها ضده وتلك مهمتها الأولى.

- نتيجة ذلك أن الجيش الباكستاني الذي جاء إلى الدولة الجديدة شتاتا لابد من تقويته لأنه رباط الوحدة في الداخل وحارس الأمن على الحدود، وبالتالي فهو لم يصبح فقط أهم جهاز في الدولة وإنما أصبح دولة داخل دولة.

- أن المخابرات العسكرية في هذا الجيش تحتاج إلى قوة نفاذ لأنها القادرة على استطلاع نوايا الهند، وعلى كشف عناصر الطابور الخامس ممن طوّح بهم قرار التقسيم إلى الوطن الجديد، وبقي معهم انجذابهم سواء بالعادة أو بالحنين - أو حتى بالولاء - إلى الوطن الأصلي.

- وفي الحقيقة فإن الجيش والمخابرات بدورهما المحوري في أمن باكستان الخارجي والداخلي على السواء كانا طاقة الاندفاع نحو ما شاركت فيه باكستان من أحلاف عسكرية (حلف بغداد - الحلف المركزي - الحلف الإسلامي). وكانت هذه الأحلاف (مع استحالة الحرب) غارقة إلى الآذان في العمل السري. ومع ضرورات التخفي في حروب العقائد، فقد جرى الخلط بين الدعوة الدينية والتجسس الأمني بما لذلك في معظم الأحيان من نتائج خطرة.

- أنه إزاء هوية باكستان الإسلامية فإن تعميق الوطنية يتأكد بتعميق الإيمان الديني، وفي العادة فإنه عندما تتداخل السياسة في الدين، فإن شدة الضغط والرغبة في التوظيف - تحول وهج الإيمان إلى نار تعصب، ومع أن الإيمان بالمضمون والجوهر عقل، فإن التعصب درجة من درجات الحمق!

الدول العظمى لا تغير استراتيجيتها بسهولة، لأن هذه «الاستراتيجيات» لا تصنع بالإلهام أو النزوة، ولا تتقرر بقيام حكم أو سقوط حكم، ولا يؤثر فيها أن يذهب رئيس ويجيء رئيس



وكان المناخ الذى صنعته هذه الأوضاع وتاثيراتها وتفاعلاتها قد جعل باكستان مسرحا مثاليا لما تتمناه الولايات المتحدة الأمريكية وتطلبه. (وبينه ما سمعته بنفسى من الجنرال «أولمستيد» فى مكتبه وأمام خريطته داخل البنتاجون سنة ١٩٥٣ وضمنه خطة المغناطيس الإسلامي الجبار الذى يجذب إليه كتلا إسلامية تعيش فى جنوب الاتحاد السوفيتى - وقرب الصين الشعبية).

وهكذا أصبحت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لاعبا رئيسيا فى باكستان . وكذلك أصبحت هيئة الاتصال العسكرى بين قيادة القوات المسلحة الباكستانية وبين البنتاجون. (وفى عصر رئاسة «أيزنهاور») عملا مشتركا لـ قيادة عمليات مقرها مدينة «بيشاور» - وجرى تقسيم العمل:

● تولت باكستان مهمة الاتصال بعناصر المقاومة الإسلامية للدولة السوفيتية فى الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتى، وكانت بعض هذه العناصر على حق فى مقاومتها للدولة السوفيتية التي طبقت سياسة نزعت إلى طمس الأثر الإسلامى فى أقاليم ساهمت بنصيب وافر فى التراث الحضارى للإسلام.

وكانت المخابرات الباكستانية قادرة على الوصول - بالمسالك الجبلية والوسائط القبلية عبر أفغانستان - إلى جمهوريات طاجيكستان، وأوزبكستان، وتركمانستان.

وفى هذا الإطار قامت المخابرات الباكستانية ووراءها المخابرات المركزية الأمريكية على تشجيع وإنشاء جماعات تنفذ أشكالا من عمليات المقاومة تنبه - على الأقل - إلى وجود معارضة إسلامية حية وفاعلة.

ومع أن «المقاومة» الإسلامية جنوب الاتحاد السوفيتى كانت لها حجة مشروعة - فإن القوى الوافدة التى جاءت لمساعدتها كانت موضع شبهة: لأن دافعها لم يكن حفاظا على الإسلام أو حرصا عليه، وإنما كان خطط حرب خفية تدور فى الأفكار - ولا باس فيها من شرر نار طالما كان محصورا وبعيدا عن الكبار - ومن المفارقات أن الاتحاد السوفيتى أصبح مكتوبا عليه أن يتالم فى صمت، لأنه إذا اشتكى كشف ضعفه حتى إذا نجح فى إثبات سوء نية خصمه.

والذى حدث هو أن السلطة السوفيتية راحت تقمع - وفى نفس الوقت تدارى، وفى مقابل ذلك فإن نشاط المخابرات الباكستانية والأمريكية راح يواصل ضغوطه ويزداد إصرارا.

وفى هذا الإطار وداخله بدأت طائرات التجسس الأمريكية الجديدة من طراز «يو ٢» - التى تحلق على ارتفاع عال لا تطوله الدفاعات السوفيتية - تقوم بمهام استطلاع فى العمق الشرقى للاتحاد السوفيتى، وتلك هى المناطق التى اختارتها الدولة السوفيتية لمنشآتها العسكرية النووية والفضائية. فقد أراد السوفييت إبعاد هذه المنشآت إلى أقصى ما يمكن عن أوربا الغربية حتى لا يطولها التجسس الأمريكى. والآن ومن «بيشاور» (شمال باكستان) وعبر افغانستان (وذلك أقصر طريق إلى قلب روسيا) وجدت الولايات المتحدة منفذا سالكا مفتوحا أمامها لتطل وتراقب المواقع الحساسة للقوة السوفيتية.

وقد ظلت مهام الاستطلاع والتجسس من «بيشاور» تواصل عملها بطائرات «يو٢» حتى ربيع سنة ١٩٦٠، حين تمكن صاروخ روسى من إسقاط إحداها، وتكتم السوفييت على أسر قائد الطائرة وحطامها، حتى فوجئ الرئيس «أيزنهاور» فى باريس وأثناء افتتاح مؤتمر قمة للأربعة الكبار فى العالم، بالزعيم السوفيتى «نيكيتا خروشوف» يصرخ فى وجهه ويرمى أمامه على المائدة بصور تبدأ بقائد طائرة التجسس الكولونيل «فرانسيس باور» ملقى على الأرض ثم ممددا على سرير مستشفى ثم جالسا أمام صحفيين عسكريين، ومجموعة كبيرة لصور أخرى التقطتها آلات التصوير الدقيقة لطائرة التجسس وتظهر فيها تفاصيل بعض المنشآت العسكرية مبينة وكاشفة - وبعد الصراخ يمضى «خروشوف» ويصف «أيزنهاور» على مسمع من الرئيس الفرنسى «شارل ديجول» ورئيس الوزراء البريطانى «هارولد ماكميلان» بأنه «كذاب ومنافق» وهذه هى الأدلة!

فى تلك الأوقات كان تدخل الجيش الباكستانى فى شئون الحكم طاغيا، وكانت لهذا التدخل ذرائع جاهزة، فهو حارس الدولة الإسلامية وسط المخاطر، وهو الأمين على العقيدة بالمسئولية عن دولتها، وهو الشريك الرئيسى فى التحالف الباكستانى الأمريكى، وخصوصا جانبه الأمنى!

وأدى ذلك إلى تكرار الانقلابات العسكرية. وفى الحقيقة فإنها لم تكن انقلابات بالمعنى الدقيق للانقلاب، ذلك أن الذى قام بها فى جميع الأحوال قيادة الجيش التي وجدت فى بعض الظروف أن الساسة المدنيين ليسوا على مستوى الكفاءة المطلوبة للدولة - وكذلك قررت أن تتدخل لإزاحة هؤلاء الساسة المدنيين بغرض ضبط الأمور وتقويمها، وذلك تكرر من انقلاب الجنرال «أيوب خان» وحتى انقلاب الجنرال «برفيز مشرف».

ومن اللافت للنظر أن الجيش الباكستانى كان هو - أيضا - عنصر الوصل الأهم فى الصحبة بين الدولتين الحائرتين (إسلاميا): السعودية وباكستان.

● ومن ذلك أنه حين أحست الأسرة الحاكمة السعودية بالخطر من ضغط الحركة القومية عليها وتاثيرها المحتمل على القوات المسلحة السعودية - فإن الملك «فيصل» بمشورة أمريكية، استعان أو استاجر فرقتين من الجيش الباكستانى تتولى مدرعاتهما حفظ الأمن: أمن المملكة وأمن الأسرة.

وحتى هذه اللحظة لا تزال هناك قوات باكستانية تشارك فى الأمن السعودى.

● وفى إطار تلك الصحبة وعندما بدأ الجيش الباكستانى يشعر أن الهند تتقدم نوويا، وأن دولة الإسلام تحتاج قنبلتها الذرية حتى تصمد وتردع - فإن السعودية (وغيرها من الدول الإسلامية) بادرت تساعد. (وربما أنه كانت هناك رغبة أن تكون أول قنبلة ذرية ذات هوية إسلامية - وليس بالتحديد عربية - وكان الأسلحة لها - فى حد ذاتها - معتقدات).

وكذلك فإن الصحبة بين البلدين الحائرين إسلاميا: باكستان والسعودية أصبحت متجاوزة لدعوى العقيدة، وثيقة بمطالب الأمن والدفاع، وكان الصديق الأمريكى للاثنين سباقا باستمرار يمهد ويشجع ويساعد. ويرضى فى بعض الأحيان عن الفعل المشترك (كما هو الحال فى وجود فرق باكستانية لحماية الداخل السعودى). ولا يرضى فى أحيان أخرى (حين يجد أن المشروع النووى الباكستانى بمساعدات إسلامية يتقدم ويهدد الموازين الحساسة فى المحيط الهندى). ■

الورقة الخامسة:

أفغانستان: سقف العالم

■ وسط معمعان الحرب الباردة ومع خطط إثارة الفتنة فى الجمهوريات الجنوبية - الإسلامية - للاتحاد السوفيتى أصبحت أفغانستان على صعوبة أرضها وعزلة شعبها، جسرا مزدحما باكبر عملية مخابرات سرية جرى تدبيرها وتنفيذها طوال القرن العشرين.

....

....

[وأتذكر سنة ١٩٦٨ وأثناء زيارة رسمية قام بها جمال عبد الناصر إلى الاتحاد السوفيتى يطلب مزيدا من السلاح: لأن الجيش المصرى أتم مرحلة الدفاع على جبهته، وبدأ يستعد لعبور قناة السويس تحقيقا لهدف إزالة آثار العدوان - أن الزعيم السوفيتى «ليونيد بريجنيف» قال لجمال عبد الناصر أثناء جلسة المحادثات الرسمية: :إنه يريد أن يذهب معه إلى جناحه فى قصر الضيافة: لأن لديه موضوعا يرغب فى بحثه وهو يحمل فى شانه رجاء من القيادة السوفيتية».

واتضح أن طلب بريجنيف ورجاء القيادة السوفيتية لهما صلة بافغانستان.

وكان ما قاله «بريجنيف» من واقع ملخص للاجتماع كتبه السيد «على صبرى»:

«أن القيادة السوفيتية منزعجة من زيادة النشاط المناوئ للدولة فى المناطق الجنوبية من البلاد، وهذه المناطق فى غالبيتها إسلامية، والنظام السوفيتى منذ إقامته احترم عقائد وشعائر كل الأديان، ولم يتدخل فى حرية أصحابها وحقهم فى معتقداتهم. (وأنت ياسيادة الرئيس ذهبت بنفسك فى زيارة سابقة إلى طشقند وزرت مساجدها والتقيت بشيوخها وصليت معهم واستمعت إليهم).

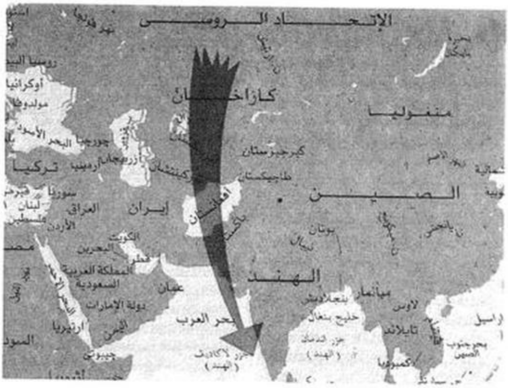
والحكومة السوفيتية لديها معلومات موثقة (وهى على استعداد لوضعها تحت تصرف صديقنا الرئيس ناصر). وكلها تؤكد أن هناك جهدا منظما تقوم به المخابرات الباكستانية لإثارة تعصب دينى «عدوانى» ليس هناك ما يدعو له. والمخابرات الباكستانية فى ذلك مدفوعة بالمخابرات المركزية الأمريكية ونحن لا نعرف ما الذى يدعو باكستان إلى مثل هذه المغامرات، وقد سالنا رئيس باكستان الجنرال «أيوب خان» ما السبب الذى يدعوهم إلى ذلك، وكان رده: «إن ما يجرى ليس سياسة الحكومة الباكستانية لكنه يعرف أن هناك عناصر فى الجيش الباكستانى غاضبة من المساعدات العسكرية التي يقدمها الاتحاد السوفيتى للهند».

«يستكمل بريجنيف كلامه





افغانستان سقف العالم وقلب آسيا



افغانستان أقصر طريق لروسيا إلى المياه الدافئة

وفق الملخص الذى كتبه على صبرى».

«إن دوائر عربية معينة بدأت تدخل فى جوانب من هذه الأعمال المعادية للسوفييت، وقد لاحظنا أن بعض الجهات السعودية وفرت أموالا لبناء عشرين مسجدا فى كازاخستان، ونحن لا نعترض على أى نوع من علاقات التعاطف بين المسلمين فى الاتحاد السوفيتى وأبناء دينهم خارجه، ولكننا نريد أن نستفهم من أصدقائنا العرب عن الهدف الذى يقصدون إليه فى تعاملهم مع المسلمين فى الدولة السوفيتية. نحن نظن أننا نساعد العرب والمسلمين فى معركتهم لتحرير أرضهم من عدوان إسرائيل - بتحريض الولايات المتحدة، كما أننا نساعد على التوصل إلى حل عادل لحقوق الشعب الفلسطينى فى أرضه وفيها مقدسات إسلامية عزيزة عليهم - لكننا فى بعض المرات نجد أن فهمنا للأمور يتعثر:

نحن نساعد القضايا العربية بقدر ما نستطيع، لكننا نجد على الجانب العربى بعض المرات تصرفات نستغربها... أخيرا صادرنا شحنات من كتب وصل عددها إلى مليون، وقال خبراؤنا أن بينها مائة ألف مصحف وبقيتها كتب فى الدعوة والتفسير، وقد سمحنا بالمصاحف؛ لأن المصحف كتاب مقدس، ومع أنه باللغة العربية ولن يعرفها أحد فى جمهورياتنا الجنوبية سوى حفنة من الناس - فقد كان تقديرنا أن الناس يسعدون باقتناء الكتب المقدسة حتى وإن لم يستطيعوا قراءتها - أما بقية الكتب فقد تحفظنا عليها فى المخازن، وقد رصدنا فى أعقاب ذلك ظهور منشورات تحرض الناس على السلطة لأنها تصادر كتبا عن المعتقدات».

وقال الرئيس عبد الناصر (طبقا لملخص المحضر) «إنه يشعر بأن الأصدقاء السوفييت يبالغون فى الحساسية: فتوزيع المصاحف على أوسع نطاق مفيد روحيا لكل الناس، وأما بقية كتب الدعوة والتفسير فإن مصادرتها خطأ لأن ما فيها معروف ومحفوظ. ثم إنه إذا كان الناس لا يقرءون العربية إذن فليست هناك من الأصل مشكلة».

ومع ذلك وعد الرئيس عبد الناصر أن يتصل فى هذا الشأن بالملك فيصل، وكذلك برئيس باكستان ورئيس وزراء أفغانستان السردار «داود خان».

(وذلك تم بالفعل وقامت الرئاسة فى مصر بإبلاغ القيادة السوفيتية بنتائجه).

كانت أفغانستان جسرا غريبا، لكنه جسر مرصوف ومهيأ لكى تمشى عليه الفتن وتتحرك المؤامرات، لأن طبيعته الجبلية، ووديانه شبه المغلقة على نفسها بالقمم العالية، ومناخه القارى القاسى - يجعله نموذجيا للمطلوب منه، فهو معزول وعازل، مطروق وإن كان بصعوبة - سالك ولكن بشروط، وأهم هذه الشروط هو التوافق مع نفر من أهل البلد الذين يعرفون المداخل والمسالك، وهم جميعا تركيب إنسانى يمتزج فيه الضعف بالقوة، والخيال بالقسوة، والغنى النفسى بالفقر المادى، والكبرياء الفردى بالولاء القبلى، وما يترتب على ذلك كله فى التعامل مع القوى داخل البيت وخارجه، وذلك يفتح للتعامل معهم وسائل وأساليب!

وموقع البلد وسط آسيا تماما - «فى قلبها» - كما كان يقول اللورد كيرزون نائب الملك فى الهند مع بدايات القرن العشرين، ثم إن الموقع هضبة مرتفعة تطل على شبه القارة الهندية وعلى القوقاز وعلى الصين وعلى إيران، حتى أن «ماركوبولو» الرحالة الإيطالى «الأسطورى» وصف أفغانستان بأنها «سقف العالم».

وأهل البلد أعراق وقبائل بعضها فى أفغانستان وبعضها وراء حدودها، حتى تكاد أفغانستان أن تكون ثلاث مناطق عرقية مقسومة بعرض البلد بخطوط شبه فاصلة.

- الشمال: من العرقين الطاجيكى والأوزبكى، بعضهم فى أفغانستان وبعضهم فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى الجنوبى (فى ذلك الوقت) طاجيكستان وأوزبكستان.

- الوسط: ينتمى إنسانيا إلى عناصر «الحزارا» وهم بقايا هجرات مغولية عبرت من الشرق إلى الغرب واستقرت جحافل منها فى أفغانستان وفاضت على شرق إيران.

- والجنوب: بأكمله من قبائل البشتون وأرض هذه القبائل ولغتها وثقافتها عائلة واحدة مع شمال باكستان.

وفى كل منطقة من هذه المناطق الثلاثة مدينة رئيسية هى الواجهة وفيها المفتاح.

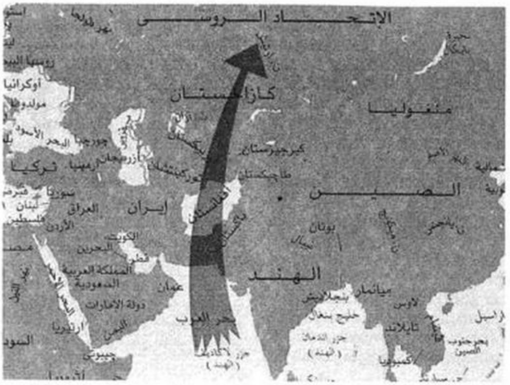
«مزار شريف» مدينة الشمال وهى طاجيكية أوزبكية - ومدينة «هيرات» عاصمة الوسط وهى شيعية فارسية، وفى وقت من الأوقات كانت «هيرات» تمثل مجتمعا يعكس صورة مصغرة للبلاط الشاهنشاهى فى طهران - بمقدار ما أن «قندهار» عاصمة الجنوب توشك رغم بعد المسافات أن تكون ضاحية من ضواحى «بيشاور» عاصمة إقليم الحدود الشمالية الشرقية فى باكستان وهو الإقليم الذى أضفت عليه قصص وأشعار الكاتب البريطانى الشهير «رديارد كيبلنج» لمسة من الغموض المثير، وربما أنه من «بيشاور» استوحى كيبلنج عبارته المأثورة بـ: «إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»!

وقد عاشت أفغانستان تاريخها الحديث وسط صراع الإمبراطوريات التى تسابقت إلى التوسع فى آسيا طوال القرن التاسع عشر:

شعب «أفغانستان» تركيب إنسانى يمتزج فيه الضعف بالقوة، والخيال بالقسوة، والغنى النفسى، بالفقر المادى والكبرياء الفردى بالولاء القبلى

دفــــاتر أزمـــة!





أفغانستان أقصر طريق من باكستان والمياه الدافئة إلى روسيا

- الإمبراطورية البريطانية تحاول تدعيم مواقعها حول درة التاج الغالية فى الهند.

- وروسيا القيصرية تضغط جنوبا بأمل الوصول إلى المياه الدافئة فى المحيط الهندى بعد أن أكملت توسعها شرقا وأطلت على المحيط الهادئ؛

- وفرنسا فى الهند الصينية تحاول أن تقفز فوق الجبال نحو الموقع الأعلى لتراقب ما تفعله بريطانيا وما تفعله روسيا.

والطبيعة الأفغانية قاسية إلى درجة جعلت اللورد كيرزون نائب الملك فى الهند (أوائل القرن العشرين) يلخص منطق الإمبراطورية قائلا: «لا داعى لاحتلال أفغانستان، الأرخص أن نشتريها»!

وكان شراء أفغانستان ممكنا: لأن توجهات الأجناس متضاربة، وولاءات القبائل لمن يقدم السلاح والذهب. وكان الشعب الأفغانى أول من وصف أحواله بقسوة، ومنها قول ذائع مؤداه: «أن الله حين خلق الطبيعة والناس، ووزع أجناس الأرض على أقاليمها وجد عنده بقايا من كل شيء: بقايا طبيعية وبقايا إنسانية وقد أخذ كل هذه البقايا وطوّح بها وسقطت كلها كومة واحدة على كوكب الأرض فى مكان أصبح اسمه أفغانستان»!

....

....

[وأتذكر المرة الوحيدة التى زرت فيها أفغانستان والتقيت بآخر ملوكها «ظاهر شاه» فى قصره وسط كابول، وبدا لى الرجل - رغم مظاهر البروتوكول الصارمة فى بلاطه - بسيطا وادعا، وعندما قلت له: «إننى مبهور بالأجواء الأسطورية لسوق كابول الذى زرته قبل أن أتوجه إلى القصر للقائه - تبسم الملك برقة ورد بما معناه أنه «يخشى أن الجو الأسطورى الذى يراه الزائرون لبلاده يلفتهم عن الحقائق فيها».

وكان الملك «ظاهر شاه» محقا فيما قاله بأكثر مما تصورت حين سمعت منه.

وفى تلك الزيارة وبعد أيام من لقاء الملك كانت لدى فرصة أن أطوف وأرى - وقد أصابنى شعور لم يغب طول الوقت بأن البلد «معتقل» فى موقعه - معتقل فى تاريخه، وقد ظللت معطلا فى «كابول» - أياما فوق ما قدرت - أنتظر الطائرة القادمة من «بيشاور». فالعاصمة الأفغانية تحيط بها سلسلة جبال شاهقة يسمونها «تخت سليمان»، والطائرة الوحيدة إلى «كابول» - تلك الأيام - تجيء من «بيشاور» فى الضحى وتعود عند الظهر. لكن الطائرة لابد أن تجد لها فتحة بين الضباب والجبل حتى تنفذ بينهما إلى مطار كابول على هذه الناحية من «تخت سليمان». وكان أول ما أفعله كل صباح أيام الانتظار أن أقصد إلى ساحة قريبة من الفندق - الخان - الذى أقيم فيه وأتطلع ببصرى إلى أعلى أقيس المسافة بين «تخت سليمان» وبين قاع السحاب، وأتساءل إذا كانت تسمح للطائرة أن تمر أو تعوقها؟ - وتثاقلت ثلاثة أيام والجو مغلق. وفى اليوم الرابع سمعت أزيز محركات الطائرة، وأعددت حقيبة السفر وهرعت بأسرع ما استطعت إلى المطار قبل أن تنزل كتل الضباب مرة أخرى تلف الذرى العالية وترقد فوقها على تخت سليمان!]

....

....

وفى أزمنة مستجدة فإن نشاط المخابرات الباكستانية والمخابرات الأمريكية عبر الجسر الأفغانى إلى الجمهوريات الإسلامية جنوب الاتحاد السوفيتى، ظل يتسع ويتزايد ويخلق مشكلاته وعقده، ويصنع توتراته وأزماته، حتى ازدحمت الأجواء وضاقت بها سماء «كابول».

والذى حدث أن السردار «داود خان» وهو ابن عم للملك وصهر له ورئيس لوزرائه راح يحاول إقناع الاتحاد السوفيتى بمساعدة أفغانستان ومساعدة نفسه ذات الوقت عن طريق تقديم أسلحة للجيش ومساعدات للاقتصاد الأفغانى، وبالفعل فإن الاتحاد السوفيتى استجاب وساعد، ربما لأنه أراد أن يتوقى من بعيد ويصد التيارات «الإسلامية» التى تهب عبر أفغانستان.

لكن نشاط المخابرات الأمريكية والباكستانية على الجسر - وفى طبيعة أفغانستان وأحوالها وأجوائها - اخترق كل شيء أمامه، وإذا رئيس الوزراء يطيح بالملك، ثم يعلن أفغانستان جمهورية، وينصب نفسه رئيسا لها ويحاول أن يحكم بيد من حديد تضبط الإسلاميين الأصوليين، وتحجم العلمانيين اليساريين. وكانت مهمة «داود خان» مستعصية بين يمين يهرب إلى الجهل ويسار يندفع إلى المجهول!

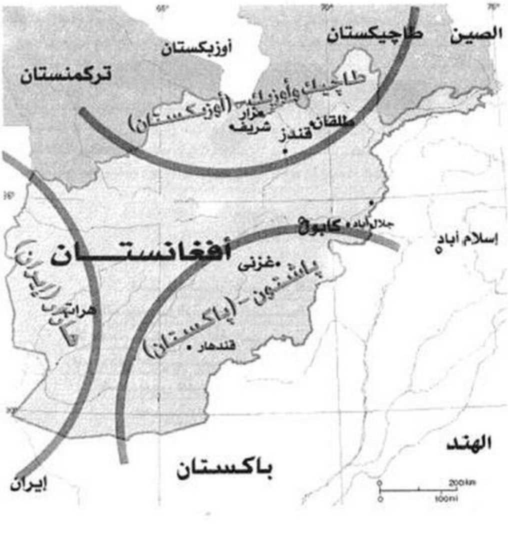
وفى ظرف أقل من سنتين كان «داود خان» الواقع بين المطرقة والسندان قد سقط ضحية انقلاب يساري ساندته مجموعة من ضباط الجيش الذين درسوا فى الاتحاد السوفيتى!

ولم تكن تلك كما بدا على السطح نكسة للمخابرات الباكستانية والمخابرات المركزية الأمريكية - بل على العكس - فإنها بدت فرصة ملائمة بل وهدية من السماء إذا أحسن استغلالها: لأن النظام اليساري - وعناصره من الشيوعيين - هدف حى ومستفز يشجع على التصويب نحوه علنا وسرا!

ومع أوائل السبعينيات كانت أفغانستان فى حالة احتقان:

- المجموعة اليسارية

«أفغانستان».. تكوين إنسانى متداخل مع كل ما حوله





الشيوعية تمارس الهواية الدائمة للحركات اليسارية وهى الانقسام والتشرذم والتفتت إلى درجة أن الفصيل الواحد يصبح ألف شظية!

- كذلك فإن «محمد تراقى» القائد المختار لرئاسة الانقلاب اليسارى الأول ما لبث أن سقط ليحل محله ضابط أقوى منه شكيمة. والداعى أن المقاومة الإسلامية للنظام راحت تقوى وتنظم نفسها فى تشكيلات مقاتلة، رفعت صيحة الجهاد، وراحت تطلب المساندة من ناحية الجسر الأخرى. وكانت المخابرات الباكستانية والأمريكية جاهزة تلبى أى طلب وتزيد عليه.

- ثم تأزمت الأمور وتعقدت عندما فوجئ الكل بقيام الثورة فى إيران وإعلان دولتها الإسلامية فى طهران، بعد سقوط «محمد رضا بهلوى» من فوق عرش الطاووس.

ووسط تلك التعقيدات وخشية تأثيرات الثورة الإيرانية على الجنوب الإسلامى فى الاتحاد السوفيتى، دفع السوفييت إلى قمة السلطة بضابط من غلاة الشيوعيين هو «بابراك كارميل» الذى لم يكد يدخل القصر الجمهورى، حتى دعا الجيش السوفيتى إلى دخول أفغانستان بحجة أن الخطر داهم، وأن نشاط المخابرات الأمريكية والمخابرات الباكستانية على وشك أن يحدث انقساما فى الجيش الأفغانى يمهد الطريق ويفتحه لعناصر فى كابول مستعدة للتفاهم مع الولايات المتحدة. ■

الورقة السادسة:

موسكو تقع فى الفخ الأفغانى!

■ لم يكن قرار القيادة السوفيتية بدخول الجيش الأحمر إلى أفغانستان سهلا، بل كان اختيارا بالغ التعقيد فرض عليها ما لم تكن مستعدة له أو متفقة عليه. والحقيقة أن قرار التدخل أحدث انقساما داخل المكتب السياسى للحزب الشيوعى. كما أنه أوقع خلافا بين المكتب السياسى وبين القيادة العليا للقوات المسلحة السوفيتية. وطبقا للوثائق (التى فتحت ملفاتها قبل أوانها بأمر من الرئيس الأسبق «بوريس يلتسين» بقصد تحديد المسئوليات فى النهاية المؤلمة للنظام الشيوعى) - فإن أول إشارة واضحة عن احتمال دخول الجيش السوفيتى إلى أفغانستان وردت فى مذكرة من الجنرال «ليونيد شيبارشين» الممثل الرئيسى للمخابرات السوفيتية فى كابول والمذكرة «تشير إلى اتصالات سرية يقوم بها الجنرال «حفيظ الله أمين» مع «قيادات التمرد» الإسلامى غايتها تمكين عملاء المخابرات الأمريكية من مقادير البلاد. وتظهر بعد ذلك فى الوثائق السوفيتية رسائل من «بابراك كارميل» تشرح خطورة الأوضاع فى كابول، ثم تتحدد الخطوط أكثر فى مذكرة مشتركة قدمها إلى المكتب السياسي أربعة من أعضائه هم: «يورى أندربوف» المشرف على الأمن الداخلى، و«أندريه جروميكو» وزير الخارجية، و«ديمترى أوستينوف» نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع، و«بوريس بوناماريوف» مسئول الشئون العقائدية. وفى هذه المذكرة أبدى الساسة الأربعة «أن الموقف فى كابول يقتضى دخول قوات من الجيش السوفيتى وإلا فإن أفغانستان سوف يجرى تسليمها للولايات المتحدة الأمريكية وعملائها بكل ما يعنيه ذلك من انكشاف يعرض للخطر أمن الجمهوريات السوفيتية الجنوبية (الإسلامية).

وعندما عرضت المذكرة - وهى مكتوبة بخط اليد - على اجتماع المكتب السياسى يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٩ - اعترض عليها خمسة من أعضائه وهم: «سوسلوف» - و«جريشين» - و«كيرلينكو» - و«بلش» - و«تيخونوف». وكان رئيس المكتب السياسى وهو الزعيم السوفيتي «ليونيد بريجنيف» موزعا بين الفريقين، والداعى إلى حيرته أن ثلاثة من كبار القادة العسكريين الذين حضروا اجتماع المكتب السياسي اعترضوا هم - أيضا - على إدخال الجيش السوفيتى أو وحدات منه إلى «ساحة الفوضى الأفغانية». وكان الثلاثة هم: الماريشال «نيكولاى أوجاركوف» - والماريشال «سيرجى أخرامووييف» من رئاسة أركان حرب الجيش - والجنرال «فالنتين فادينيكوف» وهو المستشار العسكرى لرئيس المكتب السياسى (زعيم الاتحاد السوفيتى).

وطالت المناقشات طوال يومى ٢٥ و٢٦ ديسمبر وعند الظهر انضم «بريجنيف» إلى معسكر الداعين للتدخل. وبانضمامه إليهم رجحت كفتهم وصدر القرار. ومع غروب مساء يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٧٩ نزلت وحدات من الجيش السوفيتى بالطائرات فى مطار «كابول»، كما أن فرقة مدرعة من هذا الجيش بدأت عبور الحدود بسرعة متوجهة إلى العاصمة الأفغانية.

وصباح يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٧٩ نزل الرئيس الأمريكي «جيمى كارتر» إلى مكتبه البيضاوى فى الساعة السادسة والنصف كما هى العادة كل يوم ليجد مستشاره لشئون الأمن القومى «زبجنيو برجينسكى» فى انتظاره بنفاد صبر، ومع أن ذلك الاجتماع الصباحى موعد مقرر كل يوم بين الرئيس ومستشاره، فإن «كارتر» كان يعرف أن أخبارا مثيرة تنتظره. فقد أيقظه «برجينسكى» من النوم فى الساعة الثانية صباحا ليخطره بأن «الجيش السوفيتي دخل أفغانستان»، وكذلك كان «كارتر» يتوقع - وقد مرت أربع ساعات ونصف على هذا الإخطار المبدئى - أن مستشاره للأمن القومى ينتظره فى المكتب البيضاوى حاملا «سيلا من التفاصيل» و«قائمة من الخيارات»: للعرض وللقرار.

....

....

[ومن المصادفات أننى سمعت بنفسى بعد عشر سنوات تفاصيل حوار الرئيس الأمريكى مع مستشاره للأمن القومى، وقد سمعتها من الطرف الأقدر على روايتها وهو «زبجنيو برجينسكى» نفسه، ووقتها كنا فى أحد صالونات السفارة المصرية فى موسكو ليلة ١٨ نوفمبر ١٩٨٩ - والسفير فى ذلك الوقت هو وزير الخارجية المصرى الحالى «أحمد ماهر».

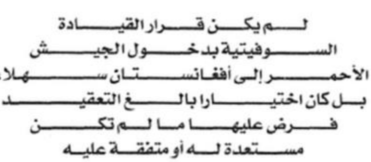
وقتها كانت موسكو (أيام جورباتشوف وفترة الجلوسنوست أو الشفافية) تشهد اجتماعات مصارحة بين الروس والأمريكان، وكانت الاجتماعات تحت قيادة رجلين كلاهما يعرف الخبايا:

«أناتولى دوبرينين» السفير السوفيتى فى واشنطن لربع قرن، وهو عضو فى المكتب السياسى مع جورباتشوف - على الناحية السوفيتية.

وأما على الناحية الأخرى فقد كان «زبجنيو برجينسكى» مستشار «كارتر» للأمن القومي - هو الذى يتصدر المجموعة الأمريكية.

وكان «أحمد ماهر» بيقظة دبلوماسى مجرب قد دعا المجموعتين: الروسية والأمريكية إلى العشاء فى بيت السفارة المصرية، وكان السفير الأمريكى فى موسكو وقتها (ماتلوك) وكنت - الضيفين الوحيدين من خارج مجموعتى «المصارحة»!

وعلى مائدة العشاء دار كلام لاحظ فيه «أناتولى دوبرينين» أن الدبلوماسية فى الزمن الجديد تقتضى تشاورا مسبقا بين الأطراف لا تتخفى فيه النوايا وراء العبارات المبهمة، لأننا فى عصر لم يعد فى مقدور طرف أن يخبئ فيه شيئا، وأن «الشطارة» الزائدة فى السرية كما كان فى عهود سابقة لم يعد لها لزوم؛ لأن تصرفات الأطراف فى أى أزمة تدل عليها الخيارات المفتوحة أمامهم وضمنها حسابات قوتهم. ثم إن «مناخ السرية قد يوقع الجميع وبينهم أصحابه فى خطأ التقدير وكذلك تبدأ ردود أفعال تصعب السيطرة عليها وتؤدى لأوخم العواقب». وأشار «دوبرينين» على سبيل التدليل إلى قرار دخول الجيش السوفيتى إلى أفغانستان، وكيف أن سرية التصرف ومفاجآته أوقعت الطرف الأمريكى فى خطأ كبير عند تقدير النوايا السوفيتية، بمعنى أن السوفييت اعتبروا دخولهم إلى أفغانستان إجراءً دفاعيا محضا، لكن الأمريكان «قدروه» هجوميا وتصرفوا على هذا الأساس».



لم يكن قرار القيادة السوفيتية بدخول الجيش الأحمر إلى أفغانستان سهلا، بل كان اختيارا بالغ التعقيد فرض عليها ما لم تكن مستعدة له أو متفقة عليه



وبعد أن غادرنا مائدة العشاء وجلسنا للقهوة ومعها أحاديث السهرة، في ركن من الصالون الرئيسي لبيت السفارة، قلت لـ «برجينسكي» ولـ «دوبرينين» معا أن حكاية الدخول العسكرى السوفيتي إلى أفغانستان والرد الأمريكي عليه واقعة مهمة في سياق الحرب الباردة تساوى التقصى والتدقيق، ولذلك أستأذنهم في العودة إليها.

والشاهد أننى لم أكن في حاجة إلى أكثر من سؤال واحد وجهته لدوبرينين، ورد عليه بقوله: «صحيح مازال اعتقادى أن أصدقاءنا الأمريكان أخطأوا في تقدير نوايانا: كان إجراؤنا دفاعيا صرفا وكان ذلك ظاهرا أمامهم، لكنهم أخذوه هجوميا وعدوانيا وكذلك فعلوا ما فعلوا»! - ثم كان أن «برجنيسكى» تدخل وأفاض في الحديث ولقرابة ربع الساعة راح يتكلم ونحن جميعا نصغى دون مقاطعة (وحين حاول السفير الأمريكي «ماتلوك» أن يتدخل في الحديث وجدتنى دون قصد أشير إليه بيدى راجيا منه أن لا يقطع تدفق الرواية واستجاب الرجل).

قال «برجنيسكى» وبأسلوبه الذى تتدافع فيه العبارات وتتماسك الألفاظ وتجيء مخارج حروفها قائمة محددة موجها كلامه في البداية لدوبرينين:

«كيف كان يمكن لى - أو لغيرى - فجر ٢٧ ديسمبر تقدير نواياكم باعتبارها «عملا دفاعيا» - بينما كانت الشواهد أمامنا تقول بعكس ذلك؟

يستطرد برجنيسكى وقد عاودته حرفته القديمة أستاذا للعلوم السياسية:

● أولا: كانت الأجواء في المنطقة شديدة التوتر بقيام الثورة الإسلامية في إيران ونجاحها وسقوط النظام الإيرانى بكل مؤسساته: العرش والحكومة والجيش - في يد آية الله الخمينى قائد الثورة الإسلامية الذى راح يهاجم أمريكا باعتبارها الشيطان الأكبر، ولم تمض أسابيع حتى أنتج التحريض أثره وإذا السفارة الأمريكية في طهران - تقع تحت الحصار ويتحول كل من فيها رهائن لشباب إسلامى غاضب.

● وثانيا (موجها كلامه لدوبرينين): أنكم تدخلتم في حرب أهلية أفغانية بين حكومة شيوعية وأغلبية من السكان مسلمة، وقد وجدناكم ذات صباح تقتحمون حدود أفغانستان وإذا القوات السوفيتية طرفا في هذه الحرب الأهلية - ضد المسلمين!.

● وثالثا: فإننى شخصيا وغيرى من أعضاء مجلس الأمن القومى الأمريكي (الذى دعوته قبل اجتماعى الصباحى مع الرئيس). قدرنا أنه لا يمكن أن يكون تدخل الجيش السوفيتي نهاية النهاية في أفغانستان، وإنما لابد أن يكون دخولكم بداية البداية.

يستطرد «برجينسكى»:

«وعندما جلسنا أمام الرئيس «كارتر» صباح ٢٧ ديسمبر سألنى عن تقديرنا لنواياكم وقلت له:

«سيادة الرئيس نحن أمام جيش سوفيتي يزحف جنوبا في أفغانستان - وأفغانستان هى أقرب طريق للسوفييت إلى المحيط والخليج، ونحن لا نستطيع على الإطلاق وبضمير مستريح أن نقطع بأنهم لن يذهبوا إلى أبعد من أفغانستان، وحتى من أفغانستان فإنهم اقتربوا أكثر مما ينبغى من المياه الدافئة للمحيط الهندى ومن منابع النفط في الخليج وذلك يدعونا إلى التصرف وتصرفنا يكون له هدفان:

الهدف الأول: وقف السوفييت لا يتقدمون بعد أفغانستان.

والهدف الثانى: إرغامهم على التراجع والخروج من أفغانستان.

وبصراحة فإننى قلت للرئيس أيضا:

«سيادة الرئيس إن الروس وقعوا في فخ، وتلك فرصتنا كي نرد لهم جميل فيتنام، ولذلك يتعين علينا أن نعمل على سد الطرق أمامهم بحيث تتحول أفغانستان إلى مصيدة لا يخرجون منها إلا بفضيحة تهز هيبة الدولة السوفيتية وتكسر شوكتها». ■

الورقة السابعة:

أنجح عملية مخابرات في القرن العشرين

■ ■ في الساعة الثانية من صباح يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩ انعقد مجلس الأمن القومى بحضور الرئيس «كارتر» لبحث «الدخول العسكرى السوفيتي في أفغانستان واستعراض الخيارات المفتوحة أمام الولايات المتحدة للرد عليه».

وكانت جلسة مجلس الأمن في الواقع حوارا نشيطا بين مستشار الرئيس للأمن القومى «زبجنيو برجينسكى» وبين الأميرال «ستانسفيلد تيرنر» مدير وكالة المخابرات المركزية، وطبقا للوثائق الأمريكية - وضمنها مذكرات «كارتر» ووزير الخارجية «سايروس فانس» (ومذكرات برجينسكى نفسه) فإن اجتماع مجلس الأمن القومى استقر على الخطوط التالية:

١- أن ما عرضه مستشار الأمن القومى وما توافر لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة الأمن القومي ومخابرات وزارة الدفاع تقطع كلها بأن حجم التدخل العسكرى السوفيتي في أفغانستان كثيف، وبالتالى فإنه «ضمن الاحتمالات التى لا يمكن استبعادها أن يكون الهدف التالى لهذه القوات عملا سوفيتيا في اتجاه الخليج حتى بحر العرب والمحيط الهندى، وذلك تهديد للمصالح القومية الأمريكية».

٢- أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتدخل علنا ضد السوفييت في أفغانستان لأنها لا ترتبط مع هذا البلد بأى اتفاقيات دفاع مشترك، ثم إن تدخلها الصريح حتى مع تجاوز الاعتبارات القانونية، يمكن أن يؤدى إلى صدام مباشر مع الاتحاد السوفيتي ويمكن أن يستفز من ردود الفعل السوفيتية، مما يجعل الخطر على الخليج (حتى بحر العرب والمحيط الهندى) محققا وليس محتملا فقط.

٣- أن الولايات المتحدة مدعوة إلى تعزيز وجودها المسلح في الخليج، تحسبا لكل الاحتمالات، ولذلك فإن سفراءها المعتمدين عليهم الآن أن يطلبوا من «الأطراف المحليين» أن يسمحوا بهدوء وبغير صخب إعلامى - بتفعيل تفاهمات واتفاقيات سابقة في التعاون العسكري مع الولايات المتحدة.

٤- أن الولايات المتحدة عليها أن تشجع عناصر المقاومة في أفغانستان على تكثيف نشاطها بما يمكنها من تعطيل الجيوش السوفيتية، ثم الانتقال من حرب التعطيل إلى حرب التوريط - أى حرب استنزاف ترغم السوفييت في النهاية على الانسحاب من أفغانستان عسكريا في ظروف غير ملائمة سياسيا.

٥ - وبما أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تظهر فاعلا رئيسيا في النشاط العسكرى المعادى للسوفييت في أفغانستان - حتى لا يؤدى ذلك إلى صدام مسلح بين القوتين - فإن عليها (الولايات المتحدة) أن تجد قيادة بديلة لهذه الحرب الخفية في أفغانستان، ولابد أن تكون لهذه القيادة أهلية تعطيها نوعا من مشروعية «التدخل عمليا» ضد السوفييت في أفغانستان.

٦- بما أن المقاومة الأفغانية التى أدى نشاطها إلى خلخلة الأوضاع في أفغانستان بما أوصل إلى التدخل السوفيتي مقاومة إسلامية، فإنها لابد أن تستمر كذلك وتتصاعد باستنفار كافة أصدقائها ومناصريها في العالم الإسلامى

كان تقدير أعضاء مجلس الأمن القومى الأمريكى أنه لا يمكن أن يكون تدخل الجيش السوفيتى نهاية النهاية فى أفغانستان، وإنما لابد أن يكون دخولهم بداية البداية



والدول الإسلامية، والوصول في ذلك إلى حد تكوين تحالف إسلامي واسع يحمل عبء محاربة ضد السوفييت في أفغانستان.

٧ـ وهذه المقاومة لابد لها من مصدر سلاح وذخيرة لا ينقطع، وحين سأل أحد الحاضرين عن مصدره كان الرد عليه (من برجينسكى): لابد أن نحصل عليه من أي مكان، نشتريه، نستأجره، نسرقه إذا أدى الأمر.

٨ـ ومن الأفضل أن يكون السلاح سوفيتى الصنع حتى يصعب اتهام الولايات المتحدة بأنها مصدره، وذلك يعطيها فرصة أن تقول للسوفييت إذا سألوها، إن هذا سلاح سوفيتى تحصل عليه المقاومة الإسلامية من الاتحاد السوفيتى أو قواته فى أفغانستان «أى من عندهم»!

٩ـ إن المملكة العربية السعودية قدمت من قبل دعمها إلى العناصر الإسلامية فى أفغانستان، وفيما تقول به التقارير، فإن المملكة العربية السعودية التى تشعر الآن بضغط الثورة الإسلامية فى إيران عليها، وترى أن سقوط الملكية فى إيران نذير شؤم للأسرة الحاكمة ـ على استعداد لأن تتخلى عن حذرها التقليدى وتوظف «موارد المملكة المعنوية والمادية» فى «جهاد إسلامى مقدس ضد الإلحاد السوفيتى، وإذا تحمست المملكة للدعم فإن السلاح يمكن ضمانه بالشراء من مصادر عديدة (والمال عصب كل أنواع الحروب بما فيها الجهاد الإسلامى!).

١٠ـ ومن باب الاحتياط لاحتمال أن تتحرج المملكة «بترددها الدائم» فى الخروج وحدها إلى هذا الجهاد المقدس، فإنه من الضرورى تدعيمها مبكرا بشراكة إسلامية واسعة راسخة وقوية، بحيث يكون من ذلك إغراء لها بدور قيادى على رأس تجمع إسلامى يخوض «الجهاد» دفاعا عن الدين والشرع.

والسعودية فى الواقع جاهزة لهذا الدور إذا وجدت تشجيعا عليه: لأن الثورة الإيرانية حركت قلقا إسلاميا فى المملكة وتظهر فى وسطه قيادات متشددة من الوهابيين الذين علا صوتهم بالنقد لتصرفات الأسرة الحاكمة فى ثروة المملكة، كذلك فإن الثورة الإيرانية كان لها ردود فعل فى المناطق الشرقية من المملكة وهى مناطق شيعية المذهب وعلاقتها بالنظام من الأصل متوترة.

....

....

[ولم أكن أتصور درجة عداء الوهابيين للمذهب الشيعى حتى لقاء مع الملك فيصل فى فندق فلسطين بالإسكندرية فى شهر يونية ١٩٧١، وخلال حوار طال أكثر من ساعتين سمعت الملك فيصل يمتدح شاه إيران «محمد رضا بهلوى» بحرارة ويستفيض فى وصفه كرجل ذكى و«مقدام» ثم يستدرك فجأة قائلا بالحرف:

«لا عيب فيه ـ طال عمرك ـ إلا أنه شيعى»!]

....

....

١١ـ أن مصر يمكن إقناعها بأن تتقدم سندا قويا للسعودية فى «تدخل إسلامى معاد للسوفييت فى أفغانستان»، والرئيس «أنور السادات» متحفز فى أي وقت للعمل ضد الاتحاد السوفيتى وهو بالفعل منهمك فى نشاطات متنوعة فى هذا الاتجاه بموجب اتفاق «نادى السافارى» الذى يضم السعودية ـ والمغرب ـ وإيران ـ ومصر ـ وفرنسا، ومع أن تجمع السافارى يركز نشاطه على أفريقيا ـ فإنه ليس صعبا إقناع الرئيس السادات بفتح جبهة أخرى لهذا النشاط يقوم عليها عمل جهادى ضد السوفييت فى أفغانستان.

وهناك مغريات إضافية تقنع الرئيس السادات بذلك:

ـ أن الثورة الإسلامية فى إيران تشغل باله (أى الرئيس السادات) خشية زيادة نفوذ الجماعات الإسلامية فى مصر ولو بالعدوى. وهو (أى الرئيس السادات) غاضب من الثورة الإيرانية لأنها أنهت حكم أسرة «بهلوى» وعزلت صديقه «محمد رضا بهلوى» شاه إيران.

ـ أن الرئيس السادات راغب إلى أقصى درجة ـ وإلى آخر حد فى التعاون مع الولايات المتحدة عن اعتقاد لديه من أيام إدارة نيكسون وكيسنجر بأن «٩٩٪ من أدوار حل قضية الشرق الأوسط فى يد الولايات المتحدة وحدها». وهو لم يقصّر فى إعلان ما يعتقده ولا فى التصرف على أساسه.

....

....

[وكانت هذه العلاقة بين الرئيس «السادات» وبين شاه إيران من مفارقات السياسة المصرية وعجائبها ـ! ـ ذلك أن شاه إيران كان ـ باستمرار وبغير انقطاع ـ أقرب الأصدقاء إلى إسرائيل، كما أن بترول إيران كان وقود أسلحة الجيش الإسرائيلى فى البر والجو والبحر طول معارك السويس ١٩٥٦، وسيناء ١٩٦٧، والاستنزاف ١٩٦٨ إلى ١٩٧٠، والعبور سنة١٩٧٣.

ولكن الرئيس «السادات» روى فى معرض دفاعه عن استضافته لشاه إيران فى مصر بعد طرده من الولايات المتحدة الأمريكية ـ وليس فقط من إيران ـ بقوله: «إنه استضاف شاه إيران حتى يرد له جميلا سبَق به «الرجل» إلى مساعدة مصر وتمثل بشحنة بترول كان المجهود الحربى ـ فى أكتوبر ١٩٧٣ ـ يحتاجها وطلبها (الرئيس السادات) من شاه إيران، فقام الشاه بتحويل إحدى ناقلات البترول الإيرانية بكامل حمولتها من عرض البحر إلى مصر بدلا من وجهتها الأصلية.



كانت العلاقة بين الرئيس «السادات» وبين شاه إيران من مفارقات السياسة المصرية وعجائبها، ذلك أن شاه إيران باستمرار وبغير انقطاع أقرب الأصدقاء إلى إسرائيل، كما أن بترول إيران كان وقود أسلحة الجيش الإسرائيلى فى كل حروبه ضد العرب

وتلك واقعة فيها من العواطف أكثر مما فيها من الحقائق (فيما أعرف عن مسار الحرب وقد كنت قريبا منه، مقيما طول الوقت تقريبا فى قصر الطاهرة الذى كان الرئيس السادات يمارس منه قيادته، كذلك لا يظهر للواقعة أثر فى الملفات الرسمية ذات الصلة، وقد بحثت فيها زيادة فى طلب التأكيد)، والأرجح أن الرئيس السادات كان يحاول البحث عن ذريعة لاستضافة الشاه، ومع أن الذريعة الإنسانية كانت تكفيه إلا أنه قصد فى مواجهة المناخ المتعاطف مع الثورة الإيرانية ذلك الوقت، أن يستدعى الوطنية المصرية لتسهيل قبول قراره باستضافة الشاه.

والمدهش فى الأمر أن إطار الواقعة مستعار من قصة حقيقية جرت سنة ١٩٦٥ أثناء الخلافات بين مصر والولايات المتحدة على اتفاقيات توريد القمح بمقتضى القانون رقم ب. ل ٤٨٠، وذلك أنه فى نهاية صيف ذلك العام أوقفت واشنطن شحنات القمح إلى مصر. وطلبت مصر شراء قمح سوفيتى، ولم يكن لدى الاتحاد السوفيتى فائض، لكن رئيس الوزراء «اليكسى كوسيجين» بعث يقول: «إن المحصول السوفيتى من الحبوب هذه السنة جاء أقل من المتوقع، مما اضطر الاتحاد السوفيتى أن يدخل سوق القمح مشتريا من السوق الكندى، لكنه بالنظر إلى تعرض مصر لضغوط أمريكية، فإن القيادة السوفيتية أمرت بتحويل شحنات قمح مشتراة للاتحاد السوفيتى إلى مصر، وسوف تتوجه البواخر الحاملة للقمح وهى الآن فى المحيط الأطلسى إلى ميناء الإسكندرية على البحر الأبيض بدلا من الذهاب إلى ميناء «أوديسا» على البحر الأسود!».

وهذه الواقعة منشورة فى وقتها ـ معلنة ومسجلة (الصفحة الأولى من الأهرام، العدد الصادر صباح ٢٥ يونية ١٩٦٥).

ويظهر أن الرئيس «السادات» فى رغبته لمساعدة شاه إيران، استعار له مشهدا من قصة العلاقات المصرية ـ السوفيتية وأعاد صياغته بما يناسب هواه فى ظرف مختلف.

وذلك مسلك يستطيع علم النفس تفسيره فى «حالة» تقوم فيها «الرغبة» باستعارة مشهد من واقعة حقيقية وتقوم بـ: «تلبيسه» على واقعة أخرى ـ وهو نوع من إعادة تركيب الصور وتوظيف قدرتها على خلق الانطباع (حتى وإن كانت الصورة مركبة!)]

....

....

وعلى أى حال فقد انتهت مداولات مجلس الأمن القومى الأمريكي برئاسة «جيمى كارتر» صباح ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩ بتوجيه رئاسى يقضى بـ:

«أن يتوجه مستشار الرئيس للأمن القومي «زبجنيو برجينسكى» إلى منطقة الشرق الأوسط بادئا بالقاهرة لمقابلة الرئيس «أنور السادات» والبحث معه فى تنظيم جهد إسلامى شامل يساند المقاومة الإسلامية الأفغانية فى مواجهتها لجيش الاحتلال السوفيتى، ثم يتوجه مستشار الأمن القومى



بعد القاهرة إلى الرياض لمقابلة الملك خالد وولي العهد الأمير «فهد» ووزير الدفاع الأمير «سلطان» ويجرى معهم محادثات تضمن حشد موارد السعودية ونفوذها لقيادة «جهاد إسلامي» ضد الشيوعية في أفغانستان، وإذا نجح «برجينسكي» في مهمته مع الرئيس السادات فإنه يستطيع أن ينقل إلى القادة السعوديين ما يطمئنهم إلى أنهم ليسوا وحدهم (في ساحة الجهاد)».

«وأخيرا يتوجه مستشار الأمن القومي إلى باكستان ليقوى موقف الحكومة فيها بموارد السعودية ونفوذها - وبنقل مصر ووسائلها - وحتى تثق هذه الحكومة في إسلام آباد أنها سوف تكون وسط عمل إسلامي يلتف فيه من حولها ويجمع على أرضها قوى الإسلام وإمكانياتها».

وكان ذلك حلم باكستان الذي بدا بعيد المنال - والآن أصبح في متناول اليد!

وطوال الأسبوع الأول من شهر يناير ١٩٨٠ كان «زبجنيو برجينسكي» مستشار الرئيس «جيمي كارتر» للأمن القومي في زيارة سرية ممتدة للشرق الأوسط.

يوم ٣ يناير قابل الرئيس «أنور السادات» لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة، وفي اليوم التالي ٤ يناير كان في جدة يقابل الأمير «فهد» والأمير «سلطان»، ويوم ٥ يناير وصل «برجينسكي» إلى إسلام آباد ليرتب الأرضية للجهاد باسم الإسلام ضد الإلحاد.

لكن العملية كما اتضح الآن كان وراءها أكثر مما ظهر منها - لأن الجهاد الإسلامي الذي أعلن ضد الاتحاد السوفيتي لم يكن رد فعل طبيعيا لدخول الجيش السوفيتي، وإنما كان: خطوة وسط سياق جرى قبلها واستمر بعدها:

- كانت الخطوة الأولى قرارا أمريكيا بإزعاج السوفييت في جمهورياتهم الجنوبية من قواعد في أفغانستان.

- والخطوة الثانية تصعيد هذا النشاط وتكثيفه إلى درجة تضطر السوفييت إلى التدخل العسكري.

- وأخيرا تجيء الخطوة الثالثة وهي إعلان الجهاد عندما يقع الدخول السوفيتي المأمول والمطلوب.

وذلك سياق الحقائق التي تكشف أخيرا أن «برجينسكي» كان يتستر عليها بأستار سميكة من الغموض، لكنه أخيرا فتح خزائن ذاكرته (وأوراقه) واعترف في حديث طويل مع المجلة الفرنسية «لانوفيل أوبسرفاتور» اعترافا كاملا وافيا - وقد جرى الحديث بالنص التالي:

[سؤال: إن المدير السابق لوكالة المخابرات الأمريكية «روبرت جيتس» كتب في مذكراته التي صدرت أخيرا بعنوان «من الظلال» أن المخابرات الأمريكية بدأت تساعد «المجاهدين» في أفغانستان بشكل مكثف قبل ستة شهور من دخول الجيش السوفيتي إلى ذلك البلد، وقد كنت أنت في تلك الأيام مستشارا للأمن القومي لرئيس الولايات المتحدة، ومعنى ذلك أنك تعرف وأنه كان لك دور، فهل ما ذكره «جيتس» صحيح؟

برجينسكي: نعم. طبقا لما تقول به السجلات الرسمية، فإن الولايات المتحدة لم تدخل بثقلها في أفغانستان إلا سنة ١٩٨٠ بعد أسابيع من دخول القوات السوفيتية إلى كابول، لكنه في التاريخ الحقيقي (بصرف النظر عما تقول به السجلات) فإن التدخل الأمريكي لمساندة «المجاهدين» بدأ قبل ذلك بستة شهور.

إنني يوم ٣ يوليه سنة ١٩٧٩ عملت على إصدار توجيه رئاسي من «كارتر» بتقديم كل المساعدات الممكنة إلى العناصر المعادية للسوفييت في كابول، وفي ذلك اليوم كتبت للرئيس مذكرة قلت فيها: «إن موقف السوفييت يزداد صعوبة في أفغانستان مع كل يوم، وأعتقد أننا إذا رفعنا الضغط درجة، فاعتقادي أن الاتحاد السوفيتي سوف يرغم على التدخل عسكريا ومباشرة في أفغانستان».

سؤال: معنى ذلك أنك فعلت ذلك عامدا لاستفزاز السوفييت؟

برجينسكي: ليس بالضبط. نحن لم نقم بـ «زق» الروس حتى يتدخلوا، ولكننا عارفين بما نفعل - رفعنا درجة احتمال تدخلهم - وقد حصل.

سؤال: هل معنى ذلك أن الروس كانوا على حق في تبرير دخولهم إلى أفغانستان على أساس أنهم اضطروا إليه لمواجهة عملية سرية تقوم بها الولايات المتحدة ضدهم؟ كانوا يقولون ذلك ولم يكن أحد يصدقهم والآن يظهر أن فيما قالوه شيئا من الحقيقة، وذلك أمر يدعو إلى الأسف!

برجينسكي: الأسف على ماذا؟ أن العملية السرية التي قمنا بها كانت فكرة رائعة، لقد أدت إلى دخول السوفييت في فخ تمنينا أن يدخلوا في مثله وقد دخلوا، فهل تريدون أن أقول لكم أنني آسف على مخطط وضعناه ونفذناه ونجح بامتياز؟

يوم تدخل الروس بجيشهم في أفغانستان كتبت للرئيس «كارتر» مذكرة قلت له فيها: «إن أمامنا الفرصة الآن لكي نجعل الاتحاد السوفيتي يذوق مرارة الكأس التي شربناها في فيتنام، والحقيقة أننا ولمدة عشر سنوات جعلنا الروس ينزفون دما ولا يستنزفون جهدا فقط: فهم حين دخلوا أضروا باقتصادهم وأرهقوا سلاحهم وأضعفوا معنويات جنودهم وأضروا بهيبتهم، وذلك أدى في النهاية إلى تمزق الإمبراطورية السوفيتية.

سؤال: هل تعرف أن ذلك معناه أنكم أعطيتم السلاح للإرهابيين الذين أصبحوا أعداءً لكم؟ ... أنكم خلقتم بذلك صورة الإسلام الإرهابي.

برجينسكي: أيهما أفضل للغرب: انهيار الاتحاد السوفيتي، أو ممارسة الإرهاب بواسطة بعض الجماعات الإسلامية؟ أيهما أخطر على الغرب: طالبان أو الاتحاد السوفيتي؟

سؤال: لكن الإرهاب الإسلامي يمكن أن يتحول إلى موجة عالمية؟

برجينسكي: هذا كلام فارغ. يخلط بين الإسلام وبين ظواهر العولمة. لننظر إلى الأحوال الإسلامية بدون تهييج. هناك دين له احترامه وله أتباع يقدر عددهم بمليار ونصف المليار من الناس، لكن الدين لا يجمع هؤلاء سياسيا في التحليل الأخير. ما الذي يجمع مسلما أصوليا من السعودية، أو مسلما عسكريا من باكستان، أو مسلما معتدلا من المغرب، أو مسلما متعلما من مصر، أو مسلما قبليا من وسط آسيا؟ - لا شيء يجمع هؤلاء إطلاقا. لا يجمعهم إلا ما يجمع المسيحيين في العالم وهو في الواقع لا شيء!]

هكذا تكلم الرجل الذي «صمم» و«هندس» «مشروع الجهاد الإسلامي في أفغانستان» - متواصلا فيه مع استراتيجية أمريكية ثابتة جرى وضعها من قبل زمنه وزمن رئيسه «جيمي كارتر» - بهدف كسب معركة كان عليها أن تدور في أفكار الناس وعقولهم، والهدف أن تتفوق الرأسمالية الأمريكية ومثالها - الإمبراطوري.

وتلك معركة بدأها «دوايت أيزنهاور» (ومعه الأخوان فوستر وآلان دالاس) - وواصلها «جيمي كارتر» (ومعه برجينسكي وستانسفيلد تيرنر) - وأخيرا وصلت المعركة إلى «جورج بوش» (ومعه دونالد رامسفيلد وكونداليزا رايس). وكان وصولها إلى «بوش» في ظروف متغيرة ذابت فيها ثلوج كثيرة فوق جبال أفغانستان، وذابت قربها إمبراطوريات.

وكان الدفتر الأول من دفاتر الأزمة قد بلغ آخره وانطوى، وانفتح غلاف دفتر ثان على بقية لمعركة إطلاق الأفكار قبل إطلاق النار - على أن إطلاق النار في الدفتر الجديد جاء أكثر من إطلاق الأفكار!

وكان الدفتر الأول تسجيلا لتطور العمليات - لكن الدفتر الثاني يجيء ومعه نتائج الحسابات وهي خسائر على طول الخط وحريق «في المخازن» - كما هي العادة مع الخسائر حين يريد «بعضهم» إخفاء مسئوليته عنها - بالإهمال أو بالجريمة - وتحويل الدفاتر والأوراق من شاهد صادق وأمين إلى رماد صامت وحزين ينتظر هبة ريح تطويه في النسيان! ■



تقول السجلات الرسمية
أن الولايات المتحدة
لم تدخل بثقلها في أفغانستان
إلا سنة ١٩٨٠ بعد أسابيع
من دخول القوات السوفيتية
إلى كابول، لكن الحقيقة
أن التدخل الأمريكي لمساندة
«المجاهدين» بدأ قبل
ذلك بستة شهور

الحـدث الأفغـانى

النتيجة، وهن الداخل أم طمع الخارج؟ وبأيهما نبدأ؟ لقد وجدنا الهدفين فى مصر وجعلناهما عملية سياسية واحدة فى ثورة ١٩١٩، ولكن الحل الذى كنا أدركناه فى هذه الثورة التى جمعت بين مطلب الاستقلال ومطلب الديمقراطية، ما لبثنا أن تعثرنا به عندما لم يحل أى من الهدفين حله الحاسم، وجاء من تيارات الثلاثينيات وما بعدها من يطرح خيار الأولوية من جديد، ويركز على أى من الهدفين قبل الآخر، أو دون الآخر. وهكذا لم يحسم أمر المزج بين المسألتين فى نسق فكرى واحد، أو بعبارة أدق فإن هذا النسق الواحد لم يشع فى البيئة الثقافية ليشكل أحد أركان التيار الرئيسى الأساسى فى الفكر السياسى السائد.

لذلك لاحظنا أنه ما أن ظهرت أزمة الخليج فى ٩٠-١٩٩١ حتى انقسم الناس - أو القسم الغالب من الرأى العام السياسى الفعال - انقسم إلى فريقين كادا أن يكونا متواجهين، قسم يركز على الأوضاع الداخلية وما فيها من استبداد ويستخلص من ذلك إدانة العراق ويغض الطرف عن الوجود الأمريكى العسكرى باعتباره مجرد أثر ورد فعل، ويغلو البعض فيرى الوجود الأجنبي عنصر دفاع مبرر الوجود عن استقلال بلد عربى. وقسم يركز على الاحتلال الأمريكى بحسبان أن المشاكل العربية لابد أن تحل فى الإطار العربى وحده، ويغلو البعض فيتخذ موقف الدفاع عما صنعت العراق فى الكويت، وليس المهم هو ما غالى به البعض من الفريقين، ولكن المهم هو أن هذا الجدل الفكرى والسياسى الذى اتخذ طابع الصراع جاء ترداداً لذات ما قام من جدل وصراع فى بداية القرن العشرين حول إصلاح الأمة من الداخل على طريقة حزب الأمة فى مصر أم بجلاء الاحتلال الأجنبى على طريقة الحزب الوطنى.

والأهم من ذلك أن غالب الأحزاب فى بلدنا وغالب الجماعات السياسية قد صادفه هذا الانقسام من داخله، سواء من التيار الإسلامى أو التيار القومى أو التيار الليبرالى أو التيار اليسارى، فى كل من هذه التيارات، وجدنا من يركز على الخطر الخارجى على طريقة الحزب الوطنى القديم أيام مصطفى كامل ومحمد فريد، ووجدنا من يركز على الاستبداد الداخلى باعتباره أصل المشاكل على طريقة حزب الأمة القديم أيام أحمد لطفى السيد ومن شايعه. وهذا ما يظهر نوعاً من الوهن الذى يمس قوة التماسك والاتساق الفكرى والثقافى فى نظرنا لقضية أساسية عايشناها منذ بداية القرن العشرين. ويعكس قدراً من الاضطراب فى موقفنا من هذه القضايا.

والحقيقة أنه فى الحادث الأفغانى الأخير، لم يثر شىء شبيه فى هذه المسألة، والكثيرون من الإسلاميين لا يطيقون نظام حكم «طالبان» فى أفغانستان، ناهيك عن غير الإسلاميين، ومع ذلك فلم يظهر صوت يؤبه بقوته أو فاعليته يؤيد الأمريكيين فى ضربهم الأفغان وغزو أراضيهم، ومن الناحية الشعبية بين العرب والمسلمين، يكاد يقوم نوع من التوافق الجماعى - إن لم نقل الإجماع - على إدانة الحرب الأمريكية ضد الأفغان مع كراهة هذا الصنيع القمعى المتجبر من الساسة الأمريكيين، ومن ناحية الحكومات فإنه فيما عدا تركيا وباكستان، لا نكاد نجد حكومة عربية أو إسلامية أيدت الصنيع الأمريكى ولا وافقت أمريكا إلا بسبب الخضوع والانصياع، خضوع الضعيف وانصياع الخائف. وبالنسبة للإرهاب، فإن هذه التهمة التى لم تثبت على أحد بعد فى الحدث الأفغانى، كاد يكون هناك ذات القدر من التوافق الجمعى الشعبى على أن العنف يعتبر مسلكاً سياسياً مشروعاً إذا كان يجرى دفاعاً عن الأوطان أو مقاومة لغزو أو تحريرا للبلاد والشعوب.. وحتى الحكومات لا تكاد تشذ عن ذلك، أو لا تستطيع أن تجهر بإنكار هذا الأمر.

رابعـــــاً:

ما يثير عدداً من القضايا السياسية التى لم تذلل على نحو كامل ولم تحسم بعد، هو موضوع الجماعة السياسية ومدى التعارض أو التقابل أو التداخل فى مسائل الانتماء الشعبى والوطنى للجماعات وللدول. ولا أريد هنا أن أطيل الحديث، ولكننى أشير فى عجالة إلى مفهوم الأمة وأثر هذا المفهوم وما طرأ عليه من تغيير فى العصر الحديث الذى نحياه فى القرنين الأخيرين.

ونحن نقصد بـ«الأمة» الجماعة أى المجموع من البشر الذى يتحدد فى الإدراك الإنسانى على وفق تصنيف معين، ويقوم هذا التصنيف على وصف يلحق بهذا المجموع ويصدق عليه ويميزه عن غيره من الجماعات الأخرى، والأمة بهذا النحو تكوين أو تشكيل ثقافى، لأنه يقوم على أساس من «الإدراك البشرى» لمعيار تصنيف معين ومن «الشعور بالانتماء» الذى ينبنى على وجوه تجانس «يراها» الناس غالبة وحاكمة لغيرها. فالتصنيف وحده لا يكفى، لأن ثمة من التصنيفات ما لا يعول عليه فى مجال الإدراك بالأهمية والشعور بالانتماء، مثل لون الشعر مثلاً أو طول القامة أو الحجم أو السلوك، ثم هو تصنيف يولِّد وجه تجانس غالبا فى الإدراك ويسوِّغ وجه شعور بالانتماء، انتماء الفرد للجماعة أو انتماء الجماعة الصغرى للجماعة الأكبر، والانتماء فيه من معنى الاتحاد والامتزاج وفيه من معنى «الفناء» فى الجمع المنتمى إليه، «الفناء» الذى يعنى من أحد وجوهه التحقق الذاتى فى المجموع المنتمى إليه.

ونحن نعرف أن وجوه الانتماء متنوعة ومتعددة، وأنها متداخلة ،بعضها إقليمى وبعضها نَسَبِى وعرقى وبعضها يتعلق بالمهنة والحرفة وبعضها يتعلق بالمعتقد أو المذهب وبعضها يتعلق باللغة أو اللهجة. ولكنها كلها موجودة ويمكن أن تتداخل العلاقات بشأنها.. وهى وجوه الانتماء الحاكمة التى يقوم عليها ما نسميه الجماعة السياسية، أى الجماعة التى تقوم على أساسها الدولة فى ظرف تاريخى محدد.. أريد أن أقول أنه فى العصر الحديث فإننا نحن العرب والمسلمين ارتبك لدينا مفهوم الأمة بفعل عدة عوامل منها:

العامل الأول: أننا خرجنا من مفهوم الأمة المعتمد على وحدة الدين الإسلامى إلى مفهوم الأمة بوصفها الجماعة القومية المستندة إلى اللغة الواحدة. والإسلام دين ودولة وهو منشىء لجماعة سياسية بما يستفاد من أحكامه وتاريخه الاجتماعى، واللغة تصنيف يرتبط بالامتزاج التاريخى أيضاً وتقوم على أساسه دول الغرب فى العصر الحديث. وقد ارتبك لدينا الإدراك الجمعى بين هذين التصنيفين ولم نجر توفيقاً عميقاً بينهما أو تنسيقا منهجيا.

العامل الثانى: إن حكوماتنا لم تنشأ دولها وفقاً لأى من هذين التصنيفين فى الغالب الأعم، فلا الحكومات قامت على أساس وحدة الجماعة الدينية لتحقق بها وحدة سياسية وتحرسها (بل إنها زالت بإلغاء الخلافة الإسلامية فى ١٩٢٤) ولا قامت هذه الحكومات على أساس البديل الفكرى والثقافى الآخر وهو اللغة والقومية، والأتراك بقوميتهم التركية انسلخوا عن الجماعة الإسلامية، ولكنهم لم يقيموا دولة موحدة على أساس الوحدة الطورانية التى كانوا ينشدونها والتى تمتد إلى أواسط آسيا، والعرب لم يستطيعوا بدعوتهم القومية العربية توحيد اثنتين وعشرين دولة تقاسمت عروبتها.

العامل الثالث: إن حدود الدول القائمة لم تقم على أساس أى من التصنيفات الجماعية الحاكمة، ولكنها قامت على أساس توازن القوى السياسية بين الدول الغربية الكبرى المستعمرة، كما حدث بالنسبة لاقتسام بلاد الشام بين الإنجليز والفرنسيين فى اتفاقية سايكس - بيكو أثناء الحرب العالمية الأولى، أو على أساس توازن القوى السياسية بين حركات التحرر الوطنى وجبروت الدول الغربية المستعمرة كما حدث بالنسبة لمصر والسودان مثلاً، ولكن هذه الحكومات من بعد صارت ذات وجود ومصالح تدافع بها عن حدودها وترسخ مفاهيم استقلال جماعتها السياسية عن غيرها. وهذا مما ساهم فى إرباك علاقات الانتماء الجماعى ومشاعره.

المهم من ذلك كله أننا مع إدراكنا الجماعى لما يجمع بيننا نحن الشعوب الإسلامية ذات العقيدة الواحدة والحضارة الشاملة والتاريخ الواحد أو المتماثل والتشكل النفسى المتشابه، ومع إدراكنا أن ثمة مشتركاً عاماً يجمع بيننا، ومع ما يؤكد هذا المشترك العام من وحدة ما نعانيه من قمع عالمى واستبداد بنا من الدول الكبرى ومن كراهية تجمعنا ضد الاستعمار الغربى وسياساته، وما نشعر به من وحدة المصير، إلا أن هذا المشترك العام لا يتحدد به فى وضوح ما هى بالضبط الواجبات الفردية والجماعية التى يمليها علينا، وما هو بالضبط ما يتعين أن نتحاكم به بين بعضنا البعض من وجوه النشاط وواجبات النهوض للدفاع والمقاومة.

ومن ناحية ثانية، فإن قيام الحكومات لدينا لا على أساس تصنيف جامع ومانع للجماعات السياسية، قد أربك لديها إمكانية التقدير بين ما يعتبر من ضرورات «الأمن



فيما عدا تركيا وباكستان، لا نكاد نجد حكومة عربية أو إسلامية أيدت الصنيع الأمريكى ولا وافقت أمريكا إلا بسبب الخضوع والانصياع، وبالنسبة للإرهاب، كاد يكون هناك ذات القدر من التوافق على أن العنف يعتبر مسلكاً سياسياً مشروعاً إذا كان يجرى دفاعاً عن الأوطان

الحدث الأفغاني

القومي» الذي يعني حماية الجماعة السياسية وحراستها والذود عنها، وهذا هو رأس واجبات الدولة بالنسبة للجماعة السياسية التي تقوم عليها والمصدر الأساسي لشرعيتها، أقول ارتبك لديها التقدير بين ضرورات الأمن القومي هذه، وبين موجبات «أمن الدولة»، أي أمن النظام السياسي القائم على رأس هذه الجماعة والحافظ له ولتشكيلاته المؤسسية والمجتمعية، وصار «أمن الدولة» هو الذي يسيطر ويحكم موجبات «الأمن القومي»، وهذا الخلل والإرباك أصاب سياسات الدول في غالب بلادنا العربية والإسلامية، وهي لا تجد دائماً في الأمن القومي للجماعة السياسية التي تحكمها، لا تجد دائماً في ذلك ما يهدد أمن الدولة، أو ما يزعزع استقرارها، ولعل المؤتمرات التي عُقدت للحكومات العربية بشأن الانتفاضة الفلسطينية، أو المؤتمرات التي عُقدت بعد ذلك للحكومات الإسلامية بشأن غزو أفغانستان، هي أمثلة تشهد بهذا الأمر، إذ انعكس في قرارات هذه المؤتمرات الحكومية أن غالب هذه الحكومات تستشعر الحرج في علاقتها بالولايات المتحدة بأكثر كثيراً من شعورها بالقلق على الأمن القومي لبلادها ولجماعتها السياسية في المدى الطويل. وتتعقد المسألة ويزيد الارتباك عندما تقوم الحركات السياسية الشعبية في كل بلد لتنبه إلى المخاطر الآتية من الخارج وتتنادى للذود عن الحياض والدفاع عن الحوزة، فترى الحكومات في ذلك ما يهدد استقرارها الداخلي وتحتشد ضده..

ولعل موقف باكستان بعد أحداث ١١ سبتمبر هو أوضح مثل على ذلك، إذ دفعها قلقها على استقرارها الداخلي إلى التضحية بموجبات أمنها القومي، وصار قلقها من شعبها على نفسها أشد من شعورها بالخطر الداهم على أمنها القومي من أن تنشأ في أفغانستان دولة خصم لها فتنحصر باكستان بين عداء الهند لها وعداء الأفغان. وهكذا يستعاض عن الذي هو خير بالذي هو أدنى، وعن النفع العام بالنفع الخاص، وعن الأجل الباقي بالعاجل المنقطع، وتصير الحكومة محمية وليست حامية للجماعة.

خامساً:

على أنه من جهة أخرى، فإن الأوضاع العالمية التي نتجت عن انتهاء الحرب الباردة بين الكتلة الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وبين الكتلة الشرقية بقيادة الاتحاد السوفيتي، قد أسفرت عن ظرف موات للدول الإسلامية وشعوبها يمكنها من تحقيق قَدر من التقارب والتنسيق في السياسات، قدر لم يكن متاحاً من قبل على مدى نصف القرن الأخير.

إن الناظر في شأن بلاد المسلمين، يرى أن المخاطر التي تتعرض لها هذه البلاد من الخارج، وأن أحداث الغزو والاحتلال وما يتهدد استقلالها، كل ذلك كان يتنوع بالنسبة لكل منها حسب الموقع الجغرافي وحسب الأحداث التاريخية التي جرت منذ أواخر القرن الثامن عشر. والبلاد العربية في شمال أفريقيا وغرب آسيا كانت وبقيت تكافح ضد الأطماع الآتية من دول أوروبا الغربية، سواء من انجلترا أو فرنسا أو إيطاليا، ثم قام العرب جميعاً بعد ذلك يكافحون الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لفلسطين، وهو الاستعمار المؤيد من الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ثم دعا التحالف الغربي إلى إعادة صياغة علاقات التبعية والإلحاق التي تربط البلاد العربية به، وذلك بإبرام معاهدات الدفاع المشترك وبإقامة الأحلاف العسكرية منذ منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، وكافحت حركات التحرر الوطني وحكومات التحرر الوطني هذا المسعى بما أقام خصومة حادة بين الطرف الغربي وبين الطرف العربي.

وفي مقابل ذلك، فإن خبرة الجغرافيا السياسية وتجارب التاريخ منذ القرن الثامن عشر حمل الشعوب التركية والفارسية ووسط آسيا على إدراك أن المخاطر المحدقة بهم ترد فيما ترد، أو ترد أكثر ما ترد من الشمال الروسي، سواء في عهد القياصرة قبل ١٩١٧ أو في عهد البلاشفة الشيوعيين بعد ١٩١٧. لقد توسعت روسيا القيصرية في أراضي شعوبهم وضمت إليها أكثر ما ضمت وعملت على إذابتهم من النواحي العقيدية والحضارية والسياسية وغيرها، ثم قمع الجيش الأحمر حركات تحررهم التي شبت بعد ثورة ١٩١٧ في روسيا.

ومن هنا جرى التخالف والتباين في النظر لقضايا الأمن الجماعي وفي تقدير أولويات المخاطر وإمكانات التحالف، جرى التخالف في ذلك بين من هم في موقف الشعوب العربية ومن هم في موقف شعوب وسط آسيا. وكان هذا من أسباب عدم إمكان حدوث التقارب بين شعوب المسلمين على المدى الذي استطالت إليه فترة الحرب الباردة. وقد كان الغزو السوفيتي لبلاد الأفغان في ١٩٧٩ هو ما يؤكد على حقيقة المخاطر الآتية من الشمال الروسي على هذه المنطقة، كما كان الدعم الكامل للولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل هو ما يؤكد أيضاً على حقيقة المخاطر الآتية من الغرب على المنطقة العربية من بلاد المسلمين.

والخلاصة أنه على مدى الخمسين سنة المنقضية، كانت البلاد التركية الفارسية وشعوب وسط آسيا يستقوون ضد الخطر الروسي الشمالي بالحلف مع الأمريكيين، وكانت البلاد العربية تستقوي ضد الخطر الأمريكي الصهيوني بالحلف مع الروس، ولست أقول إن كان هذا هو العامل الوحيد في هذا التوجه السياسي لكل من المنطقتين، ولكنني أثير عنصراً أراه مهمًا في هذا التوجه وعلى الجملة فإن هذا التخالف في السياسات هو ما به قوي التدابر داخل الدائرة الإسلامية من الشعوب.

ونحن نذكر مثلاً أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر رسمت في كتاب «فلسفة الثورة» ثلاث دوائر للعمل المصري، الدائرة الإسلامية والدائرة العربية والدائرة الأفريقية، بحسبان ما تنتمي إليه مصر من دوائر متداخلة يمكن أن ترسم من خلالها توجهاتها السياسية الدولية. وقد تفاعلت كل من الدائرتين العربية والأفريقية، ولم يحدث التفاعل في الدائرة الإسلامية، وأظن أن سبب ذلك كان يرجع إلى هذا التدابر والتخالف الذي قسم بلاد المسلمين أقساماً بالنسبة لموجبات الأمن الجماعي لكل من هذه البلاد، بالضبط كماحدث في نهايات القرن التاسع عشر من تدابر داخل الدائرة العربية بسبب خضوع أرض الشام للاستبداد العثماني واستقواء الثوريين هناك بمصر الخاضعة للاستعمار البريطاني، وخضوع الثوريين في مصر للاحتلال البريطاني ومحاولتهم الاستقواء بالنفوذ العثماني، الأمر الذي أبعد احتمالات التقارب عقوداً تالية من السنين.

المهم أن انتهاء مرحلة الحرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفيتي وبالتفرد الذي طلعت به الولايات المتحدة عازمة السيطرة المنفردة على العالم بمعاونة شركائها الأصغر من دول غرب أوروبا، هذا الأمر قد أنهى السبب الرئيسي للتناقض الذي كان طرأ بين دول المسلمين ومصالح شعوبهم، بعد أن صارت الولايات المتحدة هي وحدها المرجع للخطر الداهم المتحقق في فلسطين، وهي ذاتها المرجع والفاعل للخطر الداهم المتحقق في أفغانستان. إن مصر تقاربت مع الهند على مدى مشارف الخمسين سنة بسبب العدو الإنجليزي المشترك الذي كانت تواجهه كل من حركتي التحرير المصرية والهندية، رغم التنوع الحضاري والعقيدي والتاريخي الكبير بين مصر والهند، فما بالنا الآن بالأثر التوحيدي لوجود عدو واحد مشترك، فضلاً عن هذا التوافق العقيدي والحضاري والتاريخي بين كل هذه الشعوب في بلاد المسلمين الآسيوية والأفريقية. ويؤكد ذلك أيضًا أننا نلحظ في الحدث الأفغاني الذي يجري هذه الأيام، نلحظ قدرًا من التقارب الأمريكي الروسي والتنسيق بين سياستيهما مما يسهم في توحيد المخاطر التي يواجهها المسلمون.

سادساً:

على أن المشكل الحادث في هذه المرحلة التاريخية، هو هذا التنوع الهائل في الظروف والأوجاع السياسية الداخلية والخارجية مع تنوع السياق التاريخي والتجارب البشرية بين الشعوب الإسلامية في العالم، وأثر هذا التنوع وتبعاته.

نحن على المستوى العربي أو الإسلامي، لدينا دوائر متعددة، فثمة الدائرة العربية، وثمة الدائرة الفارسية، ودوائر الشعوب التركية، وثمة الدائرة الهندية، وثمة الدائرة الأفريقية عربية وغير عربية، أي شمال الصحراء وجنوبها، وشرق أفريقيا وغربها، وثمة دائرة جنوب شرق آسيا، ثم هناك أقليات المسلمين المنتشرين الآن بضعة ملايين في كل من البلاد الأوروبية الكبرى أو



على مدى الخمسين سنة المنقضية، كانت البلاد التركية الفارسية وشعوب وسط آسيا يستقوون ضد الخطر الروسى الشمالى بالحلف مع الأمريكيين، وكانت البلاد العربية تستقوى ضد الخطر الأمريكى الصهيونى بالحلف مع الروس

الحـدث الأفغـانى

الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كانت الدوائر العربية والفارسية وبعض التركية تتشابه فى الثلبة العددية للمسلمين بالنسبة لمواطنى كل دولة، وبالنسبة للتداخل التاريخى والثقافى بين شعوبها، فإن الأمر يختلف فيما عدا هذه الدوائر من حيث النسبة العددية للمسلمين وتاريخ العلاقات بين الطوائف والفرق فى كل بلد والأوضاع السياسية والاقتصادية وغير ذلك.

لدينا جميعًا القدرة على إدراك هذه الفروق والتنوعات الكثيرة، من حيث المعرفة بها ومن حيث إمكان تصور ما يترتب عليها من آثار. فى السياسات المختلفة وفى تبين المصالح الشعبية الواجبة الرعاية، وفى تبين تنوع وجوه المخاطر التى تواجه كل جماعة فى أى ظرف مخصوص. ولكن ما لم نستبنه بعد فى إطار الفكر السياسى الآخذ من المرجعية الفقهية الإسلامية، هو النظر فيما هى أسس تقويم السياسات المتباينة التى تفرضها مصالح الجماعات فى البلاد المختلفة، وكيف يمكن اكتشاف مدى اتفاق سياسة معينة مع المرجعية الشرعية للإسلام فى ظروف تنوع لمصالح الجماعات واختلاف فى السياسات قد يصل إلى حد التضارب بين المسلمين.

وقد سبقت الإشارة إلى ما حدث فى فترة الحرب الباردة من تنوع للسياسات بين الدول الإسلامية شارف مبلغ التضارب بين من يتقوون بالاتحاد السوفيتى ضد خصمهم الأمريكى الألد، وبين من رأوا الاستعانة بالظهير الأمريكى فى مواجهة الأطماع الوشيكة للاتحاد السوفيتى فى بلادهم. وفى الآونة الأخيرة فى الأحداث الأفغانية التى لاتزال تقع، جد التساؤل عن موقف الجنود المسلمين فى الجيش الأمريكى إذا أمروا بالاشتراك فى الحرب الأفغانية. ومن قبل ذلك خلال أزمة الخليج فى ١٩٩٠-١٩٩١، ثار التساؤل عن شرعية اشتراك قوات عربية مع الأمريكيين فى ضرب الشعب العراقى.

تتباين الاجتهادات طبعًا وتختلف، وقد تصل إلى حد تبادل التهم. ذلك لأننا لم نستقر على توصيف معين للصالح العام من وجهة النظر الإسلامية، توصيف عام يتضمن ثلاثة جوانب، أولها: الأسس العامة الضابطة لما هو الشأن الإسلامى وما هو صالح الجماعة الإسلامية فى ظروف عالم اليوم. ثانيها: مدى ما تسمح به هذه الأسس العامة من تنوع بين مصالح البلاد والشعوب والجماعات بداخله. وثالثها: إذا جرى الاختلاف حول تقدير ما هى المصلحة الأعم، أو إذا بلغ الاختلاف حد التضارب فما هى إجراءات ومناهج حسم المشاكل، وكل ذلك ينظر فيه نظرة واقعية إلى أوضاع العالم اليوم ما يعج به من قوى متصارعة ومن تحالفات ومن قوى عظمى ليس لمثل شعوبنا قول فاصل معهم حتى الآن، وليس ثمة منظمة ذات قرار مرعى الجانب بالنسبة للدول الإسلامية أو الدول العربية، وليس ثمة دولة منا ذات قوة وبأس يستطاع بهما حسم خلاف يثور بين المختلفين.

والحال أن دول الغرب فى تاريخها المعاصر وبعد صراعات مضنية بين بعضها البعض، بلغت ذروتها فى حربين عالميتين فى القرن العشرين، قد استطاعت من بعد أن تبلور تنظيمًا وتوجهًا ثقافيًا يمكنها من حل مشاكلها بين بعضها البعض بقدر من التقبل المتبادل وسعة النظر فى مصالح الطرف الآخر، واستخدام أساليب المفاوضة والمساومة لحل الصراعات والوصول إلى التسويات بين المصالح. ولكننا نحن الآن لم نبدأ طريقنا الفكرى لتهيئة الأوضاع الفكرية والثقافية المناسبة، وأولها الإقرار بأن الاتفاق العام لا ينفى التنوع والاختلاف والتعارض، وأن الأمر هنا من حيث المرجعية الشرعية يدرك فى باب فقه المصالح، وبما يفيد من موازنات.

ويدخل فى هذا المجال النظر فيما هى الحدود الضابطة فى دعم أية دولة لدولة أخرى فى إطار توازنات القوى وتوازنات المصالح بين بعضهم البعض، ومدى ما يجوز فيه للمغالى أن يفرض مغالاته على الأخرين، وما يجوز به للمتراخى أن يشد الآخرين إلى تراخيه، وما هو معيار المغالاة والتراخى إذا أردنا قدرًا من التقبل العام والاجتماع الغالب لما يتصور أنه المصلحة الأعم. ما هى مثلاً حدود التوافق مع مطالب مسلمى الصين وبأى قدر فى ظروف حرص غالبية الدول العربية والإسلامية على كسب صداقة الصين فى الظرف العالمى الراهن وإزاء توازنات القوى العالمية الجارية. وكذلك الأمر بالنسبة للشيشان مثلاً وعلاقة ذلك بالدولة الروسية ودورها المحتمل فى التأمين النسبى للعراق وسوريا مثلاً.

كل ذلك يحتاج لا إلى توفيق بين المصالح فقط، فهذا قريبة إمكانياته، ولكنه يحتاج إلى جهد أصعب فى تقدير نواحيه الفقهية الإسلامية، حتى لا نفاجأ فى لحظة ما بانفجار فكرى يحدث فيطغى على غيره، أو نفاجأ بوهن «لا أدرى» يصيبنا بهبوط فى الدورة الدموية.

سابعًا:

كنا فى شبابنا نمزح بترديد عبارة خطابية كانت قالتها بطلة من بطلات التراجيديا فى أحد أفلام الأربعينيات فى السينما المصرية، تقول «المجنى عليه صفح والجانى لم يصفح». ونحن الآن بعد خمسين سنة لا أجد عبارة أكثر جدية وتعبيرًا من هذه العبارة فى وصف حالة الغالب من حكوماتنا وسياساتنا الرسمية العربية والإسلامية فى علاقتها مع الولايات المتحدة الأمريكية. إن ما حدث فى فلسطين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يمثل جريمة، وهى بتعبير رجال القانون تعتبر جريمة مستمرة، ومن ارتكبها ويرتكبها هو الولايات المتحدة الأمريكية. والأمر كما نعلم جميعًا لا يتعلق بفلسطين وشعبها وأرضها فقط، ولكنه يتعلق بكل العرب.

وإن الولايات المتحدة التى عايشنا عداءها لنا فى فلسطين نصف القرن الماضى، هى من نواجه الآن فى بلاد الأفغان وهى من تقيم القواعد العسكرية حولنا فى الخليج العربى، وهى من يحاصر البلاد ويشن سلاح المقاطعة. ونحن نعرف من ممارسات الحكومات الأمريكية خصائص فى الفعل السياسى لا يجوز أن تغيب عن الناس أولهما: إن ما تصنعه إسرائيل فى عرب فلسطين، سبقتها فيه السياسة الأمريكية بالنسبة للسكان الأصليين فى أمريكا منذ مئات السنين، وأن أهم الأسس التقليدية التى تقوم عليها السياسات الأمريكية تعتمد على خبرتين تاريخيتين رئيسيتين، الأولى هى إبادة السكان الأصليين وتفريغ شمال أمريكا من سكانها، والثانية هى نقل شعب أفريقى من بلاده بالاسترقاق ليسخر فى بناء الولايات المتحدة. وإسرائيل فيما تفعل تذكر الولايات المتحدة بشبابها القديم. فلا يمكن أن نتصور أن الدوافع الأخلاقية أو القانونية يمكن أن تحرك سياسة الحكومات الأمريكية هناك، إلا بضغوط شعبية هائلة لن تتوافر فى المستقبل المرئى ولا يمكن أن نحتكم إلى الولايات المتحدة وهى خصم أساسى فى هذه المسألة.

وثانيهما: أن الولايات المتحدة تفرق ما بين الحليف وبين الصنيعة، الحليف له حقوق تراعى ولكنه ينبغى أن يكون بلدًا من أوروبا الغربية، وإلا فلا يجوز التعامل معه إلا بحسبانه صنيعة، الصنيعة يجب أن تتخلص منه فور انتهاء خدمته لها لئلا يطالب بأجره. فإذا كان رسول الله ﷺ قد علمنا أن نعطى الأجير أجره قبل أن يجف عرقه، فإن الولايات المتحدة على العكس تعمل على التخلص من الأجير قبل أن يطلب أجره. وهذا هو درس باكستان فى الحدث الأفغانى الذى لا يزال جاريًا ولم تتم فصوله بعد، ورغم كل ما فعلته حكومة باكستان فى التخلص من حكم حلفائها «طالبان» لصالح الولايات المتحدة أقامت الولايات المتحدة الحكومة الأفغانية الجديدة التى تمد يدها للهند فى هذه الأيام. وبعد كل ما صنعته الضغوط الروسية على جمهوريات وسط آسيا لمساعدة الولايات المتحدة، تنسحب الولايات المتحدة من اتفاقية ١٩٧٢ بشأن الصواريخ المضادة وكانت أبرمتها مع الاتحاد السوفيتى. وهذا ما سبق أن صنعته أيضًا فى أفغانستان إذ أدارت ظهر المجن للمقاومة الأفغانية الوطنية المحاربة والمجاهدة بعد انسحاب الروس من أفغانستان فى ١٩٨٩ وبدأت من يومها تتعقب هؤلاء المجاهدين وتثير عليهم حكوماتهم للتخلص منهم، وكان الحدث الأفغانى الأخير هو حلقة من سلسلة حلقات هذا التخلص.

أفلا تتعظ وتعتبر الحكومات والقوى السياسية فى بلادنا بهذه الدروس فى رسمهم لعلاقاتهم مع الولايات المتحدة الأمريكية؟!

أما من حيث قوة الولايات المتحدة، فلعلنا نذكر قولاً لسعد زغلول: إن من أسموا أنفسهم «المعتدلين والواقعيين» قالوا له إن بريطانيا العظمى قوية جدًا وقد خرجت لتوها منتصرة من حرب عالمية ضروس. فنقل على الفور مجال المناقشة إلى مجال آخر وقال «إنهم لصوص وإنهم يسرقون الأوطان»، نقل المسألة بسرعة ووضوح من مجال البحث فى القوة المادية المتاحة فى لحظة تاريخية معينة، نقلها إلى مسألة البحث عن مصير الشعوب والأوطان ووجوب التمسك بالحقوق، وبهذا العزم والإصرار والوضوح فى رؤية المسائل، ومع زمن ليس بعيدًا، ضعفت قوة السارقين وعادت الأوطان المسروقة. ■



الولايات المتحدة تفرق ما بين الحليف وبين الصنيعة، الحليف له حقوق تراعى ولكنه ينبغى أن يكون بلداً من أوروبا الغربية، وإلا فلا يجوز التعامل معه إلا بحسبانه صنيعة، الصنيعة يجب أن تتخلص منه فور انتهاء خدمته لها لئلا يطالب بأجره

النصر خارج القانون

شريف بسيونى

■■ ليس هناك مجال للشك فى أن اليد العليا فى الحرب الدائرة فى أفغانستان كانت ومازالت للقوات الجوية الأمريكية، ومن ثم كان من الطبيعى أن تلحق تلك الضربات الجوية خسائر شديدة بين صفوف قوات طالبان، والتى أدت بدورها إلى إقصاء حركة طالبان وقادتها من الحكم فى أفغانستان، بيد أنه يبقى تساؤل مهم دون إجابة، وهو حجم الخسائر البشرية بين صفوف المدنيين الأفغان؟

الرد على هذا التساؤل لا خلاف عليه من وجهة النظر الأمريكية، ألا وهو أن قتل وجرح آلاف المدنيين، وتدمير الممتلكات الخاصة والبنية الأساسية المدنية، وقصف المستشفيات هو من قبيل الخسائر التبعية أو التكميلية الناجمة عن الحرب الدائرة، أو كما يطلق عليها الجانب الأمريكى Collateral Damage هنا يتعين الرد بأنه إذا لم تكن تلك الخسائر ناتجة عن خطأ مقبول وغير متعمد فى الوقائع، فهى جرائم حرب لا محالة.

إذا نظرنا إلى أرض الواقع نجد أن الجنرال مايرز قائد أركان الجيش الأمريكى يحاول أن يدعم النظرية الأمريكية القائلة بأنه من الممكن كسب الحروب باستخدام القوات الجوية فقط، وهى النظرية التى اتبعت فى حرب الخليج عام ١٩٩١، ثم فى حرب كوسوفو عام ١٩٩٨، وهى قائمة على أن الأمريكيين بصفة عامة، والسياسيين بصفة خاصة، لا يتقبلون وقوع ضحايا بين القوات البرية الأمريكية، وخير دليل على ذلك هو سحب خمسة وثلاثين ألف جندى من الصومال فى أعقاب مقتل ثمانية عشر منهم. من ناحية أخرى، يلقى مؤيدو نظرية الحرب باستخدام القوات الجوية تأييد ودعم المؤسسات الصناعية القائمة على تصنيع معدات تلك الحرب، فهم يؤيدون نظرية أنه من الممكن كسب الحروب باستخدام القوات الجوية فقط دون اشتراك أية قوات برية، وحجتهم فى ذلك أن هؤلاء الذين يتعرضون لمثل ذلك القصف الجوى وما يتبعه من خسائر اقتصادية وعسكرية شديدة سرعان ما يطلبون تسوية سياسية دون الحاجة إلى اللجوء إلى استخدام القوات البرية، علاوة على ذلك، فالخسائر التبعية أو التكميلية الناجمة عن الحرب لا ينبغى الاعتداد بها فى تقييم الموقف!!

هنا ينبغى إدراك حقيقة أن تقييم الخسائر التبعية و التكميلية يعتمد بالدرجة الأولى على مدى القدرة فى التحكم والسيطرة على وسائل الإعلام، إذ إن الحروب السابقة فى جرينادا، بنما، العراق، وصربيا أثبتت سهولة التحكم فى وسائل الإعلام، حيث كانت الأرقام الحقيقية لأعداد الضحايا المدنيين غير معلومة وقت وقوع تلك الأحداث، وعادة لا يكشف عنها إلا بعد مرور وقت طويل بما لا يجعل لرد الفعل أثرا على الموقف السياسى، ومن ثم، وضمانا لاستمرار ونجاح الهجوم الجوى، فعادة ما يكون الإعلان عن الخسائر البشرية بين المدنيين أو أنباء الدمار الذى يلحق بالبنية الاقتصادية والاجتماعية فى أقل صورة ممكنة.

وتطبيقا على ما تقدم، لم تشكل الخسائر التبعية أو التكميلية أية أهمية فى حرب العراق، إذ كانت وسائل الإعلام قد جعلت من صدام حسين وحشا قاتلا، ومن ثم استحق المدنيون من رعايا العراق القتل وعقوبات قاسية أسفرت عن مقتل نصف مليون طفل عراقى تُسأل الولايات المتحدة الأمريكية عن مقتلهم بصفة غير مباشرة.

أما عن قصف صربيا، فقد كان بسبب ما ارتكبته القوات الصربية فى كوسوفو من أعمال تطهير عرقى، وقد اتبع فى ذلك القصف ذات الأسلوب الذى اتبع فى العراق، إذ إنه على الرغم من اتهام الرئيس الصربى آنذاك ميلوسوفيتش بارتكاب أفظع الجرائم، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية كان لها رأى آخر فاستخدمته فى التوصل إلى عقد اتفاق دايتون وتوقيع البوسنة وكرواتيا عليه، وربما يكون هذا هو السبب الرئيسى فى انخفاض حجم الخسائر التبعية أو التكميلية فى تلك الحرب عن مثيلتيها فى العراق وأفغانستان. وعلى الرغم من ذلك، فقد وجهت للقوات الأمريكية اتهامات بارتكاب جرائم حرب أثناء القصف الجوى لصربيا، الأمر الذى دفع بالولايات المتحدة للتأكد من أن المدعى العام للمحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة (ICTY) لن يشرع فى التحقيق فى تلك الاتهامات، وهو الأمر الذى لم يحدث فى أفغانستان.

تجدر الإشارة أيضا إلى أن الخوف من وقوع ضحايا بين صفوف القوات الأمريكية قد تحول إلى رعب، وهو الأمر الذى أدى إلى القول بأن «وقوع الضحايا فى الجانب الآخر، مدنيين أو عسكريين، وبغض النظر عن ارتفاع العدد أفضل بكثير من أن يكون الضحايا من بيننا، مهما قل عددهم»... لا شك فى أن هذه النظرية تخالف كل مبادئ القانون الدولى الإنسانى الذى يحكم النزاعات المسلحة، والذى يحظر اعتبار المدنيين، الأهداف المدنية، أسرى الحرب، أو المستشفيات أهدافا لأية أعمال مسلحة تحت أى ظرف من الظروف ومهما كانت المسببات، بل يمتد الحظر أيضا ليشمل الهجوم على أى من تلك الأهداف ـ سواء كان مباشرا أم غير مباشر ـ بقصد تجنب إحداث خسائر فى القوات المعتدية ذاتها.

ومن هنا كان منبع الاستثناء الذى ابتكرته الولايات المتحدة لخدمه أغراضها على سند من أن الضرورة العسكرية تبيح تجنب الخسائر بغض النظر عن العواقب والخسائر التى قد تلحق بالخصم، بيد أن الولايات المتحدة تعلم علم اليقين أن هذا ليس جائزًا قانونيا، ومن ثم فهى ما برحت تبحث عن أعذار وهمية لتبرير سياساتها، وتحاول تجنب الخسائر التبعية أو التكميلية بقدر المستطاع، إلا أن التساؤل الذى يحتاج دائما إلى إجابة عاجلة ليس منصبا على الإجراءات المتبعة لتقليل حجم الخسائر، وإنما هو مدى شرعية الإجراءات ذاتها.

أما عن أفغانستان، فقد مارست الولايات المتحدة سيطرة فعلية على إمكانية نقل وسائل الإعلام لأخبار الحرب، ومن بينها ما قامت به قوات التحالف الشمالى ضد سجناء الحرب من قوات طالبان فيما وصف بأنه تمرد بأحد السجون قرب مدينة مزار الشريف، حيث قصفت الطائرات الأمريكية السجن مستخدمة القنابل، الأمر الذى أسفر عن مقتل مئات الأسرى من بين الطالبان وغيرهم، وقد نقلت وسائل الإعلام الألمانية أن كثيرين ممن لقوا حتفهم فى ذلك السجن قيدت أيديهم خلف ظهورهم، وهى إشارة واضحة لارتكاب جرائم حرب.

أما عن كيفية تطور الأحداث إلى ذلك الحد فليست هناك معلومات متاحة أكثر من أن التمرد بدأ بعد أن تنامى إلى أسماع السجناء صراخ هؤلاء الذين كان يتم استجوابهم، وربما تعذيبهم، وهو الأمر الذى يشكل جريمة حرب أخرى تمت فى حضور، وربما تحت إشراف أفراد من القوات المسلحة الأمريكية وعملاء جهاز المخابرات المركزية الأمريكية الـ CIA بما يجعلهم مسئولين عن تلك الأحداث، وأخيرا، فإذا كان ذلك التمرد قد وقع بالفعل فهو ناتج عن تعذيب أسرى الحرب بالمخالفة للقانون الدولى الإنسانى، وعليه فإن القصف الأمريكى للسجن وقتل مئات الأسرى، يعد وبلا أدنى شك جريمة حرب على أوسع نطاق.

مازالت جهود المجتمع الدولى مستمرة للحد من معاناة البشرية من جراء الحروب، وعلى الرغم من توقيع بلدان العالم أجمع على اتفاقيات جنيف الأربعة إلا أن البشرية مازالت تشهد ارتكاب أفظع الجرائم... هنا يتعين القول بأنه كان من الأجدر بالولايات المتحدة، بصفتها القوة العظمى الوحيدة، أن تسلك مسلكا تحتذى به الدول فى الالتزام بالقوانين الدولية وعدم مخالفتها عن طريق وضع الاستثناءات واحدا تلو الآخر، إذ إنها بذلك تفتح الباب أمام الدول الأخرى لوضع استثناءاتها الخاصة بما يخل بالنظام الدولى والاحترام المتبادل لمبادئ القانون الدولى الإنسانى، وخير دليل على ذلك هو ما أسفر عنه القصف الجوى لأفغانستان من تشريد ما يربو على مليونين من المدنيين من منازلهم التى دمرت، نتيجة لذلك القصف المنهجى الواسع النطاق ولمدة شهرين متواصلين، فصاروا يعيشون أسوأ ظروف معيشية، وخاصة مع حلول فصل الشتاء وتدمير معظم البنية الأساسية والمرافق العامة بما يهدد حياتهم، الأمر الذى يتعين معه على الولايات المتحدة أن تعطى الأولوية للمساعدات الإنسانية لهؤلاء المشردين قبل أن تتفاقم الأوضاع وتحدث هناك كارثة إنسانية، سيما وأن هناك التزاما على الولايات المتحدة تجاه هؤلاء الضحايا من المدنيين يتمثل فى المسئولية المترتبة على هذا القصف وما نتج عنه من آثار غير مباشرة تتمثل فى الأضرار الجسيمة التى لحقت بهم من جراء الأخطاء فى إصابة الأهداف أثناء القصف الجوى، وهو الأمر الذى يطرح تساؤلا آخر فى غاية الأهمية حول نوع تلك المسئولية من ناحية، هل هى المسئولية الجنائية الناتجة عن الخطأ غير العمدى وما ترتب عليها من قتل للمدنيين الأبرياء وتدمير ممتلكاتهم؟ أم هى المسئولية المدنية بأركانها من خطأ وضرر وعلاقة سببية؟ ومن ناحية أخرى هل يجُب تلك المسئولية وجود الضرورة العسكرية وما يتبعها من ضرورة توافر التناسب Proportionality والنتيجة المستهدفة من وراء ذلك؟

إنه من الأوفق عند الإجابة عن تلك الأسئلة عدم التمسك بحرفية النصوص القانونية ولكن تفسيرها وفقاً لروح القانون الدولى الإنسانى ذاته والغرض الذى من أجله استنت نصوصه ألا وهو وضع الإنسان كأساس وغاية مبتغاة من الحماية القانونية. ■

الإسلام والغرب: حرب

نصر حامد أبو زيد

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر صار حديث «الإسلام» في أوروبا بصفة عامة، وفي «هولندا» بصفة خاصة، هو العنوان المفضل في كل قنوات الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي على السواء. وليس معنى هذا أن موضوع «الإسلام» كان موضوعا هامشيا في أي وقت من الأوقات خلال السنوات العشرين الأخيرة، وتحديدا منذ حدث «الثورة الإسلامية» في إيران ونجاحها في إزالة عرش الطاووس سنة ١٩٧٩، لكنه كان حاضرا دائما بدرجات ونسب تتفاوت وضوحا وخفوتا حسب الأحداث - أو بالأحرى الحوادث - التي تتواتر أنباؤها قادمة من أي ركن من أركان العالم الإسلامي الفسيح. لكن الأمر في السياق الحالي جد مختلف: فالحدث الذي أعطى حديث «الإسلام» مركز الصدارة بهذه الدرجة من الحدة لم تأت أنباؤه من داخل العالم الإسلامي، بل كان حدثا حيا بالصورة شاهده ملايين المشاهدين يحدث في كل من «نيويورك» و«واشنطن».

أنشأ هذا السياق واقعا مختلفا للحديث عن الإسلام، وطرح بالتالي أسئلة مغايرة لتلك التي كانت تُطرح عادة في ندوات الحوار سواء عبر قنوات الإعلام أو داخل المؤسسات الدينية أو الأكاديمية في الغرب. بينما كانت الأسئلة قبل الحادي عشر من سبتمبر تتعلق غالبا بهموم غير المسلمين وبقضايا «الأقليات» و«المرأة» و«حقوق الإنسان» في الإسلام، فإن هذا السياق الجديد استعاد بأثر رجعي أسئلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عن «الإسلام والعنف»، مفهوم «الجهاد» و«انتشار الإسلام بالسيف»، «الإسلام والتخلف» ومعاداة الحضارة والتقدم والتفكير العلمي.. إلخ.

ورغم أن دلالات حدث الحادي عشر من سبتمبر ما تزال في حاجة إلى كثير من التحليل والمناقشة لسبر أسبابه الفعلية، أعني الأسباب العميقة في بنية النظام العالمي، وفي نسق أيديولوجية «العولمة»، وما يرتبط بها من عملية تدفق المعلومات والأموال وسهولة الحصول على تكنولوجيا الحرب والأسلحة، وعلاقة ذلك كله بالتحول الهيكلي في بنية «الإرهاب» من قوى محلية غاضبة، تقوم بعملية هنا وهناك، إلى قوة دولية مدمرة، فإن رد الفعل السريع انشغل بالبحث عن «الفاعل» من أجل تحديد المسئولية الجنائية والقانونية. ولما كانت الأرض ممهدة من قبل لتنصيب متهم سبق اعتباره «العدو الجديد» للنظام العالمي في كتابات صمويل هنتنجتون عن «صراع الحضارات»، فما أسرع ما تم وضع «الإرهاب»، الذي يرفع راية الإسلام، موضع الاتهام. هذا رغم أن الحديث يدور دائما حول «الإرهاب الدولي»، وهي ظاهرة تتجاوز حدود الأديان والثقافات وتحتاج إلى تحليل أعمق لمكوناتها وعناصرها وتاريخها.

وإذا كان رد الفعل في العالم الإسلامي يميل إلى تفسير هذا الميل في الغرب لرد ظاهرة الإرهاب إلى «الإسلام» وحده بوصفه - أي بوصف هذا الميل - تعبيرا عن موقف عدائي أصيل ومتأصل ضد «الإسلام» وما يمثله من قيم، فإن هذا التفسير لا يقل بساطة، وأخشى أن أقول سطحية، عن مفهوم «صراع الحضارات» عند هنتنجتون. لقد اختصر هنتنجتون «الغرب» في «أمريكا»، مثله مثل فوكوياما صاحب نظرية «نهاية التاريخ»، ضاربا عرض الحائط بالفروق الثقافية والتاريخية بين «أوروبا» و«أمريكا»، ووضع هذا الغرب بوصفه كتلة واحدة في مواجهة كتلات أخرى جغرافية وعرقية ودينية، دون تمييز بين هذه التصنيفات.

> السؤال هو: هل يمكن تفسير الموقف الراهن باعتباره تعبيرا عن «كراهية» و«عداء» متأصلين ضد الإسلام والمسلمين، أم أن على الباحث أن يتحدى مثل تلك الإجابات السهلة: لأنها جاهزة ومريحة، ويبحث عن الأسباب الأعمق لتفسير الموقف الراهن؟

والسؤال هو: هل يمكن تفسير الموقف الراهن باعتباره تعبيرا عن «كراهية» و«عداء» متأصلين ضد الإسلام والمسلمين، أم أن على الباحث أن يتحدى مثل تلك الإجابات السهلة: لأنها جاهزة ومريحة، ويبحث عن الأسباب الأعمق لتفسير الموقف الراهن؟ وكيف يمكن للباحث الموضوعي - مهما حاول - أن يتخلص من الأحاسيس والمشاعر والانفعالات المعقدة التي تضغط على عقله وتشل أحيانا قدرته على التحليل الهادئ؛ لعلي لا أعبر فقط عن تجربتي الشخصية حين أذكر أنني حال مشاهدتي على شاشة ال CNN لحدث انهيار المبنى الأول من مركز التجارة العالمي، وما تلاه من اقتحام الطائرة للمبنى الثاني ثم انهياره هو الآخر بعد دقائق، تبادر إلى ذهني فورا حالة رد الفعل المتوقعة ضد هذا الفعل الإجرامي البشع بكل المقاييس، والمرفوض بكل المعايير والأعراف الإنسانية. لكني وفي نفس اللحظة لم أستطع أن أمنع عقلي من مقارنة رد الفعل المتوقع - والمبرر - بحالة رد الفعل «البارد» - الهادئ والمحايد والموضوعي - ضد القتل اليومي للفلسطينيين، والذي كان العالم كله يشاهده على نفس القناة. صرخت في أعماق نفسي: سيهتز العالم كله غضبا للدم الأمريكي، نفس العالم الذي لم تحركه مشاهد الدم الفلسطيني الذي يسيل يوميا منذ أكثر من عام كامل. أليس الدم هو الدم؟ أم أن الدم الإنساني يكتسب قيمة تتوقف على محل الميلاد والجنسية ولون البشرة؟ أي عالم هو عالم الألفية ثالثة؟ وما معنى «حقوق الإنسان» و«حوار الحضارات» و«حوار الأديان»؟ ما أسهل أن ننصِّب من «الغرب» مجرما نصوِّب له سهام كراهيتنا، ونُنفِّس في كراهيته عن مشاعر غضبنا وإحباطنا. لكن الأصعب ألا نستسلم لسَورة الغضب، التي هي في النهاية سمة من سمات الضعف وقلة الحيلة، بل والعجز.

استدعى حدث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ أخبار أحداث الانتفاضة الفلسطينية في سبتمبر ٢٠٠٠، والتي كانت قد صارت جزءا من زادنا اليومي في الغربة، نتابعها بالصوت والصورة، ونتابع حالة البرودة العاطفية التي تُقابَل بها أنباء الانتفاضة ومشاهدها الحية في الدوائر السياسية والثقافية هنا. بالنسبة لنا كان لون الدم في أعيننا ورائحة الدم ملء أنوفنا، والحزن يعتصر كل اهتزازة في مشاعرنا وعواطفنا.

إن المقولة المريحة، والتي مفادها أن الغرب - هكذا دون تمييز أو تحديد - يكره الإسلام ويتآمر ضد المسلمين يمكن بلا شك أن تجد سندا لها في بعض حقائق التاريخ - الحروب الصليبية - والجغرافيا - القضاء على الامبراطورية العثمانية وإلغاء الخلافة - والاقتصادية المتمثلة في نهب ثروات الشعوب في فترة المد الامبريالي. تلك شواهد تُستدعَى دائما لتأكيد مقولة العداء الغربي المتأصل للإسلام والمسلمين. لكن مقولة العداء الأصيل تلك لا تشرح لنا علاقات «الصداقة» بين «الغرب» وكثير من الأنظمة السياسية في العالم الإسلامي، خصوصا تلك التي تعتبر نفسها - ويعتبرها الكثيرون في الغرب والشرق على السواء - أنظمة «إسلامية».

ومن المؤكد أن مقولة الكراهية الأصيلة للإسلام والمسلمين لا تصمد في تحليل التحالف الإسلامي الأمريكي للقضاء على الشيوعية، التي كانت تعد شارة الإلحاد. في هذا التحالف ضد الشيطان الأحمر وضع الغرب يده في يد الإسلام، ووضع المسلمون يدهم في يد الغرب «المسيحي» للقضاء على الإلحاد عدو البشرية، فأين كان العداء المتأصل؟ أليس هذا التحالف هو الذي سمح للإرهاب بتكوين «قاعدته» في أفغانستان، وذلك حين لم تمانع كل الأنظمة السياسية من السماح للمجاهدين - الإرهابيين محليا - بالسفر إلى أفغانستان؟ من هنا هو المسئول ومن هنا هو المجرم ومن الضحية؟

هل كانت الحرب ضد الجمهورية الإسلامية وضد نظام الخميني حربا ضد «الإسلام»، وهي حرب ساعدت في إشعالها قوى محلية «إسلامية» كثيرة؟ وهل كانت حرب «تحرير» الكويت ضد الاحتلال العراقي حربا مع «الإسلام» وضد العلمانية؟ ألم تشارك في هذه الحرب دول إسلامية كثيرة يدا بيد مع قوى الغرب بقيادة الولايات المتحدة؟ ليس معنى ذلك بأي وجه من الوجوه محاولة تبسيط العلاقة المعقدة تاريخيا وجغرافيا وسياسيا وثقافيا بين «الغرب» و«العالم الإسلامي» باتساع رقعته الجغرافية وتعدد أبنيته العرقية والثقافية. إن التبسيط المخل يتركز في هذه المعادلة الساذجة بين «إسلام» - يبدو ثابتا وساكنا ومفهوما - وبين «غرب»، يبدو كذلك ثابتا وساكنا ومفهوما. هذا ما يحاوله هواة الصيد في الأيديولوجيا بينما يعلنون موتها ونهاية التاريخ. إذا سلمنا بمقولة «نهاية التاريخ» فمن السهل التسليم بوجود إنيات ثابتة ساكنة مثل «الغرب» و«الإسلام».

في جذر الفلسفة الأمريكية يمكن أن نتلمس أسبابا لهذا الحرص على نصب عدو ما، يكون جاهزا حين تتعرض الأمة الأمريكية - الناشئة التكوين والهشة التاريخ والقابلة للتشظي - لخطر ما حقيقي أم وهمي. إن نمط التفكير الأمريكي مبني معرفيا على أساس الفلسفة البراجماتية، التي وضع أسسها كل من

«تشارلز ساندرز بيرس» (١٨٣٩ ـ ١٩١٤) و«وليام جيمس» (١٨٤٢ ـ ١٩١٤). وهى فلسفة تركز على مدى «الفائدة» العملية المباشرة للأفكار: فالفكرة تكون «صحيحة» إذا كانت فقط «نافعة»، وتكون على العكس «زائفة» إذا لم يكن لها مردود نفعى مباشر. وليست الفلسفة البراجماتية مجرد رد فعل للفلسفة المثالية التى تؤمن بالأفكار بوصفها «حقائق» مستقلة ذات وجود موضوعى. بل هى تبالغ فى ربط مفهوم «الحقيقة» ربطا مباشرا بالفائدة العملية. أو «تحقيق المنفعة».

ولما كانت فكرة أن «الإسلام عدو» فكرة نافعة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وزوال خطر التحدى الشيوعى سياسيا وعسكريا وأيديولوجيا. فقد أصبحت الفكرة «حقيقة» بقدر ما تحققه من نفع. أما لماذا يحتاج الواقع الأمريكى إلى «عدو» فهذا سؤال آخر يجد إجابته فى التكوين التاريخى لهذا المزيج المعقد من الجماعات والمصالح والصراعات المعروف

القرار. وكم كان حجم الفضيحة مرعبا حين فسر الخبراء عبارة «توكلت على الله» التى وردت على لسان الطيار المصرى المسكين بأنها تعنى إقدامه على «الانتحار»! إنه ليس جهلا باللغة، بل هو جهل بالتاريخ والثقافة والتراث الذى تعد اللغة وعاءه الجامع.

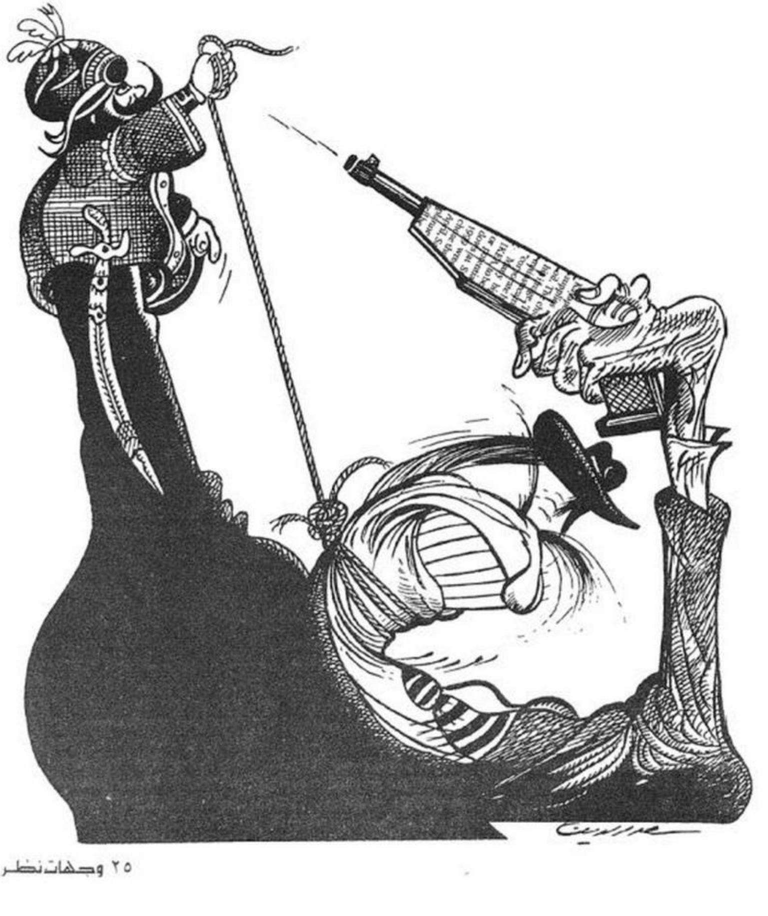
هذا عن الوضع فى أمريكا من حيث علاقتها بالعالم الإسلامى من جهة، ومن حيث طبيعة المداخل التى فرضتها هذه العلاقة على دراسة الإسلام من جهة أخرى. الوضع فى أوروبا ـ وهى مكون رئيسى فى مفهوم «الغرب»، والذى تعد أمريكا مكونا من مكوناته ـ يختلف. ويكفى أن نذكر أن الاهتمام بالإسلام وتاريخه وآدابه يعود إلى بدايات انبعاث المد الإسلامى داخل حدود الامبراطوريتين القديمتين الرومانية والفارسية منذ أواخر القرن السابع وبدايات القرن الثامن. وقد واكب هذا التداخل الجغرافى تلاقح ثقافى اتخذ فى البداية شكل المساجلات الدينية.

من المفيد فى هذا السياق الإشارة إلى أن بدايات السجال المسيحى الإسلامى مذكور فى القرآن الكريم فى سورة آل عمران بصفة خاصة، حيث تسرد قصة السيد المسيح بدءا من ميلاد السيدة مريم حتى رفع السيد المسيح (الآيات من ٣٥ ـ ٦٠) ثم تنعطف الآيات التالية (٦١ وما بعدها) مشيرة إلى الحوار الذى دار بين النبى عليه السلام ووفد نصارى «نجران» القادمين من «اليمن» والتى كانت آنذاك تحت حكم «الحبشة» الخاضعة بدورها للكنيسة الرومانية. فى هذا السياق يتبين منطق القرآن الكريم فى حالة وصول الحوار إلى طريق مسدود، تسليم الأمر إلى «العلم الإلهى» بالدعوة إلى الابتهال إلى الله بأن يصب لعنته وغضبه على «الكاذبين». ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.

هذا المنطق القرآنى المحايد والموضوعى ظل منهج المسلمين فى الاستجابة للتحديات اللاهوتية التى كان يطرحها المفكرون النصارى نذكر من أوائلهم «يوحنا الدمشقى» (ت: ١٣١هـ/٧٤٩) الذى نشأ وتربى وتعلم وعمل فى بلاط الخلافة الأموية فى دمشق، ولم يمنعه ذلك من تحدى صدق نبوة «محمد» عليه السلام ومن تحدى مصداقية القرآن الكريم ورفض كل المفاهيم القرآنية عن طبيعة السيد المسيح وحقيقته. بل يمكن القول إن كتابات «يوحنا الدمشقى»، أشهر لاهوتيى عصره وآخر آباء الكنيسة، عن الإسلام والقرآن وعن نبى الإسلام هى التى وضعت الأساس اللاهوتى للنقاش الذى ما يزال

الكراهية.. لماذا؟

بالمجتمع الأمريكى. إلى أى حد يمكن المقارنة بين هذا التكوين التاريخى للولايات المتحدة والتكوين التاريخى لدولة «إسرائيل» فهذا سؤال آخر يكتسب شرعيته من حقيقة أن شكل التماسك الاجتماعى السياسى الوحيد يتحقق فقط فى حالة وجود «خطر». فإذا لم يكن ثمة خطر حقيقى فعلى فلا بد من اختلاق حالة «خطر»، تتطلب بدورها تعيين «عدو». هل يساعدنا هذا الشرح لأسس الفلسفة الأمريكية فى فهم أيديولوجيا البحث عن عدو؟ وهل يشرح لنا لماذا أصبح هذا العدو هو «الإسلام» تحديدا، وذلك دون أن نبتلع الطُّعْم الذى يراد لنا ابتلاعه؟



فى أمريكا يمكن أن نتلمس بداية تخلق مشاعر الخوف من الإسلام ابتداء من نجاح الثورة الإسلامية فى إيران، وما صاحبها من احتلال السفارة الأمريكية فى «طهران» واحتجاز عدد من الدبلوماسيين والعاملين فى السفارة. خلق هذا الحدث اهتماما متزايدا بالإسلام فى الدوائر السياسية والأكاديمية الأمريكية، لكن هذا الاهتمام انصب بصفة أساسية على استراتيجية تجميع المعلومات التى من شأنها أن تساعد صانع القرار السياسى فى التصدى لمشكلات التعامل مع العالم الإسلامى فى إيران وتركيا والعالم العربى من جهة، وفى جنوب شرق آسيا من جهة أخرى. وبعبارة أخرى يمكن القول إن الغايات النفعية هى التى حددت النهج الأمريكى الغالب فى الدراسات الأكاديمية للإسلام، وحصرتها فى إطار المداخل السسيولوجية والأنثروبولوجية والعلوم السياسية. وهذه المداخل على أهميتها تتجاهل البعد التاريخى للفكر والثقافة الإسلامية، وهو بعد لازم وحتمى لفهم الإسلام الحى، أى الإسلام كما تمارسه المجتمعات الإسلامية المختلفة عرقيا وثقافيا. وفى تركيز المناهج الأمريكية على دراسة الإسلام الحى معزولا عن سياقه التاريخى يكمن «سوء الفهم» العويص فى الأوساط السياسية المسئولة عن صناعة

صداه مستمرا حتى الآن بين اللاهوتيين المسيحيين وممثلى الفكر الإسلامى. ومع ذلك فلم نسمع عن أى مضايقات تعرّض لها «يوحنا الدمشقى» فى عقيدته أو فى شخصه. لم نجد سوى الاهتمام بكتاباته والرد عليها ومناقشة أطروحاته(١).

هذا الحوار، أو بالأحرى السجال، القديم الجذور بدأ يأخذ شكلا منظما فى القرن الثانى عشر حيث تمت ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية لأول مرة فى طليطلة سنة ١١٤٣. صحيح أن هذه الترجمة لم تُنشر إلا بعد ذلك بحوالى أربعة قرون سنة ١٥٤٣ وذلك بتاييد ومساندة «مارتن لوثر»(١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) المصلح البروتستانتى المعروف. كان الهدف من الترجمة هو إتاحة معرفة بالقرآن تمكن رجال اللاهوت من «الدحض» و«الرفض»، وهى الحاجة التى تزايدت مع تزايد خطر التوسع العثمانى رغم انحسار الرقعة الجغرافية للإسلام بسقوط «غرناطة» ١٤٩٢ تطور الاهتمام الأكاديمى بالإسلام وتاريخه وآدابه فى أوروبا واتخذ مسارات مختلفة ومنحنيات شتى معروفة لكل من درس تاريخ الاستشراق. ورغم كل السلبيات التى يمكن تتبعها فى الدراسات الاستشراقية، وهى السلبيات التى حللها بكفاءة منقطعة النظير الدكتور «إدوارد سعيد» فى كتابه المعروف، فإن الخدمات التى أسداها المستشرقون للثقافتين العربية والإسلامية لا يمكن تجاهلها.

من الجدير بالذكر أن ترجمة القرآن بهدف الدحض والرفض من منظور لاهوتى لم تمنع «التأثر»، ويكفى أن أشير هنا إلى دراسة رائدة بعنوان «أثر الإسلام فى إصلاح المسيحية» للمرحوم الشيخ «أمين الخولى»، وهى دراسة تتبع بدقة تاريخية وبمنهج تحليلى الكيفية التى تسربت بها الأفكار والمفاهيم الإسلامية حتى ساهمت فى بلورة حركة «الإصلاح الدينى» التى تمثلت فى كتابات «مارتن لوثر»، الذى كان يعتبر الإسلام، كما يتمثل فى التوسع العثمانى «عدوا» لابد من التصدى لخطره. هذا من ناحية التأثير الإسلامى فى العالم المسيحى، ومن الناحية الأخرى، ناحية تأثير الدراسات الاستشراقية فى المفكرين العرب والمسلمين، يكفى الإشارة إلى الاهتمام فى الثلاثينيات من القرن الماضى بترجمة كل ما ينشر عن الإسلام فى الغرب من أجل الدخول معه فى حوار علمى. النموذج الواضح لهذا «الحوار» يمكن متابعته فى الترجمة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية، والتى توقفت للأسف عند حرف «العين». هل يجب التذكير بأن دائرة المعارف الإسلامية تصدر فى الغرب، تصدرها مؤسسة «بريل» بمدينة «ليدن» بهولندا. وهى نفس المؤسسة التى أصدرت هذا العام المجلد الأول من الموسوعة القرآنية، التى يشارك فى مجلس تحريرها وهيئة مستشاريها علماء وباحثون مسلمون وغير مسلمين. وقد كانت مجلة «المنار» التى كان يصدرها «رشيد رضا» وساهم فى تحريرها الشيخ «محمد عبده» حتى وفاته عام ١٩٠٥ قناة اتصال بين الشرق والغرب حتى وفاة صاحبها: فكانت مفتوحة لكل الآراء فكتب فيها المبشرون المسيحيون، وكان يتولى الرد والتعليق على هذه الكتابات رشيد رضا نفسه أو غيره من العلماء المسلمين.

هكذا يمكن القول إن «السجال اللاهوتى»، الإسلامى المسيحى، والذى بدأ مبكرا جدا فى القرن الثامن، تطور بالتدريج إلى حوار بين طرفين تبادلا مواقع القوة، لكن هذا «الحوار» لم يتخذ شكلا منظما إلا فى منتصف القرن العشرين وبعد صدور الوثيقة الأولى عن «حقوق الإنسان» سنة ١٩٤٨ ففى بداية الخمسينيات تم إنشاء اللجنة الدائمة للتعاون بين المسلمين والمسيحيين Continuing Committee for Muslim Christian Cooperation (CCMCC) . وهى اللجنة التى قامت بتنظيم مجموعة من اللقاءات بين بعض ممثلى القيادات الدينية من الجانبين فى لبنان، وبالمثل نظم كل من «الفاتيكان» و«المجلس العالمى للكنائس» لقاءات مماثلة، هذا بالإضافة إلى المؤتمر الذى نظّمه العقيد «القذافى» فى ١٩٧٠ واللقاءات التى نظمها «مركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية» فى تونس، ولقاءات «مؤسسة آل البيت» فى عمان.

لكن ذلك لم يمنع وجود شكل آخر من أشكال الحوار غير شكل اللقاء بين القيادات الدينية الممثلة للمؤسسات الرسمية على الجانبين. اتخذ الحوار أشكالا فكرية ذات طبيعة أكاديمية، وتمثل ذلك فى تأسيس «جماعة البحث الإسلامى المسيحى» ((GRICعام ١٩٧٧، بمشاركة عناصر من الباحثين المسلمين والمسيحيين، كاثوليكيين وبروتستنتيين على السواء. وتتكون هذه الجماعة حاليا من أربع مجموعات نشطة فى كل من «بروكسل» و«باريس» و«تونس» و«الرباط»، حيث يقومون بعمل دراسات فى موضوعات مشتركة، ثم يجتمع ممثلون عنهم مرة كل عام لتقييم تطور الأبحاث المُنْجَزَة. وقد نشرت هذه الجماعة حتى الآن كتابين: يتناول الكتاب الأول الكيفية التى يمكن بها قراءة وفهم كل من «القرآن» و«الكتاب المقدس» بعهديه القديم والجديد. وقد نشر الكتاب باللغة الفرنسية بعنوان Ces Ecritures qui nous questionnent, Paris, Centurion, 1987 ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية. أما الكتاب الثانى فيتعامل مع موضوع «الإيمان والعدل» Foi et Justice, Paris, Centurion, 1993.

وفى نفس اتجاه البحث الأكاديمى نُشِرَت كثير من الكتب المؤلفة والمترجمة على السواء، هذا بالإضافة إلى الدوريات المتخصصة فى قضايا الحوار الإسلامى المسيحى. يمكن الإشارة هنا إلى الجهود المبذولة من الجانب الكاثوليكى حيث يصدر «المعهد البابوى للدراسات العربية والإسلامية» (PISAI) فى «روما» كتابا دوريا سنويا Islamochristianaمنذ عام ١٩٧٥، كما يقوم نفس المعهد بنشر الدورية الشهرية Encounter فى إيطاليا، والدورية Se Comprendre فى باريس. أما على الجانب البروتستنتى فيمكن الإشارة إلى الدورية الفصلية The Muslim World والتى بدأ ظهورها منذ عام ١٩١٠، والذى يتولى نشرها الآن مركز ماكدونالد دونكان بلاك Duncan Black Macdonald Center لدراسة العلاقات المسيحية الإسلامية فى هارتفورد Hartford CT. ولا بد من الإشارة كذلك إلى الفصلية الدورية ـ كل ثلاثة شهور ـ Islam and Christian-Muslim Relations والتى تنشر بالتعاون بين مركز دراسة العلاقات المسيحية الإسلامية فى «برمنجهام» فى المملكة المتحدة، وبين مركز التفاهم الإسلامى المسيحى فى «واشنطن»، العاصمة الأمريكية. بالإضافة للمطبوعات والدوريات تقوم المؤسسات الأربعة المشار إليها فى «روما» و«هارتفورد» و«برمنجهام» و«واشنطن» بتنظيم محاضرات وعقد مقررات دراسية فى موضوع العلاقات المسيحية الإسلامية.

ولا يكتمل هذا العرض لمحاولات الحوار الإسلامى المسيحى فى العصر الحديث دون الإشارة إلى ظاهرة تزايد عدد المكتبات المخصصة لموضوع المسيحية والإسلام والتى تنشئها المؤسسات الكاثوليكية والبروتستنتية فى كل من آسيا وأفريقيا بهدف دفع عملية الحوار فى اتجاه مزيد من التفاهم المشترك. وبالمثل يمكن الإشارة إلى تزايد عدد الكتب التى توجد فى المؤسسات الإسلامية فى المجتمعات الغربية، والتى تتناول موضوع العلاقات المسيحية الإسلامية من زوايا متعددة.

وإذا كان الهدف من الحوار، سواء اتخذ شكل اللقاءات والمواجهات المباشرة، أو اتخذ شكل الدراسات والبحوث الأكاديمية، ليس الوصول بالضرورة إلى «اتفاق تام»، بقدر خلق مناخ من التفاهم المشترك، فإن معوقات نجاح الحوار يمكن تلمس بعض جوانبها فى حقيقة أن محاولات الوصول إلى اتفاق تظل مضمرة فى كثير من اللقاءات المباشرة. وهذا الأمر يطبع هذه اللقاءات، أو بعضها، بطابع «المفاوضة» وليس «الحوار». والفارق بين استراتيجيات «التفاوض» وبين استراتيجيات «الحوار» ليس فارقا فى الدرجة بل هو فارق نوعى: إذ يتضمن «التفاوض» إمكانية التنازل عن شىء مقابل الحصول على شىء مقابل، فيلتقى طرفا التفاوض فى منتصف الطريق. وليس الأمر كذلك فى حالة «الحوار» حيث يكون الهدف هو الوصول إلى فهم متبادل لموقف كل طرف من جانب الطرف الآخر، وهو التفاهم الذى من شانه أن يخفف تدريجيا من حالة «الصراع» لينتقل بأطراف الحوار إلى حالة التعاون.

وهذا المفهوم للتعاون بديلا عن الصراع، وللتفاهم بديلا عن «التفاوض» أو«العراك» اللاهوتى، هو المفهوم الذى يبدو أن مؤسسة «الأزهر» تنطلق منه كما يعبر عن ذلك ممثلها الدكتور «على السمان»، حيث ذهب إلى أن الحوار الذى يتبناه «الأزهر» ويسعى إلى إنجازه يدور على ثلاثة مستويات: «المستوى الأول: مستوى اللجنة الدائمة للأزهر لحوار الأديان السماوية، والمستوى الثانى: هو لجنة الحوار والعلاقات الإسلامية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والمستوى الثالث هو المؤسسة الدولية لحوار الأديان السماوية وتعليم السلام DIC ومقرها بباريس. هذه المؤسسة الأخيرة كان لها دور محورى ـ فيما يقول الدكتور السمان ـ «فى عقد اتفاق الحوار الذى أُبرم بين الأزهر والفاتيكان فى مايو ١٩٩٨م».

فى حديثه عن إنجازات اللجنة الدائمة لحوار الأديان، المستوى الأول، يعرض الدكتور «على السمان» للصعوبات التى تعترض عمل هذه اللجنة، كما يعرض للاستراتيجية الأساسية التى تتبناها. أما عن صعوبات النقاش فى مسالة حوار الأديان فيقول إنه: «أصبح موضوع نقاش هادئ أحيانا ونقاش ساخن أحيانا أخرى، ملىء بالموضوعية فى النقد والتقويم فى بعض المراحل، وملىء بالسطحية والتعميم فى نقد غير هادف فى مراحل أخرى». ورغم تلك العوائق فقد تبنت اللجنة أن تطبق القاعدة الإسلامية التى فحواها: «اللهم اجعلنا ممن يجمع ولا يفرق».



من المؤكد أن مقولة الكراهية الأصيلة للإسلام والمسلمين لا تصمد فى تحليل التحالف الإسلامى الأمريكى للقضاء على الشيوعية، كما مقولة العداء الأصيل تلك لا تشرح لنا علاقات «الصداقة» بين «الغرب» وكثير من الأنظمة السياسية فى العالم الإسلامى

وحول السؤال عن قيمة ودور وفائدة حوار الأديان بصفة عامة وفائدة الحوار الذى تقوم به اللجنة بصفة خاصة، يحدد نائب رئيس اللجنة أهمية الحوار وضرورته فى عدة أمور:

١ - كون «الحوار» نهجا إسلاميا أصيلا، مارسه الرسول ضد مخالفيه، بل مارسه القرآن ذاته. ٢ - الحوار هو بمثابة «صمام الأمان بديلا عن المواجهة والصدام».

٣ - الحوار «مبدأ أخلاقى» يعنى الاعتراف بالآخر، فهو «لغة المنظمات الدولية والإنسانية والمجتمع المدنى». الغاية من الحوار بين الأديان هى السعى إلى «إيجاد لغة مشتركة بيننا وبين ممثلى الأديان الأخرى لإقامة معادلة ذكية وأمينة بين ما نريده نحن الذين يحملون جزءا من مسئولية تقديم الصورة الصحيحة لإسلامنا الحنيف وبين ما يريده الآخرون لتوضيح صورة أديانهم وحرصهم على إيجاد أرضية تعاون حول القيم المشتركة للأديان». فى إطار هذا الهدف تم للجنة تحقيق الإنجازات التالية:

١ - أولا «المشاركة فى المؤتمرات الدولية للحوار ليعلو صوت الأزهر من أعلى المنابر ناشرا فكر إسلام السماحة ولمواجهة اتهام الإسلام بما ليس فيه». وأهم هذه المؤتمرات - فى نظر الدكتور «السمان» - كان مؤتمر روما للألفية أمام نحو ألف من ممثلى الأديان الأخرى فى العالم، حيث قُرِأت رسالةُ الإمام الأكبر شيخ الأزهر أمام هذا الجمع الكبير عن مكان الأديان الأخرى فى الإسلام والقواعد التى أرست تعامل المسلمين مع غير المسلمين حتى فى حالة الحرب مما يؤكد الأسلوب الروحانى والإنسانى والحضارى لتعامل الإسلام مع الآخرين.» ولا ينسى الدكتور السمان فى هذا السياق الإشارة إلى المؤتمر الذى عقد عام ١٩٩٩ فى قصر وندسور بإنجلترا تحت رئاسة الأمير فيليب والد الأمير شارلز»، الذى كان قد أكد مبادئ الحوار فى خطابه التاريخى بأكسفورد حينما رفض أن يُحَمِّل الإسلام بجريرة ما يقوم به بعض المسلمين والذى أكد أنه تعلم من الإسلام كثيرا».

والآن وبعد هذه الجهود المشكورة من الجانبين لماذا تبدو الصورة قاتمة؟ ولماذا لم تمتد جدوى الحوار الرسمى والأكاديمى لتمارس أى فعالية تذكر على مستوى وعى المواطن العادى، المسلم وغير المسلم على السواء، فى المجتمعات الغربية؟ لماذا يظل خطاب الأمير شارلز خطابا نخبويا، ولماذا تظل عبارات جورج بوش الابن وتونى بلير والرئيس الفرنسى شيراك عن التمييز بين الإسلام - دينا وثقافة وحضارة - وبين «الإرهاب» عبارات بلا مردود فى سلوك مواطنيهم فى «أمريكا» و«إنجلترا» و«فرنسا»؟ وأخيرا لماذا هذه الفجوة بين صورة الإسلام فى «الإعلام» وبين الصورة فى الخطابين السياسى والدينى الرسميين؟ تلك أسئلة آن أوان مواجهتها مواجهة شجاعة.

أعتقد أن جزءا جوهريا من الشجاعة المطلوبة هو شجاعة مواجهة النفس بالنقد، الذى لا يجب التقليل من شأنه لمجرد أنه صادر من آخرين. إن «الآخر» ليس بالضرورة عدوًا أصيلا، بل هو بدرجات متفاوتة «مرآة» تتجلى فيها صورة «الأنا». وعلى ذلك يجب علينا عدم المراوغة للتهرب من الإجابة عن السؤال التالى: لماذا يستشهد المسلمون دائما بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى تبرز الوجه السلمى المتسامح للإسلام ويتجاهلون النصوص الأخرى التى تحض على القتال والقتل والإرهاب؟ وهو سؤال أصبح يثار كثيرا بعد الحادى عشر من سبتمبر، خاصة مع تزايد حجم الإجابات الجاهزة، سواء ذات الطابع الدفاعى/الاعتذارى apologetic أو ذات الطابع السجالى polemic.

فى الإجابات الدفاعية/الاعتذارية يتم تجاهل النصوص التى تحض على القتال والتربص للمشركين فى كل مكان، أو يتم اللجوء إلى توظيف مقولة «النسخ» رغم كل ما تثيره من مشكلات من الوجهة اللاهوتية؛ فالنصوص التى تحض على القتال والتربص بالمشركين نزلت بعد النصوص التى تؤكد التسامح والمساواة بصرف النظر عن اللون أو اللغة أو حتى العقيدة. فى الإجابات ذات الطابع السجالى يقوم المحاور ببيان أن العنف ظاهرة موجودة فى كل الأديان وفى كل الثقافات، ولعله يستشهد بمدى العنف الذى مارسه الصليبيون باسم المسيح لا ضد المسلمين وحدهم بل ضد المسيحيين الشرقيين واليهود معا. وحين يؤكد المحاور حقيقة وجود العنف فى كل الأديان وكل الثقافات فإنه يكاد يصل إلى تخوم تبرير العنف.

ومن أهم عناصر الشجاعة فى مواجهة النفس أن يعترف رجال السياسة والعلماء والمثقفون فى العالم الإسلامى أن ثمة مشكلة يعانى منها العالم الإسلامى، تتمثل فى ظاهرة وجود تفسيرات للإسلام يمكن استخدامهما تبريرا لقتل الأبرياء. ولابد من الاعتراف أن هذه التفسيرات ستظل معوقا من معوقات التقدم والازدهار والترقى ما لم يبدأ العلماء والمثقفون فى العالم الإسلامى فى توظيف منهج النقد التاريخى فى دراسة التراث وتحليله. ولابد من الإشارة هنا منعا لسوء الفهم الناشئ عن الالتباس أن «النقد» لا يعنى «النقض» والهدم. ولا يمكن القول إن بنية «العقل الإسلامى» ضد «النقد» ومع التسليم والإذعان كقيم مطلقة: ذلك أن الحديث عن عقل إسلامى خارج محددات الجغرافيا والتاريخ من جهة، وبمعزل عن الشروط الاجتماعية/الثقافية للمجتمعات الإسلامية بمرجعياتها التاريخية المختلفة من جهة أخرى، حديث ميتافيزيقى لا يستند إلى أسس واقعية. لعل الأكثر واقعية أن نبحث عن علة هذا الفزع العام من منهج «النقد»، خاصة حين يطال أيا من الظواهر الدينية فى التاريخ الحديث، فى أزمة «الحداثة» و«التحديث» وإشكالياتها النابعة من سياق العلاقة الملتبسة بين العالم الإسلامى من جهة، وبين أوروبا بصفة خاصة والغرب بصفة عامة من جهة أخرى. ربما نجد فى هذه العلاقة مؤشرات للإجابة على بعض الأسئلة الحائرة. لماذا كان ممكنا مثلا فى القرن التاسع الميلادى لمفكر موسوعى مثل جلال الدين السيوطى (ت ٩٠٩ هـ) أن يسرد الرأى القائل بأن «القرآن» الكريم أُوحِيَ إلى محمد عليه السلام بالمعنى فقط وأنه هو الذى وضع صياغته باللغة العربية، ولم يعد ممكنا اليوم مجرد مناقشة هذا الرأى أو حتى حكايته؟ لماذا إذا ذكر مؤرخ - مجرد ذكر - الحقيقة التاريخية المعروفة أن محمدا، عليه السلام، فشل فى دعوته فى مكة حيث تعرض هو وصحبه لاضطهاد غير محتمل من قريش، ومن ثم لم يجد مناصا من الهجرة إلى يثرب، تهيج الدنيا ويحتج المحتجون فيحاكم الرجل ويحكم عليه بالسجن؟ ولماذا ينجرح الشعور الدينى بصدور رواية أدبية أو نشر قصيدة شعرية، أو عرض لوحة فنية أو رواية سينمائية، ويحشد الخطباءُ العامةَ فى مظاهرات احتجاج ضد ما لم يقرءوا أو يشاهدوا؟ ما سر ذلك العداء العجيب للفنون والآداب، خاصة فنون الموسيقى والغناء، كأن ترتيل القرآن الكريم لا ينتمى إلى فن الأداء الصوتى، وكأن القرآن نفسه ليس نصا أدبيا وفنيا راقيا بامتياز؟ وأخيرا لماذا نحرم ثقافتنا من فنون المسرح والأداء بوضع محاذير ضد ظهور بعض الشخصيات التاريخية؟ فى البدء انْصَبَّ التحريمُ على ظهور الأنبياء، ثم أخذ ينسحب تدريجيا على الصحابة وآل البيت، والآن توضع المحاذير ضد الممثل أو الممثلة الذى يشخص دور شخصية مهمة من التابعين. كأن يقال مثلا إن عليه -أو عليها- أن يجعل من هذا الدور آخر الأدوار التشخيصية. أليس معنى ذلك أن التمييز بين «الشخصية» و«الممثل» الذى يشخصها غائب غيابا تاما من أفق الوعى العام؟ إنه التوحيد التام بين «المثل» و«الممثول»، سواء فى اللغة - بين الألفاظ والمعانى والدوال والمدلولات - أو فى الواقع بين «الفكر» و«الشخص»، أو فى الأداء الفنى والأدبى بين «المتخيل» و«الواقعى». وكأن الثقافة الإسلامية ما تزال فى مرحلة التفكير البدائى «السحرى»، الذى لا فارق فيه بين اللغة كنظام رمزى وبين ما تمثله وترمز إليه من دلالات، ولا بين «الممثل» والدور الذى يمثله والشخصية التى يقدمها، ولا بين العمل الفنى أو الأدبى وبين «العالم» الذى ينبثق عنه، أو الفنان الذى يبدعه. يبدو هذا كله غريبا فى ظل ثقافة دينية انطلقت من آفاق مرجعية تراثية رحبة، انبثقت بصفة أساسية من «قرآن» تأسست دعوته على العقل - نقيضا للجهل والتعصب وضيق الأفق المسمى «جاهلية» - وعلى «العدل» نقيضا للظلم الذى يتأسس على قوة «الجهل» فى كل مناحى الحياة، وعلى «الحرية» نقيضا للعبودية بكل معانيها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

إن التردد فى تقبل منهج النقد التاريخى للتراث يرتبط بغياب قيمة «النقد» من أفق الحياة العامة بوصفه شرطا أوليا للمعرفة الحقيقية، أى المعرفة التى تنبثق من معطيات المعلوم إلى آفاق المجهول. وغياب «النقد» كقيمة إيجابية يمكن أن يفسر هذا التوجس من الديمقراطية باسم الإسلام. ويجعل من الصعب على المواطن فى الغرب تصور إمكانية التعايش بين الإسلام والديمقراطية. وحين تُذكر الديمقراطية تُذكر حقوق المرأة، اعتمادا على شواهد الحال فى مجتمعات إسلامية كثيرة.

علينا فى ممارسة الحوار ألا نكون أقل شجاعة فى نقدنا للآخر، وللغرب السياسى، خاصة حين يتصل الأمر بالكيان الصهيونى وممارساته القمعية ضد شعب فلسطين. إن «إسرائيل» هى نقطة ضعف أوروبا السياسية والثقافية، وليست نقطة ضعف أمريكا وحدها. علينا أن نذكر الغرب السياسى والثقافى بأن «المشكلة اليهودية» لم تُحل حين تم تصديرها لفلسطين استنادا على دعاوى لاهوتية سرعان ما تتهاوى أمام سلاح النقد التاريخى. وإذا كانت الكنيسة قد أصدرت وثيقتها البابوية بتبرئة اليهود من دم المسيح عليه السلام، فكيف يمكن أن يكون لهؤلاء اليهود، الذين لم يقتلوا السيد المسيح: لأنهم لم يكونوا موجودين آنذاك، أن يكون لهم حق فى الأرض التى لم يعيشوا فيها أبدا؟ وإذا تبنينا النهج السجالى لقلنا إن حقهم فى العودة إلى أرض الأسلاف - أرض الميعاد - لابد أن



فى جذر الفلسفة الأمريكية البراجماتية يمكن أن نتلمس أسبابا لهذا الحرص على نصب عدو ما، يكون جاهزا حين تتعرض الأمة الأمريكية لخطر ما حقيقى أم وهمى. ولما كانت فكرة أن «الإسلام عدو» فكرة نافعة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى، فقد أصبحت الفكرة «حقيقة» بقدر ما تحققه من نفع

يقارنه تحملهم لمسئولية الجريمة التي ارتكبها أسلافهم: فالميراث لا يتجزأ. علينا أن نكشف للغرب السياسى أن انتماءه الدينى المضمر يجعل من «إسرائيل» طفل العالم المدلل، لكنه ليس الانتماء الدينى المضمر فقط، بل يضاف إليه «عقدة الذنب» إزاء اليهود.

وبصرف النظر عن نهج التحاور واستراتيجياته وآلياته، فمن الضرورى أن يكون حوارا نقديا بنّاء، لا مجرد نقد للآخر وتبرئة الذات. وفى تقديرى أن الأمر ليس أمر عداء متاصل ضد الإسلام فى الغرب، بقدر ما هو غياب لروح الحوار النقدى المتبادل، والمستند على درجة عالية من الشفافية المنهجية. إن مشكلاتنا مع الغرب هى مع سياسات الغرب ومصالحه الاقتصادية، وفى القلب من هذه السياسات والمصالح «الكيان الصهيونى». دليلى على ذلك مسألة «تجريم» النقد التاريخى إذا اتصل بموضوع المحارق النازية، وإذا اتصل بالحقوق التاريخية لليهود فى أرض فلسطين، حين يتصل الأمر بإسرائيل يصبح الغرب شرقا حيث يصبح «النقد» جريمة.

فى الندوة التى عقدتها الأكاديمية الكاثولوكية فى مدينة «هامبورج» بالمانيا يومى ١٥ ـ ١٦ نوفمبر عن «السلام والأديان»، وبعد انتهاء المحاضرين الثلاثة من إلقاء كلماتهم وفتح باب الحوار للجمهور، وقف مواطن أمريكى يعيش فى المانيا وألقى شبه محاضرة وجّه فيها نقدا شديدا للمسلمين بصفة عامة وللعرب بصفة خاصة، لعدم اعترافهم بالأيادى البيضاء لأمريكا، وإنكارهم الواضح للجميل. وقف المواطن يعدد بالأرقام (ملايين الدولارات) حجم المساعدات التى أنفقتها الولايات المتحدة لمساعدة المحتاجين فى العالم بدءا من مشروع «مارشال» الذى انتشل أوروبا من دمار الحرب العالمية الثانية وأعاد بناء اقتصادها من جديد. هذا المشروع الإنسانى العظيم الذى لولاه ـ هكذا شرح المواطن الأمريكى ـ ما استطعنا أن نجتمع هنا اليوم فى هذا المكان الرائع، لننعم بإمكانية هذا الحوار. ومن مشروع مارشال انتقل المحاضر للمساعدات التى أنفقتها الولايات المتحدة لإيواء اللاجئين الفلسطينيين عقب النكبة، وذكر التدخلات الإنسانية لحماية المسلمين فى «كوسوفو»، هذا بالإضافة إلى برامج المساعدات الاقتصادية لمصر وغيرها. ألم تقف الولايات المتحدة إلى جانب «الأفغان» فى حربهم العادلة ضد الاحتلال السوفيتى، وزودت المقاتلين الأفغان بالمال والسلاح؟ هكذا تساءل المتحدث فى دهشة واستنكار بالغين، وتهدج صوته وهو ينهى تعليقه بالتساؤل: ومع كامل التقدير ما سر هذه الكراهية التى تتبدى فى كلام الدكتور «أبو زيد» ضد أمريكا والأمريكان؟!

تعالت أصوات الاستهجان من جميع الحاضرين اعتراضا على لهجة «الاستعلاء» الواضحة فى حديث المتحدث.

ورغم لهجة الاستفزاز الواضحة فى التعليق فقد شكرت المتحدث لأنه أتاح لى الفرصة للرد على اعتراضات وأوهام لم أتعرض لها فى صلب محاضرتى: مسألة كراهية العرب والمسلمين للغرب بصفة عامة ولأمريكا بصفة خاصة. قلت له إن المسألة ليست مسألة كراهية متاصلة، بل هو «النقد» الذى تتقبله إذا كان موجها ضد غير أمريكا ولكنه محرم ضد أمريكا. حديث هذا المواطن الأمريكى هو «الصدى» لحديث الكراهية المتاصلة فى الغرب ضد الإسلام عند بعضنا. فى العالم الواحد الصغير غير المتكافئ وغير العادل يبدو اختيار «الحوار» هو الاختيار الأصعب، فى حين يبدو اختيار «الكراهية» هو الاختيار الأسهل. لقد اختار الساسة فى أمريكا أن يقودوا العالم ـ الذى أطاعهم فى مجمله ـ فى حرب كراهية ضد عدو لم يتحدد بشكل واضح: الإرهاب الدولى. وعلينا أن نحذر «النقد» الذى قد يبرر الإرهاب دون أن يمنعنا ذلك من كشف النقاب عن النتائج المتوقعة لهذه الحرب التى شارك فيها كل طرف من أجل حربه الخاصة.

ها هو «شارون» يعلن أنه يخوض حربًا ضد «السلطة الفلسطينية» لأنها تحمى «الإرهاب» شأنها فى ذلك شان نظام «طالبان» الذى يحمى «القاعدة». هذه واحدة من نتائج حرب الكراهية العمياء ضد عدو لم يتحدد، فاصبح من حق كل طرف من أطراف التحالف أن يشير إلى عدوه باصابع الاتهام بوصفه «الإرهاب». من يستطيع فى هذا السياق المجنون أن يمسك راسه، ويطامن من غضبه ويحبس نبض مشاعره وعواطفه، ليقول كلمة سواء؟ ما أصعب وضع المفكر أو المثقف، الذى هو أيضا مواطن له انتماءاته التى يعتز بها، والذى يريد أن يظل مخلصا لقضية المعرفة وساعيا لنشدان الحقيقة! إن الانتماء الحقيقى يفرض على الباحث نقد ثقافته الخاصة سعيا لتطويرها، وفى هذا المنحى قد يتجهمه بعض أهله: لأنهم يريدون منه أن يوجه سهام نقده للآخر وحده. وإذا أخلص النقد ضد «الآخر» وأفرط ـ ولو بالتضمين دون الإفصاح ـ فى تبرئة الذات فقد خان أمانة الكلمة وروح البحث. تلك هى الغربة، وأى غربة!

الهوامش

(١) انظر عن «يوحنا الدمشقى والإسلام»:
D.J. Sahas, John of Damascus on Islam, Leiden 1972.

محاكمة هنرى كيسنجر

عبدالعظيم أنيس

مؤلف هذا الكتاب صحفى أمريكى يعترف أنه خصم سياسى لهنرى كيسنجر، وهو يتعرض بالوثائق للجرائم التى تشكل أساسًا لإدانة كيسنجر قانونيًا فى جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية بما فى ذلك جرائم التآمر للقتل والتعذيب. ولذلك فإنه لا يتعرض لأحداث ومواد تسىء إلى كيسنجر

The Trial of Henry Kessinger

(محاكمة هنرى كيسنجر)

Christopher Hitchens

Verso, 2001

وإن كانت لا تخضع لمعيار جرائم الحرب أو جرائم ضد الإنسانية وفق القوانين الدولية التى تطبق اليوم.

ومن أمثلة هذا النوع الأخير قيامه بتجنيد الأكراد العراقيين وخيانتهم بعد ذلك. فهو الذى شجعهم على النهوض بالسلاح ضد صدام حسين فى الفترة ١٩٧٤-١٩٧٥ ثم تخلى عنهم وعرضهم للإبادة عندما قام صدام حسين بإبرام اتفاقه المشهور مع شاه إيران.

هذا المثال يقع فى خانة السياسة الشريرة وإن لم يمثل مخالفة لقانون معروف. وبالمثل فإن قيام كيسنجر بالتستر السياسى والدبلوماسى والعسكرى على سياسة الأبرتهايد فى جنوب افريقيا وسعيه لزعزعة استقرار أنجولا ونشاطاته الأخرى فى أمريكا الوسطى فى أوائل الثمانينيات مع أوليفر نورث لن يتعرض لها الكتاب.

إن مؤلف الكتاب يقصر اهتماماته على الجرائم الواضحة والتى يمكن - بل يجب - أن توضع تحت وطأة المحاكمة. وهذه الجرائم تشمل على وجه التحديد على:

١- القتل الجماعى للمدنيين فى الهند الصينية.

٢- التآمر المتعمد فى القتل الجماعى، ثم فى الاغتيال فى بنجلاديش.

٣- التخطيط لمقتل «قائد عسكرى فى دولة ديمقراطية - شيلى - ليست فى حرب مع أمريكا.

٤- التدخل شخصيًا فى خطة لقتل رئيس دولة قبرص (المطران مكاريوس).

٥- التحريض والتمكين من القتل الجماعى فى تيمور الشرقية.

٦- الاشتراك شخصيًا فى خطة قتل صحفى يونانى يعيش فى واشنطن.

وربما كانت هناك جرائم أخرى لم تعرف بسبب حرق أدلتها.

إننا نعيش اليوم فى العصر الذى لم تعد فيه «حصانة السيادة» لحاكم أى بلد أمرًا مقبولاً. فالحكم على بينوشيه «دكتاتور شيلى السابق» فى لندن والنشاط الرائع لقضاة إسبانيا فى هذا الصدد وأحكام المحكمة الدولية فى لاهاى... كل ذلك قد هدم القناع الذى كانت ترتكب الجرائم تحته باسم «حصانة رئيس الدولة».

وبالتالى فلم يعد هناك سبب يمنع من صدور أمر قضائى بمحاكمة هنرى كيسنجر فى الجرائم التى سلف ذكرها. وثمة أسباب تجعل المؤلف يعتقد أن كيسنجر قد فهم هذا التحول الحاسم فى القانون حتى ولو كان العديدون من القادة لم يدركوا ذلك.

إن كثيرين من أعوان كيسنجر - فى فترة قيادته فى السلطة - موجودون الآن فى السجن، وبعضهم نال عقابه وتم فضحه، ولم يبق إلا كيسنجر دون عقاب. فباسم الألوف من الضحايا - المعروفين والمجهولين - ألم يأن الأوان لأن تأخذ العدالة مجراها فيما يتعلق بكيسنجر؟

إن كثيرين من أعوان كيسنجر. فى فترة قيادته فى السلطة. موجودون الآن فى السجن، وبعضهم نال عقابه وتم فضحه. ولم يبق إلا كيسنجر دون عقاب. فباسم الألوف من الضحايا. المعروفين والمجهولين. ألم يأن الأوان لأن تأخذ العدالة مجراها فيما يتعلق بكيسنجر؟



ثمة دلائل على أن كيسنجر يخشى بالفعل أن تمتد إليه يد العدالة. فالمؤلف يقول إن لديه تسجيلاً صوتيًا لحديث تليفونى دار بين كيسنجر ومايكل كوردا «صاحب دار نشر أمريكية» فى نيويورك فى ٢ ديسمبر ١٩٩٨. وقد بدأ الموضوع عندما دق جرس التليفون فى مكتب كوردا وجاءت رسالة تطلب منه الاتصال بالدكتور هنرى كيسنجر على وجه السرعة.

ورفع كوردا سماعة التليفون وطلب من سكرتيرته أن تطلب ٧٥٩٧٩١٩ (مكتب شركة هنرى كيسنجر وشركاه) ثم قال وسط ضحك الحاضرين فى مكتبه «الرقم فى الحقيقة كان يجب أن يكون ١٨٠٠ كمبوديا أو ١٨٠٠ ضرب كمبوديا».

وبعد برهة قصيرة يسمع صوت كوردا وهو يقول «هنرى.. هاى كيف أنت؟ أنت تحصل على صيت واسع هذه الأيام فى صحيفة نيويورك تايمز وإن كان ليس الصيت الذى تحبه... أعتقد مثلك أنه من المشكوك فيه أن تقول الإدارة نعم وأن تنشر هذه الأوراق... طبعًا لا... لا أعتقد أن هناك مشكلة حول ذلك حتى ولو كان الأمر غير مريح... هذا قاض إسبانى يناشد محكمة إنجليزية مقاضاة رئيس دولة شيلى... إسبانيا ليس لها سلطة الحكم على أحداث وقعت فى شيلى على أية حال... إنه بالمطلق كلام فارغ...».

ويستطيع أى إنسان أن يحكم عند سماع هذا الشريط على بعض الأشياء الخاصة بهنرى كيسنجر وأولها وأهمها حالة الرعب لديه عند سماع نبأ القبض على دكتاتور، وأيا كانت تفاصيل حديثه مع كوردا فإن الكلمة المفتاح فى هذا الحديث هى «المسألة القانونية».

فما الذى كانت صحيفة نيويورك تايمز قد نشرته ذلك الصباح وأشار إليه كوردا فى حديثه التليفونى مع كيسنجر؟

إنه مقال بقلم محررها لشئون الأمن القومى تيم وينر تحت عنوان «الولايات المتحدة سوف تنشر ملفات الجرائم تحت حكم بينوشيه» ويقول المقال:

«فى مواجهة سياسية ودبلوماسية حاولت تجنبها قررت الولايات المتحدة أن ترفع الحظر عن بعض الوثائق السرية حول الاغتيالات والتعذيب أثناء حكم الدكتاتور بينوشيه فى شيلى...» وقرار رفع الحظر عن هذه الوثائق هو أول إشارة لاستعداد الولايات المتحدة للتعاون فى القضية ضد بينوشيه. والمسئولون فى إدارة كلينتون يعتقدون أن فوائد المكاشفة فى شئون حقوق الإنسان تجب المخاطر على الأمن القومى فى هذه المسالة بالذات»... وبينما أيد المسئولون فى حكومات أوروبا تقديم بينوشيه للمحاكمة التزمت الولايات المتحدة الصمت تعبيرًا عن شكوكها فى سلطة المحاكم الإسبانية، وعن قلقها حول مغزى هذا بالنسبة لمسئولين أمريكيين قد توجه إليهم أدلة الاتهام فى بلاد أجنبية».

وكما توضح الوثائق الأمريكية التى أفرج عنها فقد أيد الرئيس نيكسون وهنرى كيسنجر (مستشاره لشئون الأمن القومى ووزير خارجيته فيما بعد) انقلابًا يمينيًا فى شيلى فى أوائل السبعينيات. لكن كثيرًا من أفعال الولايات المتحدة خلال انقلاب ١٩٧٣ وما فعله المسئولون الأمريكيون وأجهزة المخابرات مع حكومة بينوشيه مازال سريًا لم يفرج عنه. والملفات السرية عن نظام بينوشيه الموجودة لدى أجهزة المخابرات الأمريكية المختلفة والمكتبات الرئاسية لجيرالد فورد وجيمى كارتر مازالت فى الكتمان.

ووفق بيانات وزارة الخارجية فإن هذه الملفات تحتوى على سجل بتاريخ العدوان على حقوق الإنسان والإرهاب الدولى، ولدى المخابرات الأمريكية ملفات عن الاغتيالات التى قام بها النظام والبوليس السرى فى شيلى، وعن محاولات شيلى لتشكيل كتيبة عسكرية ذات توجه يمينى لأعمال القتل، كما تحتوى مكتبة فورد على الملفات السرية الخاصة بشيلى التى لم يسمح بنشرها حتى اليوم.

وحسمًا لهذا الوضع طلب المؤلف إجراء حوار مع كيسنجر حول هذه القضايا لكنه اعتذر.

إن الولايات المتحدة تعتقد أنها تتعقب وتدين مجرمى الحرب والإرهابيين الدوليين دون أن يخطر فى بالها أنها بهذا التكتم تحمى واحدًا من أكبر هؤلاء... وهو هنرى كيسنجر.

بين السياسيين فى واشنطن سر معلن وإن كانوا يتجنبون الحديث عنه. والسبب فى هذا الموقف هو أنه ليس من مصلحة الحزبين الرئيسين - الجمهورى والديمقراطى - إعلانه على الملأ.

وبكلمة صريحة فإن هذا السر هو: فى خريف ١٩٦٨ اتجه ريتشارد نيكسون وحواريوه إلى تخريب مفاوضات السلام مع الفيتناميين فى باريس. كان الحزب الديمقراطى بقيادة جونسون هو الذى يجرى المفاوضات، وكانت الانتخابات العامة الأمريكية على الأبواب وكان نيكسون هو مرشح الحزب الجمهورى. ولذا كانت طريقة تخريبها بسيطة، فقد أرسل نيكسون إلى حكومة سايجون من قال لها إنه إذا انتصر الجمهوريون فى الانتخابات الأمريكية فسوف يقدمون لها شروطًا أفضل من شروط حكومة جونسون التى يقدمها هربرت همفرى الذى كان مرشح الديمقراطيين فى انتخابات الرئاسة.

وقد نجحت تلك الحيلة وانسحبت فيتنام الجنوبية من مفاوضات باريس، وكان الديمقراطيون يعولون كثيرًا على نجاحها لمساعدتهم فى الانتخابات. وكان الديمقراطيون على استعداد لوقف الغارات على فيتنام الشمالية كجزء من هذه الصفقة.

ومن زاوية أخرى لم تنجح الحيلة لأن إدارة نيكسون التى جاءت إثر الانتخابات قد أنهت الحرب بعد سبع سنوات (١٩٧٥) بنفس الشروط التى كانت معروضة فى باريس. والسبب الحقيقى فى تكتم الساسة الأمريكيين لهذه المسالة أنه خلال تلك الفترة ما بين مفاوضات الديمقراطيين ومفاوضات كيسنجر قتل عشرون ألف جندى أمريكى وأعداد غير معروفة من الفيتناميين والكمبوديين واللينواتيين. وتاثير هذه السنوات الضائعة على المجتمع الفيتنامى والديمقراطية الأمريكية يفوق كل حساب.

وفى عام ١٩٩١ صدر كتاب «مستشار للرئيس» الذى كان مؤلفه كلارك كليفورد وزير الدفاع فى حكومة جونسون، وكان ريتشارد هولبروك المساعد السابق لوزير الخارجية ثم السفير بالأمم المتحدة عضوًا فى فريق المفاوضات، وكان هنرى كيسنجر هو الشخص الوحيد الذى كان على صلة بفريق المفاوضات وإن لم يكن من الحزب الديمقراطى، ومن هذا الطريق عرف بالعرض الأمريكى فى المفاوضات بوقف الغارات على فيتنام الشمالية.

يقول كليفورد إنه من مكتبه بوزارة الدفاع كان قادرًا على قراءة تقارير المخابرات عن «الطريق السرى الخاص» بين الرئيس ثيو فى سايجون ورجال حملة نيكسون الانتخابية، وفى مقدمة هؤلاء الرجال جون ميتشل وزير العدل فى حكومة نيكسون ومدير حملته الانتخابية والمسجون رقم ٢٤٧٨-١٥٧ فى سجون الاباما بعد ذلك، وكانت تساعده فى هذا العمل مدام آنا شينوليت «صينية من تايوان» والتى كانت تعرف باسم «السيدة التنين» لحكومة ثيو أنه سيقدم لهم شروطًا أفضل من شروط الديمقراطيين بمجرد كسب الانتخابات.

وفى النهاية انسحب ثيو من مفاوضات باريس مدمرًا لها قبل الانتخابات الأمريكية بيومين. ولا يشك كليفورد فيمن نصح ثيو بالانسحاب. فهو يقول: «إن نشاط فريق نيكسون قد تعدى تمامًا حدود النضال السياسى المقبول. لقد مثل بهذا تدخلاً مباشرًا فى أعمال السلطة التنفيذية ومسئوليات رئيس الدولة الأمريكية... إن نشاطات حملة نيكسون مثلت تدخلاً غير قانونى فى شئون تتعلق بالأمن القومى من جانب أفراد خصوصيين».

ويعترف نيكسون فى كتابه «مذكرات ريتشارد نيكسون» أن هنرى كيسنجر هو الذى أخبره أن إدارة جونسون كانت تتجه لوقف الغارات على فيتنام الشمالية بهدف إنجاح المفاوضات. وكان هنرى كيسنجر - كما يقول ريتشارد هولبروك - هو الشخص الوحيد من خارج الحكومة المسموح له بمناقشة المفاوضات معه. يقول هولبروك: «لقد كنا نثق فيه. وليس من المبالغة أن نقول إن حملة نيكسون الانتخابية كان لها مخبر سرى داخل الوفد الأمريكى المفاوض».



إن الولايات المتحدة تعتقد أنها تتعقب وتدين مجرمى الحرب والإرهابيين الدوليين دون أن يخطر فى بالها أنها بهذا التكتم تحمى واحداً من أكبر هؤلاء... وهو هنرى كيسنجر

وفى ١٢ أكتوبر اتصل كيسنجر برجال نيكسون وقال إن وقف الغارات على فيتنام الشمالية سوف يعلن فى ٢٣ أكتوبر. وهذا ما كان مفروضًا أن يحدث لولا أنه كلما اقترب الفيتناميون الشماليون من الاتفاق يتقدم وفد فيتنام الجنوبية بمطالب جديدة.

والمعروف اليوم السبب فى ذلك، ففى شهر يوليو تم بهدوء فى نيويورك اجتماع بين نيكسون وسفير فيتنام الجنوبية فى واشنطن وكان مدبر هذا الاجتماع هو «السيدة التنين». وفى عام ١٩٩٩ استطاع الصحفى البريطانى أنتونى سامرز الحصول على ملف التحقيقات الفيدرالية الخاص بحملة نيكسون الانتخابية وأن ينشره فى كتابه «غطرسة القوة: العالم السرى لريتشارد نيكسون» كما استطاع أن يجرى حديثًا مع «السيدة التنين». وهذان الإنجازان أمداه بكل أطراف مؤامرة نيكسون - كيسنجر لإفشال مفاوضات باريس انتظارًا لانتصار نيكسون فى معركة الرئاسة.

إن القصة بحذافيرها - مع اختلافات طفيفة - موجودة فى كتاب هولدمان وفى مذكرات كليفورد، وهى معادة جزئيًا فى كتاب جونسون عن سيرة حياته بعنوان «الفرصة المواتية» وفى مذكرات مطولة لوليم بوندى أحد مهندسى الحرب الفيتنامية.

وبالطبع كافأ نيكسون كيسنجر بتعيينه مستشارًا للأمن القومى فى إدارته ثم وزيرًا للخارجية بعد ذلك.

فيما يلى سوف يرد كثيرًا ذكر لجنة الأربعين، وهى لجنة شبه سرية رأسها كيسنجر فى الفترة ١٩٦٩-١٩٧٦، وكانت مسئولة عن المراجعة النهائية لكل نشاطات أمريكا السرية خارج البلاد (وربما داخلها).

ولقد نشأت هذه اللجنة أصلاً فى عهد أيزنهاور لمراقبة أعمال المخابرات، وكان لها أسماء مختلفة فى الإدارات المختلفة حتى سميت بلجنة الأربعين فى عهد نيكسون. وقد اعترف وليم كولبى خلال استجوابه فى الكونجرس أن هنرى كيسنجر هو الذى يرأس هذه اللجنة باعتباره مساعدًا للرئيس نيكسون فى شئون الأمن القومى. كما اعترف فورد بعد ذلك بأن مهمة هذه اللجنة «هى مراجعة كل عملية سرية تتولاها الحكومة»، ومن أعضائها رئيس أركان القوات المسلحة ونائب وزير الدفاع ووكيل وزارة الخارجية للشئون السياسية بالإضافة إلى مدير المخابرات المركزية. وقد أضاف إليها الرئيس نيكسون وزير العدل جون ميتشل.

وعند تولى نيكسون الرئاسة فى شتاء ١٩٦٨ كانت مهمة كيسنجر إثبات أنه «ملكى أكثر من الملك» فى نقطتين أساسيتين... أولاً: البحث عن تبرير لأعمال انتقامية ضد فيتنام المدمرة أصلاً، وثانيًا: إقامة حائط سد بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية.

ومع أن مفاوضات باريس كانت قد وصلت فى عهد جونسون إلى الاتفاق على وقف الغارات على فيتنام الشمالية مقابل سحب جيشها من المقاطعات الشمالية لفيتنام الجنوبية إلا أن الحرب عادت بكل عنفها فى عهد نيكسون، وخصوصًا الغارات العنيفة على فيتنام الشمالية. ولم تكن هناك دوافع عسكرية لهذا العمل وإنما كان المقصود إبراز صلابة الإدارة أمام متطرفى أعضاء الكونجرس ولطمأنة حكام فيتنام الجنوبية.

إن هذه الغارات العنيفة على فيتنام الشمالية وكمبوديا هى جريمة حرب - وفق أى مقياس - دامت سبع سنوات، فعندما وقع الانهيار الأمريكى الذى لم يمكن وقفه فى أبريل - مايو ١٩٧٥ كان الثمن أبهظ ألف مرة عما لو كانت الحرب أوقفت عام ١٩٦٨.

وإلى القارئ مثال أخير على غباء كيسنجر واستهانته بأوضاع الجنود... فى ١٢ مايو ١٩٧٥ أوقفت السفن الحربية الكمبودية باخرة تجارية أمريكية. فإذا بكيسنجر يقنع فورد بإرسال حملة من المارينز والقوات الجوية لإنقاذ السفينة، ومن بين ١١٨ مارينز أرسلوا قتل ١٨ وجرح خمسون. وكان هذا العمل عبثًا لأن السفينة كان قد أفرج عنها قبل الغارة. وأثبتت تحقيقات الكونجرس بعد ذلك أنه كان فى استطاعة كيسنجر وقف هذه المذبحة لو أنه كان قد استمع لراديو كمبوديا الذى كان قد أذاع نبأ الإفراج عن السفينة قبل بدء الغارة.

عينات من جرائم الحرب التى اقترفها كيسنجر

فى يناير ١٩٧١ قدّم جنرال تيلفورد تيلور - الذى كان المدعى العمومى فى محاكمات نورمبرج - شهادته عن حرب فيتنام قائلاً: إنه لو طبقت المعايير التى استخدمت فى محاكمات نورمبرج بأمانة على الساسة الأمريكيين الذى خططوا



> بعد سنين طويلة وأبحاث واسعة قام بها لورانس ليفز شولتز الأستاذ بجامعة ييل Yale يتبين أن « نظام الطريقين » ـ طريق السفير وطريق المخابرات ـ كان متبعاً فى بنجلاديش، حيث تقوم مجموعة مخابرات من السفارة ـ من وراء ظهر السفير ودون علمه ـ وبتعليمات من واشنطن بكل أعمالها القذرة تماماً كما حدث فى شيلى

لحرب فيتنام فإن الاحتمال الراجح أن يكون مصيرهم هو نفس مصير المستشار العسكرى للامبراطور اليابانى خلال الحرب العالمية الثانية ياما شيتا. وفى كتابه (نورمبرج وفيتنام) يناقش الجنرال تيلور الاعتراض الذى يمكن أن يثار ضد وجهة النظر السابقة بأن المسئولين الأمريكيين لم تكن لديهم معلومات كافية عن حقيقة الأوضاع فى فيتنام. وهو يرفض هذا الرأى قائلاً إنه ربما كان فى وسع هؤلاء الساسة ادعاء هذا حتى منتصف الستينيات. ولكن بعد ذلك يستحيل قبول هذا الادعاء خصوصًا بعد مذبحة ماى لى My Lai التى أحيط بها كبار الضباط علمًا من مرؤوسيهم.

لقد كتب الجنرال تايلور كتابه هذا ولم تكن كل الحقائق عن المذابح الأمريكية فى فيتنام وكمبوديا معروفة. ولكنه كان يرى ضرورة الالتزام بالمعايير التى أرسيت فى محاكمات نورمبرج. ومن بين عدد كبير من الأحداث التى تدين كيسنجر مباشرة أختار بعضها كما أوردها كيفن باكلى مدير مكتب نيوزويك فى سايجون الذى كان يتابع مهمة «التهدئة» التى بدأ تنفيذها فى الشهور الأولى من عام ١٩٦٩ عندما كان لكيسنجر سلطة كبيرة فى إدارة الحرب. وكان الهدف الحقيقى لسياسة «التهدئة» هذه Pacification هو تاديب مقاطعة كين هو Kien Hoeu باعتبارها المسئولة عن الاضطرابات فى دلتا الميكونج وانتزاع ألوف الفلاحين من السيطرة السياسية لجبهة التحرر الوطنى الفيتنامى. ويقول باكلى فى ١٩ يونيو ١٩٧٢ «كل الدلائل التى جمعتها تشير إلى نتيجة واحدة واضحة وهى أن أعدادًا هائلة من المدنيين غير المحاربين قد قتلتهم النيران الأمريكية التى قصد بها «تهدئة» هذه المقاطعة. وربما يصل عدد القتلى إلى ٥٠٠٠ مدنى. وبالطبع تعتبر مذبحة ماى لى شيئًا هينًا بالنسبة لهذه المذبحة».

ثم نأتى إلى جرائم كيسنجر فى ضرب كمبوديا ولاوس باعتبار أنهما يخفيان خطوط إمداد فيتنام الشمالية. ضربهما بطائرات ب ـ ٥٢. وهى طائرات تطير على ارتفاع شاهق بحيث لا يراها أحد على الأرض. وهى تحمل أطنانًا ضخمة من القنابل. وهى طائرات لا تعطى أى إنذار بقدومها. ولعلوها الشاهق غير قادرة على إصابة أى هدف بدقة.

ولقد أدعى كيسنجر كذباً أمام لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس أن المناطق التى اختيرت للضرب فى كمبوديا غيرماهولة بالسكان بينما كانت مذكرة أعدتها رئاسة الأركان تحصى عشرات الألوف من القتلى الكمبوديين. ولاشك أن إدارة نيكسون تتحمل المسئولية النهائية لكل ما حدث فى فيتنام بدءاً من ١٩٦٨. وكانت هذه الحقيقة توشك أن تتضمن فى قرار محاكمة نيكسون أمام الكونجرس بعد فضيحة ووترجيت.

أما الحقائق الخاصة بكيسنجر فى هذا الموضوع فترد فى شهادة كولونيل سيتون Sitton الذى قال إنه بدأ يلاحظ منذ أواخر ١٩٦٩ أن كيسنجر يفرض رأيه على العسكريين فى اختيار الأماكن التى تضرب فى كمبوديا ولاوس. ولذلك فمن المستحيل أن يدّعى أنه لم يكن يعلم بنتائج ضرب هذين القطرين.

بل يتضح من مذكرات كيسنجر نفسه أن وزير الخارجية روجرز ووزير الدفاع ميلفن ليرد كانا معارضين لعملية ضرب كمبوديا، وأن اثنين من كبار مساعديه قد استقالا احتجاجاً على قرار ضرب كمبوديا، كما أن أكثر من مائتين من موظفى وزارة الخارجية وقّعوا على مذكرة احتجاج موجهة إلى وزير الخارجية وليم روجرز.

ووفقاً لإحصاءات البنتاجون فإن عدد الإصابات ما بين مارس ١٩٦٨ ومارس ١٩٧٢ كان كما يلى:

أمريكيون ٣١٢٠٥، فيتناميون جنوبيون نظاميون ٨٦١٠١ «أعداء» ٤٧٥٦٠٩. وقد قررت لجنة فرعية من الكونجرس أنه خلال السنوات الأربع ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ وصل عدد القتلى أو الجرحى من المدنيين إلى ٣ ملايين.

بنجلاديش وقتل مجيب الرحمن،

فى ديسمبر ١٩٧٠ سمح النظام العسكرى فى باكستان بإجراء انتخابات حرة لأول مرة. وقد اكتسح زعيم رابطة عوامى الشيخ مجيب الرحمن هذه الانتخابات وحصل على أغلبية كبيرة فى البنغال (شرق باكستان) إذ حصل على ١٦٧ مقعداً من ١٦٩ مقعدًا فى البرلمان. وكان من المفروض أن يجتمع البرلمان فى ٣١ مارس سنة ١٩٧١. ولكن فى أول مارس قام الجنرال يحيى خان قائد النظام العسكرى فى باكستان بتأجيل انعقاد البرلمان، وأدى هذا إلى احتجاجات جماهيرية واسعة وحركة عصيان مدنى فى البنغال.

وفى ٢٥ مارس وجه الجيش الباكستانى ضربته إلى عاصمة البنغال (داكا) وقبض على مجيب الرحمن ونُقل عنوة إلى باكستان الغربية، كما قام الجيش بعملية إبادة لأنصار مجيب الرحمن وطرد الصحافة الأجنبية من داكا.

ولقد أرسل قنصل أمريكا فى داكا رسالة مطولة إلى هنرى كيسنجر مستشار الأمن القومى تتضمن الجرائم التى ارتكبها الجيش الباكستانى فى داكا، ومن بينها إحراق بيوت الطالبات فى المدينة وإطلاق النار على أى طالبة حاولت الهرب، ومن بينها أيضاً قيام الجيش بأعمال القتل والاغتصاب فى المدينة بحيث قدر عدد القتلى فى الأيام الثلاثة الأولى بعشرة آلاف. وقد وصل عدد القتلى فى نهاية العمليات إلى نحو نصف المليون، وبدأت حركة لاجئين واسعة النطاق تعبر الحدود إلى الهند.

ولقد عبّر القنصل الأمريكى فى داكا والسفير الأمريكى فى إسلام أباد عن استيائهما من صمت وزارة الخارجية الأمريكية وطالباها بإدانة وحشية الجيش الباكستانى، وكان رد فعل كيسنجر ونيكسون غريبا، فقد استدعيا القنصل الأمريكى فى داكا إلى واشنطن وقال كيسنجر لنيكسون إن السفير الأمريكى منحاز إلى الهند. وفى أواخر أبريل سنة ١٩٧١ أرسل كيسنجر رسالة ود إلى الجنرال يحيى خان يشكره على «رقته ومهارته».

والآن نحن نعلم لماذا كان كل هذا الود ليحيى خان. ففى أبريل سنة ١٩٧١ أرسلت بكين دعوة لفريق بنج بونج أمريكى لمباراة فى بكين. وعن طريق السفير الباكستانى فى بكين أرسلت الصين رسالة تدعو فيها نيكسون لإرسال مبعوث إلى بكين.

وبالفعل كان هذا المبعوث هو كيسنجر، وبعد عودته من بكين بدأ يتحدث كالماويين عن مؤامرة سوفيتية هندية للتدخل العسكرى وضم البنغال إلى الهند. وفى هذا الجو أرسل كيسنجر تعليمات لقائد حاملة الطائرات Enterprise إنتربريز أن تبحر من ساحل فيتنام إلى ساحل البنغال. وقد عبر قائد الحاملة لرؤسائه عن استيائه من هذه التعليمات. وبلغ الأمر أن فقد كيسنجر أعصابه فى اجتماع «مجموعة المراجعة العليا» Senior Review Group وقال «الرئيس يقال دائما أننا ننحاز لباكستان، ولكن كل اقتراح يقدم لى هنا يمضى فى الاتجاه المعاكس. أحياناً أعتقد أننى فى مجلس مجنون».

والحقيقة أن نيكسون كان يكره حكومة الهند ويتعاطف مع باكستان. وكثير من حوارييه بما فى ذلك كيسنجر كانوا يدركون كراهية نيكسون لأنديرا غاندى وكان يشير إليها دائماً بالقول «تلك المرأة الداعرة».

ولقد أدى تدخل الهند عسكرياً إلى إنقاذ البنغال واستقلالها كدولة «بنجلاديش» وسخرت الصحافة الأمريكية من سياسة كيسنجر وفشلها البالغ فى هذا الموضوع مما أثار سخط كيسنجر على بنجلاديش وقائدها مجيب الرحمن.

وبمجرد تعيينه وزيراً للخارجية فى ١٩٧٣ قام كيسنجر بمعاقبة جميع موظفى الخارجية الذين كانوا قد احتجوا على صمت واشنطن إزاء مذابح الجيش الباكستانى للشعب البنغالى. وفى خريف سنة ١٩٧٤ أدار ظهره لمجيب الرحمن فى أول زيارة له لواشنطن بوصفه رئيسا لدولة بنجلاديش ولم يحضر الاجتماع الذى دام ربع الساعة بين فورد ومجيب الرحمن الذى جاء يطلب معونة اقتصادية للدولة الحديثة.

وبعد أسابيع من عودته إلى داكا ـ نحن نعلم هذا الآن ـ تشكلت مجموعة فى السفارة الأمريكية فى داكا بدأت الاتصال سرًا بمجموعة من ضباط الجيش كانوا يخططون لإزاحة مجيب الرحمن.

وفى ١٤ أغسطس سنة ١٩٧٥ قتل مجيب الرحمن وأربعون من أسرته كما قتل فى السجون بعد ذلك عدد من أعوانه وأنصاره.

والآن وبعد سنين طويلة وأبحاث واسعة قام بها لورانس ليفز شولتز الأستاذ بجامعة ييل Yale يتبين أن «نظام الطريقين» ـ طريق السفير وطريق المخابرات ـ كان متبعاً فى بنجلاديش، حيث تقوم مجموعة مخابرات من السفارة ـ من وراء ظهر السفير ودون علمه ـ وبتعليمات من واشنطن بكل أعمالها القذرة تماماً كما حدث فى شيلى.

وفى مكان مجيب الرحمن وضع زعيم الجناح اليمينى فى رابطة عوامى ـ ويدعى مشتاق ـ الذى ادعى كذبًا أنه لم يلتق قط مع الضابطين المدبرين للانقلاب... الرائد فاروق والرائد رشيد، كما ادعت واشنطن أنها فوجئت بالانقلاب.

لكن فى حوار أجراه الرائد رشيد مع صحفى أمريكى بعد عام من الانقلاب اعترف رشيد أنه قابل مشتاق ستة أشهر قبل الانقلاب وأن السفير الأمريكى كان على علم بأن هناك إعدادا للانقلاب على مجيب الرحمن وأنه أعطى تعليماته لموظفى السفارة بقطع علاقتهم بالضباط. ثم اشتد غضبه عندما وقع الانقلاب واكتشف أن الذين قبضوا على السلطة من الضباط هم الذين كان يطلب من موظفيه قطع علاقتهم بهم.

لقد اعترف فيليب شيرى عندما استجوبه ليفز شولتز بوجود علاقة بين المخابرات الأمريكية والضباط الذين قاموا بالانقلاب وبين قائد الجناح اليمينى مشتاق.

ولقد قامت مؤسسة كارينجى للسلام الدولى بإجراء أبحاث عن هذا الموضوع. ووافق ١٥٠ موظفا فى وزارة الخارجية على أن يجيبوا عن أسئلة توجه إليهم. ولقد استمرت هذه الدراسة تسعة أشهر. ولم تنشر على الملأ وإن سمح لأستاذ جامعة ييل بالاطلاع عليها وهى تثبت نتيجة واحدة، وهى أن الانقلاب على مجيب الرحمن وقتله تم

بمعرفة الولايات المتحدة والقيادة الباكستانية.

شـــــيلـــــى

فى تعبير مشهور لكيسنجر عن احتقاره للديمقراطية قال يومًا: إنه لا يرى سببًا للسماح لقطر أن يتبنى الماركسية لمجرد أن شعبه لا يقدر المسئولية. والقطر المعنى هنا هو شيلى الذى كان وقت هذا الكلام من أكثر شعوب أمريكا الجنوبية تمتعًا بالديمقراطية التعددية.

فى سبتمبر ١٩٧٠ أجريت الانتخابات العامة فى شيلى وأصبح من الواضح أن دكتور سلفادور أليندى هو رئيس الجمهورية القادم. لكن اسم أليندى كان يثير الفزع لدى اليمين فى شيلى ولدى بعض الشركات الأمريكية التى ترتبط بمصالح فى شيلى مثل شركة I.T.T وشركة البيبسى كولا وبنك تشيز مانهاتن.

ووصل هذا الفزع إلى الرئيس نيكسون عن طريق دونالد كندل رئيس شركة البيبسى كولا وخلال عشرة أيام عقدت فى واشنطن اجتماعات عليا حددت مصير الديمقراطية فى شيلى. فبعد مناقشات مع أصحاب المصالح الأمريكية فى شيلى ومع مدير المخابرات المركزية ذهب كيسنجر مع مدير المخابرات ريتشارد هولمز إلى البيت الأبيض وعقد اجتماعًا برئاسة نيكسون الذى أوضح فيه ما يريده: «لا تدخل من جانب السفارة، عشرة ملايين دولار جاهزة للعمل.. وأكثر إن دعت الضرورة. أريد استخدام أفضل رجال لدينا.. فلتجعلوا الاقتصاد فى شيلى يصرخ من الألم.. مطلوب خطة عاجلة خلال ٤٨ ساعة».

وتشكلت مجموعة فى المخابرات هدفها إجراء سياسة ذات طريقين.. طريق للدبلوماسية وطريق آخر سرى غير معروف لا للخارجية ولا للسفير الأمريكى فى شيلى، وهو طريق زعزعة الاستقرار والخطف والاغتيال بهدف إثارة انقلاب عسكرى.

وكانت هناك عقبات فى المدى القصير وأخرى فى المدى الطويل، فالعقبة طويلة المدى أن هناك تقاليد عسكرية بامتناع الجيش فى شيلى عن التدخل فى السياسة. أما العقبة قصيرة المدى فتمثلت فى شخص واحد، هو الجنرال رينيه شنيدر رئيس الأركان الذى يعارض بشدة أى تدخل عسكرى فى العملية الانتخابية. وعلى هذا تقرر فى اجتماع بواشنطن فى ١٨ سبتمبر ١٩٧٠ضرورة التخلص من الجنرال شنيدر.

والخطة كانت تتمثل فى خطف شنيدر بطريقة تبدو أنها من عمل اليسار وأنصار أليندى بأمل أن يؤدى هذا العمل إلى خوف وتشويش يجعل الكونجرس فى شيلى لا يعطى الرئاسة إلى أليندى. وكانت هناك مجموعة من الضباط شبه فاشية تدعى «أرض الآباء والحرية» كانت على استعداد للقيام بعملية خطف رئيس الأركان. وكان السفير الأمريكى فى شيلى يحذر موظفيه من أى اتصال بهذه المجموعة، ولكن السفير كان يجهل أن الملحق العسكرى فى سفارته على اتصال بهذه المجموعة بالذات، وأنه زود بعض أعضائها بالأسلحة.

وعندما تأكد وصول أليندى إلى كرسى الرئاسة حاولت هذه المجموعة خطف شنيدر أكثر من مرة وفشلت، وفى النهاية قامت باغتياله.

وقد جرت محاولة فى لجنة المخابرات لتبرئة أمريكا من تهمة اغتيال شنيدر بالقول إن المدافع الرشاشة التى أعطتها المخابرات لبعض الضباط فى شيلى لم تستخدم فى قتل شنيدر وإنما استخدمت مدافع أخرى.

ثم وقع الانقلاب على أليندى بينما كان كيسنجر يقف أمام الكونجرس استعدادًا لتوليه وزارة الخارجية، وقد كذب عندما قال فى الكونجرس إن حكومة واشنطن ليس لها دور فى هذا الانقلاب... فعل هذا بينما كانت الرسائل تصله من شيلى عن عدد القتلى. ثم قتل وزير خارجية أليندى (أور لاندو) فى واشنطن بعد ذلك.

ولقد أثبتت لجنة «الحقيقة والمصالحة» فى الكونجرس الأمريكى بعد ذلك كل وقائع التعذيب والاغتيالات التى دبرتها المخابرات المركزية فى شيلى. وكل هذه الجرائم تمت فى عهد كيسنجر، ولذا فمن المستحيل أن يدعى أنه لم يكن على علم بها. أما وزير خارجية شيلى فى عهد أليندى الذى قتل فى واشنطن فقد كان ذلك من تدبير بينوشيه وقام بالتنفيذ جنرال مانويل كونتريرا (الذى هو فى السجن الآن).

قبرص والمطران مكاريوس

يدعى كيسنجر فى مذكراته أنه لم يستطع أن يعطى انتباهًا كافيًا لمشاكل اليونان - قبرص - تركيا خلال سنوات حكم نيكسون، وذلك بسبب مشاكل حادثة ووترجيت ومشاكل نيكسون الأخرى فى البيت الأبيض.

والحقيقة أن هذا الكلام فارغ، فبعد تعيينه وزيرًا للخارجية حرص على الاحتفاظ بمنصب مستشار الأمن القومى فى نفس الوقت حتى لقبه أحد مساعديه بـ «القائم بأعمال رئيس الدولة للأمن القومى».

والحقيقة أن كيسنجر كان يكره رئيس قبرص مكاريوس ويقول عنه «إنه السبب فى معظم مشاكل قبرص»، مع أن مكاريوس كان قائدًا منتخبًا فى جمهورية بلا سلاح، وكانت هذه الجمهورية عضوًا فى الاتحاد الأوروبى والكومنولث والأمم المتحدة أيضًا.

ولقد واجه حكم مكاريوس فى قبرص التحدى وتهديد استقلال الجزيرة من جانب الدكتاتورية العسكرية التى كانت تحكم أثينا آنذاك، ومن جانب حكومة شبه عسكرية فى تركيا، وجرت محاولات لاغتيال مكاريوس من متطرفين يونانيين وقبارصة.

وإذا كان مكاريوس هو سبب معظم مشاكل قبرص كما يقول كيسنجر فإن الحل هو إبعاده عن السلطة، وإذا أمكن إثبات أنه كانت هناك خطة لعزله وأن كيسنجر كان على علم مسبق بها فإن هذا يكذّب دعاوى كيسنجر طبعًا.

والحقيقة أنه يتضح من سجلات كيسنجر ومذكراته ومن التحقيقات الرسمية التى جاءت بعد ذلك أنه كان على علم بمخطط لعزل مكاريوس وقتله من جانب السلطة العسكرية الحاكمة فى أثينا. وكان على علم بأنه لو تحقق هذا فإن الغزو التركى للجزيرة واقع لا محالة.

وقد أقرت اللجنة الأوروبية عن حقوق الإنسان تقريرًا أعده ثمانية عشر محققًا بعد بحث سنة كاملة عن نتائج الغزو التركى لقبرص، وبمقتضى هذا التقرير فقد قام الجيش التركى بعمليات اغتيال للمدنيين وإعدام مسجونين وتعذيب معتقلين.

وفى إطار سياسة كيسنجر التى كانت تقوم على دعم الدكتاتورية العسكرية فى أثينا وحكم الجنرالات ترد قضية الصحفى اليونانى إلياس ديمترا كوبولس المناضل من أجل الديمقراطية، والذى حاول مساعدة النضال الديمقراطى اليونانى من خلال إقامته فى واشنطن وتوثيق علاقته بعدد من أعضاء الكونجرس الأمريكى الديمقراطيين من أمثال إدوارد كيندى.

ولقد وضعت الطغمة الحاكمة فى أثينا أكثر من محاولة لخطفه، وتبين فيما بعد أن الدكتاتور جورج بابادوبلس اتصل بالبعثة اليونانية فى واشنطن لتحقيق هذا الهدف. وبعد سقوط الطغمة الحاكمة اليونانية تبين أنه ورد فى أحد الملفات السرية برقية سرية جاءت من السفارة اليونانية ونصها:

«نستطيع أن نعتمد على تعاون كل وكالات الحكومة الأمريكية فى تنفيذ العملية، لكننا نعتقد أن رد فعل الكونجرس الأمريكى سيكون عنيفًا».

وفى عام ١٩٧٦ أراد الصحفى اليونانى إلياس أن يعرف ما هو نوع «التعاون» الذى أبدته الأجهزة السرية الأمريكية، واستطاع عن طريق رفع قضية مستفيدًا من قانون حرية المعلومات أن يعرف لأول مرة أن كيسنجر كان على علم بمخطط خطف الصحفى اليونانى، وأنه كان يكن كراهية خاصة لهذا الصحفى اليونانى لأنه قام بفضح حملة نيكسون الانتخابية التى استلمت معونة مالية من طغمة أثينا الحاكمة بلغت أكثر من نصف مليون دولار، وأن المبلغ سلم إلى مدير الحملة الانتخابية جون ميتشل من يد يونانى يدعى توماس باباس.

يبقى ذكر أن كيسنجر بعد ترك مناصبه الرسمية أقام شركة استشارات خاصة تدعى «كيسنجر وشركاه» مهمتها تسهيل الاتصالات بين الشركات الدولية العملاقة وبين الحكومات الأجنبية. ومع أن قائمة هذه الشركات غير معلنة إلا أن من المعروف أن من بينها أمريكان إكسبريس، آى. ت. ت I.T.T، ولوكهيد وشركة هاينز وبنك الميرلاند.. إلخ.

وشريكاه الأصليان فى تلك الشركة هما الجنرال برين سكورونت ولورانس إيجلبرج، والاثنان قد عملا معه طويلاً فى ميدان السياسة الخارجية وأجهزة الأمن القومى.

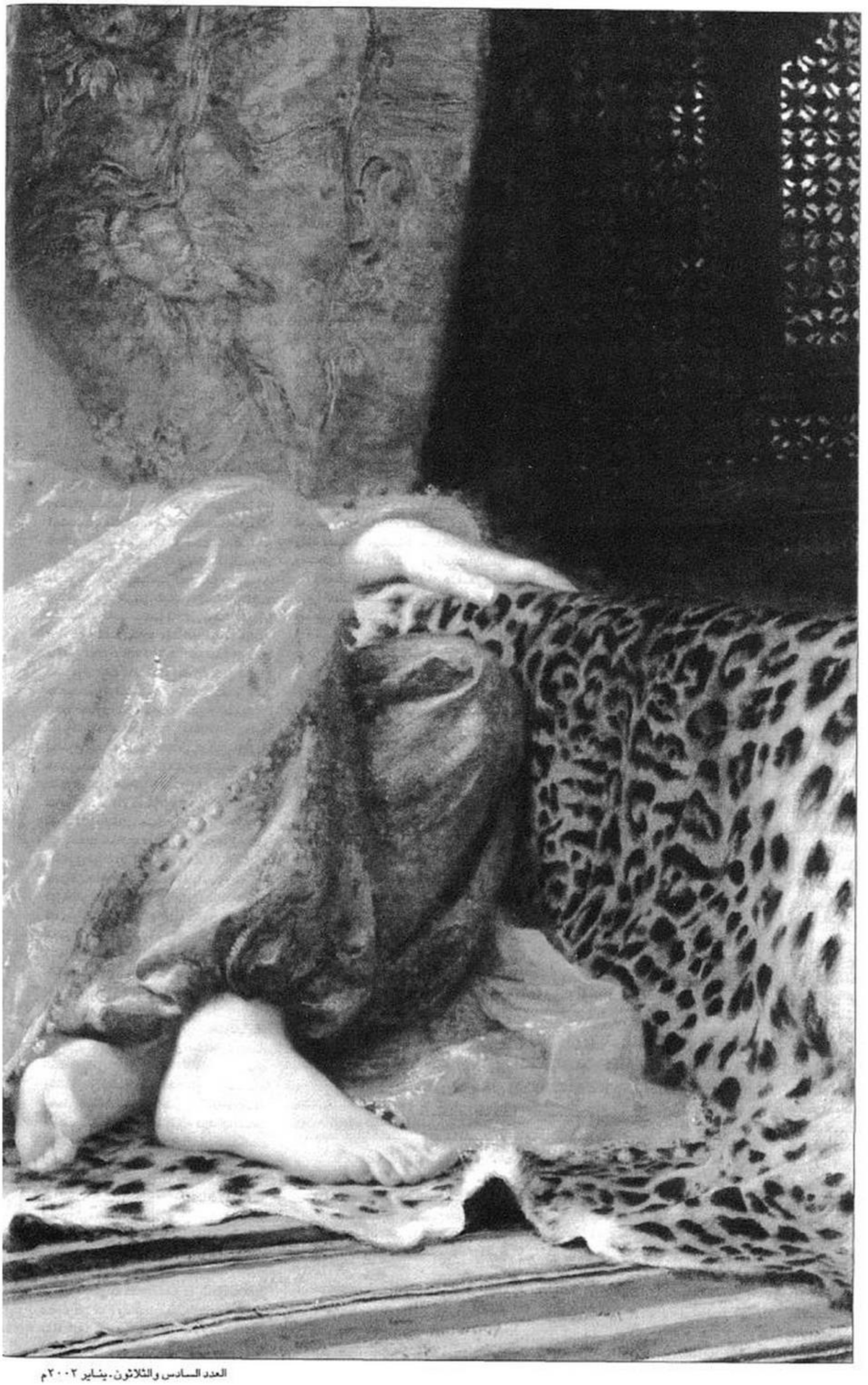
ولقد ساعدت تلك الشركة شركات أمريكية عديدة فى الدخول إلى السوق الصينية مثل شركة هاينز، كما اتضح أن ثمة علاقة بين شركة كيسنجر ونظام صدام حسين فى بغداد عندما كان النظام العراقى مرضيًا عنه فى واشنطن لحربه ضد إيران، وقد اتضح أن أحد شركاء كيسنجر آلان ستاجا كان هو همزة الوصل مع بغداد فى ذلك الوقت، كما مثلت شركة كيسنجر أحد البنوك الإيطالية التى تبين أنها تمنح بغداد قروضًا غير قانونية.

وفى ١٩٨٩ حقق كيسنجر ارتباطًا مع شركة فريبورت ماكموران Free Port Mac-moran وهى شركة دولية تعمل فى ميدان النفط والغاز ومقرها نيوأورليانز، وكسب من هذا الارتباط ألوف الدولارات خصوصًا بعد تعيينه عضوًا فى مجلس إدارتها.

وفى مارس ١٩٩٩ زار كيسنجر إندونيسيا وأحيا علاقاته القديمة هناك وأبرم عقدًا للبحث عن الذهب والنحاس فى مناجمها مدته ثلاثون عامًا.



فى تعبير مشهور لكيسنجر
عن احتقاره للديمقراطية قال يومًا:
إنه لا يرى سببًا للسماح لقطر أن يتبنى الماركسية
لمجرد أن شعبه لا يقدر المسئولية. والقطر المعنى هنا
هو شيلى الذى كان وقت هذا الكلام من أكثر
شعوب أمريكا الجنوبية تمتعًا
بالديمقراطية التعددية



حريم الشرق.. وحريم الغرب!

تصورات الرحّالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط

جودي مابرو



مع أن كلمة «حريم» (من «حرام») تعنى حجرات البيت حيث يقيم النساء والأطفال. والتى يُقْصَى عنها الرجال ما عدا الزوج وبعض الأقرباء المقرّبين. أو تعني نساء البيت، فإن الطبعة الأولى من قاموس روجيه (Roget's Thesaurus) عام ١٨٥٢ أوردت كلمة «حريم» تحت كلمة (impurity) (دَنَس)، جنبًا إلى جنب مع كلمات مرادفة للمبغى.



■■ شكّلت النساء المسلمات مؤخراً موضوع نقاش كثيف في الصحافة الغربية، خاصة حين طالبت قلّة قليلة من الفتيات في فرنسا وانجلترا بحقّهن في ارتداء غطاء الرأس في المدرسة. ولقد عكس السجال الطويل والمرير الذي دار في فرنسا والآخر المقتضب الذي دار في انجلترا تلك النظرة الغربية المتاصلة التي ترى أن السبب الأوحد لاضطهاد النساء المسلمات هو دينهن. فلطالما «عرفت» أوروبا أن النساء المسلمات يعانين من الاضطهاد ما لا تعانيه غيرهن من النساء، فهذا ما وصفته كتب الرحلات الغربية والأدب الغربي وما صوّره الفن الغربي على مر فترة مديدة من الزمن. لذا فقد أخذ الأمر على أنه واقعة لاشك فيها، ويمكن للجميع أن يروها متجلية في الحجاب وفي مؤسسة الحريم. هاتان الظاهرتان لاتزالان تثيران اليوم ردود فعل قوية شأنهما في أي وقت مضى.

والحجاب، الذي يطلقه الغرب على كلّ وشاح يُغطَّى به رأس المرأة، هو تعبير يمكن أن يضلّل ويسوق إلى تعميمات زائفة مغلوطة. لذا سرعان ما طفتْ على السطح مجموعة من الأفكار عن الإسلام والنساء المسلمات. ومن الأمثلة على ذلك أنّ مراسلاً لـ«الجارديان» قام بتحقيق عن حالة تلميذتين في أولترنجشام ارتدتا غطاء الرأس، فطلب مقابلة والدهما لاقتناعه أن الإسلام دين يهيمن فيه الرجال وأنّ النساء المسلمات كائنات سلبية لا حول لها ولا قوة. غير أن إحدى الفتاتين قالت له إن والدها مشغول وعرضت عليه أن تساعده هي نفسها. ويقول هذا المراسل: «ومن ثم فقد ساعدتني فاطمة طوال ٤٠ دقيقة كاملة. ومع أنها لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، فإن طلاقتها وثقتها بنفسها لو وجدتا لدى شخص في ضعف سنها لكانتا لافتتين للانتباه: فهي سيدة نفسها وتعرف ما تريد» (الجارديان، ١٩ يناير ١٩٩٠).

وفي مايو ١٩٨٩ تضمن برنامج تليفزيوني عن أفغانستان مقابلة أجراها رجل أيضاً، مع بعض الطالبات في جامعة كابول. وحين أعربت الفتيات اللاتي يعشن في مدينة أنهكتها الحروب عن رغبتهن الجامحة في السلام وعن استعدادهن لقبول التسويات إذا ما كانت ضرورية لتحقيقه، أصيب المحاور البريطاني بصدمة. فقد كان واثقاً من أن هؤلاء الصبايا اللاتي ترعرعن في فترة الحكم الشيوعي لابد أن يجدن مكانة النساء أكثر أهمية من السلام.. وحين طرح عليهن السؤال: «أأنتن مستعدات حقاً لارتداء الحجاب؟» أجبن جميعاً أنهن مستعدات، إذا ما كان لذلك أن يسهم في إحلال السلام في البلاد.

وخلال العقد الذي كرّسته الأمم المتحدة للمرأة، بين عامي ١٩٧٥ و١٩٨٥ راح النسويون في الغرب يلحّون إلحاحاً قصير النظر على مسائل مثل الختان أو الحجاب، ويشيرون للنساء في الشرق الأوسط وأفريقيا على أن هذه هي القضايا الرئيسة للنضال من أجل تحرر المرأة في بلدانهن. غير أنّ هؤلاء النسويين بدأوا يدركون مع نهاية ذلك العقد أن الأمور ليست بمثل هذه البساطة، وأن ليس من شأن امرأة غربية أن تقرر لامرأة من هذه المناطق ما هي القضايا الرئيسة، وأن نزع الحجاب أو أغلال الختان لن يعود على النساء فجأة باستقلالهن الاقتصادي، وبالطعام والسلام، مما ترى الكثيرات منهن أنها القضايا التي تجب معالجتها أولاً.

والحال أن أوروبا كانت طوال قرون قد سُحِرَت بالحجاب وبالحريم ونفرت منهما في آن واحد. فقد عمل هذان الرمزان، من جهة أولى، على الحيلولة بين المراقب الأوروبي ورؤية النساء أو الاتصال بهنّ مما أيقظ لديه مشاعر الإحباط والسلوك العدواني. أما من جهة ثانية، فقد وفر للرجال فرصة الجموح بالخيال والتلويح بتجارب غريبة وشهوانية مع «الجميلة المتحجبة» و«درة نساء الحريم». وذلك في الوقت الذي أبدت فيه المراقبات من النساء ما أبداه الرجال من التباس وعداء ومركزية أوروبية، وإن يكن لأسباب مختلفة عن أسباب الرجال.

ومما يجدر ذكره هنا أن الرحالة الغربيين، بتركيزهم على الحجاب والحريم، غالباً ما أخفقوا في فهم أوجه حياة النساء في الشرق الأوسط. فالحريم كما فُهِمَ في الغرب كان نادراً إلى أبعد الحدود وكان ليبدو «غريباً» كل الغرابة بالنسبة لغالبية نساء المنطقة اللواتي يعشن في مناطق ريفية، ويعانين من الفقر، وينهضن بقسط وافر من أعباء العمل الزراعي. وهو ما يصحّ أيضاً على المدن التي اضطرت فيها كثير من النساء إلى العمل بغية الإسهام في دخل العائلة. ومن ثم، فإن ما تعنيه كلمة «الحريم» هو ذلك الجزء المنعزل من البيت حيث لا يُسمَح للرجال الأغراب بالدخول. إلا أننا سنجد لاحقاً أنّ إيحاءات هذه الكلمة في الغرب قد جاءت مغايرة تماماً.

وإلى هذا، فقد أفضى ما افترضه الرحالة من أن النساء المحجبات هن بالضرورة أشد اضطهاداً وسلبية وجهلاً من السافرات إلى أقوال تنطوي على مبالغة وإفراط، مفادها أن نساء «المشرق» أشبه بالسجينات قياساً بما تتمتع به النساء في أوروبا من تحرر كامل. ولاشك بالطبع أن النساء في كلا المجتمعين كن يعانين من الاضطهاد بقدر يزيد أو ينقص، لكن ما فات الرحالة أن يدركوه هو ما تنطوي عليه أوضاع النساء في هذين المجتمعين من ظروف التشابه، وذلك لانطلاقهم من افتراضات مفادها أن أسلوب الحياة الغربي أرقى بالضرورة.

وما يثير اهتمامنا هنا هي تلك الكثرة من كتب الرحلات التي انهمرت من المطابع في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مما خلّفه كتّاب مغمورون تعوزهم الشهرة. فلقد أبدى الأوروبيون فضول لمعرفة «الشعوب الأخرى»، غير أن ذلك لم يكن إلا على مستوى يرسّخ اقتناعهم بتفوق ثقافتهم على غيرها من الثقافات. وكانت كتب الرحلات وعروض الفانوس السحري بالنسبة لهم بمثابة مكافئ للبرامج التليفزيونية الوثائقية في هذه الأيام.

والحال أنّ عدداً هائلاً من الكتب عن الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قد وجد طريقه إلى النشر لدرجة أن كثيرا من المؤلفين كانوا يستهلون كتبهم بمسوغات تبرر إصدارها، إذ كان ثمة قدر كبير من التكرار والانتحال في هذه الكتب. فتنوع الحياة في تلك المنطقة كان مجهولا، شأنه اليوم في أغلب الحالات، كما اتُّخذت مواقف تعميمية وشمولية، نظرًا لما أملاه الخوف مما هو مختلف والجهل به من مقاربة تركزت على المظاهر الخارجية وحدها. ولقد بلغ الافتتان بالشرق، وبالنساء فيه خاصة، درجة شعرت فيها الكتب المدرسية المعنية بعلم الآثار، على سبيل المثال، أنها مضطرة لأن تعلق على هذا الموضوع. أما الناشرون فكانوا يلجأون في بعض الأحيان إلى تضمين كتبهم رسومًا مثيرة للنساء بغية الترويج لها.

وفي حين كان يضطر أولئك الرحالة والسياح والآثاريون، والجغرافيون، وعلماء الطبيعة، والفنانون وسواهم إلى السفر إلى شمال أفريقيا أو الشرق الأوسط كيما يروا النساء المحجبات، فإن بمقدور معظم الغربيين اليوم أن يروا هؤلاء النساء في المدن الأوروبية. أما ردة فعلهم الشائعة حيال هذه الرؤية فيمثلها أفضل تمثيل ما كتبته مجلة «ماري كلير» في أيلول عام ١٩٨٨، حيث نشرت مقالاً يعزف على وتر افتراضات بالية ورثها عن الرحالة الغربيين بخصوص النساء الشرقيات:

> غالبًا ما تأتي خبرة الغربيين بالحجاب من رؤيتهم زمرًا من النساء القصيرات، البدينات، المتسربلات من الرأس إلى إخمص القدمين بنوع من الكتان الأسود الفاحم، وهن يطفن على مهل في متاجر المدن الكبرى. ومع أن هؤلاء النساء يبدون بمثابة الشيء الشاذ والغريب وهن يركبن ويترجلن من سيارات الليموزين التي تراها متوقفة بانتظارهن أمام محلات «الماربل آرش لماركس وسبنسر» في لندن، إلا أنهن قد يكنّ في بلادهن ساحرات الجمال، وغامضات، وفاتنات، ومدهشات مثل نجد الصحراء القاحلة في شبه الجزيرة العربية.

ومن الواضح بالنسبة لي أن ثمة خلطًا وتشوشًا فيما يقوله الكاتب عن النساء المحجبات. فهو يرى أنهن قد لا يكنّ على نحو ما صوّرهن الخيال الغربي من جمالٍ وإدهاش، ويرى أنهن قد يكنّ ساحراتِ الجمال، وغامضات، وفاتنات، ومدهشات، حين يكشفن أنفسهن، خاصة في بيئتهن الطبيعية حيث لا يبدون بمثابة الشيء الشاذ أو الغريب. وبعبارة أخرى، فإن هذا الكاتب لا يُعنى بهؤلاء النساء إلا بوصفهن موضوعات جنسية، وهو يزيد من غموض هذا الأمر ومن لغزيته لأن مثل هذه الموضوعات تبيع جيدًا. ولقد استوقفني وأنا أقرأ هذه المقالة، التي عُنْوِنَتْ «جزيرة العرب خلف الحجاب» وأُرْفِقَتْ بالصور المثيرة كما يليق بمجلة الأزياء، ما اشتملت عليه من ردود أفعال تشبه

من مقدمة كتاب:

Veiled Half-Truths: Western Travellers' Perception of Middle Eastern Women

(تصورات الرحالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط)

Judy Mabro

London:I.B.Tauris, 1999.

وعلى الرغم من تراكم أدلة كافية تثبت أن النساء المسلمات. بصرف النظر عن السراى وغيره من أنواع الحريم الكبيرة. كن حرات فى الخروج من البيت والعودة إليه ويمارسن سلطة واسعة فى داخله، إلا أن كثيرًا من الأوروبيين تشبثوا بالفكرة التى مفادها أن وضع هؤلاء النساء يبعث على الأسى وأن الحريم مكان للفجور

ما أبداه عدد كبير جدًا من سياح القرن التاسع عشر فى الجزائر، ومصر، وسواها من بلدان الشرق الأوسط، ممن أسهبوا فى الكتابة عن المظهر والجنس لدى النساء اللاتى صادفوهن أو حلموا بهنّ.

فإذا ما بدأنا بما فى الروايات والقصائد الرومانسية، وفى كتب الرحلات والقصص التوراتية، من أفكار عن النساء الشرقيات، نجد أنّ الارتكاس المباشر، الذى يتلو الإثارة الناجمة عن كون هؤلاء الكتّاب قد عادوا فى الزمن إلى أيام ألف ليلة وليلة أوالكتاب المقدس، هو ارتكاس عدوانى، غالبًا ما يتجلى فى سلوك بعيد كل البعد عن التحضر؛ كأن ينتهكوا حرمة البيوت، أو يسترقوا النظر إلى النساء المستلقيات على المصاطب أو المستحمات فى الأنهار، أو يسودوا صفحة ثقافات كاملة على أنها منحطة ومتفسخة، ليصل الأمر فى إحدى الحالات حد دفع المال لفتاة لقاء ختانها ورؤية هذه العملية من بدايتها إلى منتهاها. كما أننا نجد لدى هؤلاء الكتّاب شعورًا بالعداء تجاه البيوت المغلقة والمدن المغلقة والنساء المحجبات اللاتى كن يصدّنهم، هم المراقبون الغربيون، بل ويقلبن الأدوار بين المراقِب والمراقَب، ذلك أن النساء خلف النوافذ الحديدية والعيون خلف الحجاب لم تكن، بالطبع، عاجزة عن الرؤية. ولذا، وكما كتب مالك علولة عن المصورين الفرنسيين فى الجزائر، فإنّ:

> هؤلاء النسوة المحجبات لم يكنْ بالنسبة للمصوّر لغزًا محيّرًا وحسب، بل كنَّ أيضًا بمثابة هجوم صريح عليه. ولا بدّ من الاقتناع بأن النظرة الأنثوية المحدقة التى ترشح من خلال الحجاب هى نظرة من نوع خاص: فهى، إذْ تركزها الفتحة الضيقة المخصصة للعين، تشبه عين آلة التصوير، أو العدسة التى تجعل من كل شيء هدفًا لها.
>
> والمصوِّر لا يخطئ هذا. فهو يعرف جيدًا هذه النظرة التى تشبه نظرته حين تمتد من الحجرة المظلمة أو من محددة المنظر. ولذا يشعر المصور بأنه يصور ما إن يجد نفسه إزاء الحضور الطاغى لامرأة محجّبة؛ وإذْ يصبح هو نفسه موضوعًا للنظر، فإنه يفقد المبادرة، حيث تُسلَب منه نظرته المحدقة...
>
> وحيال هذا التحدى الهادئ الذى يكاد أن يكون طبيعيًا، فإن المصوِّر يردّ بعملية انتهاك مزدوج، حيث ينزع الحجاب عن المحجَّب ويقدم تمثيلاً صُورِيًا للمحرم. (الحريم الكولونيالى، ص١٤).

وينظر مالك علولة فى كتابه «الحريم الكولونيالى» فى عدّة آلاف من البطاقات البريدية التى أنتجها الفرنسيون فى الجزائر وقيل إنها تصوّر النساء والعادات والتقاليد هناك. ويجد علولة أنّ صورة النوافذ ذات القضبان تتكرر كثيرًا فى هذه البطاقات بحيث يتضح للناظر من غير شك أن نساء الجزائر يعشن فى سجون. أما صوَر النساء العاريات فتتكر على هؤلاء النساء أية طبيعة ما عدا الطبيعة الجنسية فى الوقت الذى تخلف فيه انطباعًا راسخًا بأن المصور قد نجح فى مهنته، إذْ رفع الحجاب عن المحجب، على الرغم من أن هذه الصور مأخوذة فى الأستوديوهات ولموديلات من النساء:

> وعلى هذا النحو فإن فكرة المرأة الحبيسة فى دارها لابد أن تفرض نفسها بطريقة «طبيعية» إلى أبعد حد... فإذا لم تكن رؤية النساء متاحة (أى إذا كنّ محجبات)، فذلك لأنهن سجينات وهذه الموازاة الدرامية بين التحجب والحبس ضرورية لبناء سيناريو متخيل يفضى إلى تصفية المجتمع الفعلى والواقعى، هذا المجتمع الذى يسبب الإحباط، واستبداله بوهم، وهم الحريم.

على هذا المنوال ذاته، كانت كتابة رحالة القرن التاسع عشر (من الرجال والنساء) مسكونةً بالحريم وبالحجاب. فصور السجون والأغلال فى كل مكان، مهما تكن بعيدة عن الموضوع. وكانت رؤية جدار أو مصراع نافذة، أو سماع رنين خلخال تثير لدى هؤلاء الرحالة أفكارًا عن نساء حبيسات وردود فعل عدوانية تجاه نظام الحياة المغلق فى «الشرق»، ذلك النظام الذى يختلف كثيرًا عن حياة الغرب الودودة والمنفتحة. ونظرًا لتعذر دخول هؤلاء الكتّاب إلى حياة العائلة - الأمر الذى يبدو متاحًا فى أوروبا أمام أى رحالة أجنبى - فقد انهمر من أقلامهم وابل من الأحكام الأخلاقية المتعلقة بتعدد الزوجات، والحريم، وفجور النساء (شهوا نيتهن المفرطة، وغياب المبادئ الأخلاقية لديهن، وميولهن السحاقية، وهلمجرا)، وموقفهن البائس من الأمومة، وغبائهن. ومثل هذه المواقف كانت نتاجًا للمركزية العنصرية وللإيمان بتفوق العنصر الأوروبى. فوصف الحياة فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية يروى عن النساء هناك ما يرويه عنهن فى الشرق الأوسط، وإن كان «اختباء» النساء فى هذه المنطقة الأخيرة قد أثار ردود فعل خاصة تركزت أكثر ما تركزت على الحريم. وحين نقرأ قوائم الاتهام بالفجور الذى يعممه هؤلاء الكتاب، ينبغى أن نتذكر أيضًا أن النساء اللواتى بدون لأولئك الرحالة متحررات أكثر من غيرهن ويستطعن الظهور عليهم أكثر من غيرهن، كُنّ من البغايا أو الراقصات.

ولقد أشار كثير من الأدب الغربى إلى الحريم كما لو أنه كان موجودًا فى كل مكان من الشرق الأوسط على النحو الذى صورته عليه اللوحات الاستشراقية والروايات عن السراى فى إستانبول. كما تم التعامل مع هذا التصوير للحريم كما لو أنه مكافئ لتلك المسرحيات التى تصور الحياة اليومية فى قصر باكنغهام واللوحات النصفية لسيدات العصر الفيكتورى مما يُعْتَبَر مطابقًا لحياة العائلة الإنجليزية وسلوكها وعاداتها. وكان السيّاح الأوروبيون «يعرفون»، حتى قبل أن يغادروا أوطانهم، أن «الحريم» عالم فاسق تُزْرَب فيه معًا نساءٌ جميلات، وشهوانيات، وتافهات، فيستلقين على أرائك طيلة النهار، يدخّن الغلايين، وينتظرن السيد أن يأتى ليختار إحداهن، فإن لم يقع عليهن الاختيار أطلقن العنان مع بعضهن بعضًا لأفعال لا يمكن وصفها (أو أنها توصف وصفًا مفصّلاً فى بعض الأحيان). لكن الواقع هو أن أغلبية نساء المنطقة كن يعشن فى القرى. وعلى الرغم من معرفة أن حياتهن كانت مختلفة عن الوصف السابق كل الاختلاف، وكثيرًا ما كُتِبَ عنها بإسهاب نظرًا لسهولة مراقبتها، إلا أن ذلك لم يَعُدْ عليهن (أو على نساء المدن الفقيرات اللواتى يعملن خارج المنزل) بأى قَدْرٍ من الاحترام الإضافى.



وذلك لأن الكتّاب كانوا يكتفون بواحدٍ من خيارين، فإما أن يطلقوا العنان لخيالاتهم الجامحة عن العذراوات عند النبع، مستذكرين رفقة التى يطلبها إبراهيم لابنه اسحق أو مريم العذراء، أو أن يصرفوا النظر عن هؤلاء النساء بوصفهن جاهلات ومنحطات، أشبه ببهائم الجر. وبذا تتواصل ضروب التعميم عن النساء الحبيسات.

وعلى الرغم من تراكم أدلة كافية فى القرن التاسع عشر تثبت أن النساء المسلمات - بصرف النظر عن السراى وغيره من أنواع الحريم الكبيرة - كُنّ حرّات فى الخروج من البيت والعودة إليه ويمارسن سلطة واسعة فى داخله، إلا أن كثيرًا من الأوروبيين تشبثوا بالفكرة التى مفادها أن وضع هؤلاء النساء يبعث على الأسى وأن الحريم مكان للفجور. ومع أن كلمة «حريم» (من «حرام») تعنى حجرات البيت حيث يقيم النساء والأطفال - والتى يُقْصَى عنها الرجال ما عدا الزوج وبعض الأقرباء المقرَّبين - أو تعنى نساء البيت، فإن الطبعة الأولى من قاموس روجيه (Roget's Thesaurus) عام ١٨٥٢ أوردت كلمة «حريم» تحت كلمة (impurity) (دَنَس)، جنبًا إلى جنب مع كلمات مرادفة للمبغى. ولقد استمر ذلك كمعنى وحيد إلى حين صدور طبعة Everyman من هذا القاموس عام ١٩٥٢ حيث وردت كلمة (apartment) (شقّة) كمعنى ثان. أما طبعة عام ١٩٦٢ فلم تضع كلمة «حريم» تحت المدخل (impurity)، وإنما تحت المدخل (Womankind) (جنس النساء) والمدخل (love-nest) (عش الحب)، وكان ذلك صائبًا. غير أن الأصوب هو ما أوردته الطبعات الأخيرة حيث وضعت كلمة «حريم» تحت المدخل (Womankind) والمدخل (Se-clusion) (مكان منعزل)، مع أن الطبعة التى صدرت عام ١٩٧٢ فى لندن عن Galley Press باسم Everyday Roget's Thesaurus عادت إلى وضع الكلمة تحت المدخل القديم (impurity).

ومع أنّ النساء من الرحالة كُنّ قادرات على زيارة الحريم، إلا أن ردود أفعالهن كانت معقدة وانتقادية إلى أبعد حد فى أغلب الأحيان. وأنا لا أشير هنا إلى نساء مثل لوسى دَفْ غوردن، التى عاشت فى مصر سبع سنوات ووافتها المنية هناك عام ١٨٦٩ بسبب إصابتها بالسل، وإنما أشير إلى عدد كبير من السائحات اللواتى كن يقمن بزيارات منظمة إلى هذا الحريم أو ذاك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. فتلك الزيارات غالبًا ما كانت قصيرة جدًا، وغالبًا ما اتسمت بسوء فهم متبادل وأحاديث متكلفة من خلال مترجم. ونادرًا ما خطر للرحالة الغربيين من النساء أن يفكرن أى تفكير عميق بالأثر الذى يتركه حضورهن على ما كان يجرى. فما كُنّ يلاحظنه لم يكن الحياة اليومية العادية على وجه التحديد. إذ كُنّ

جزءًا مما كان يجرى. وعلاوة على أن بعض الكاتبات كن يسخرن من ردود أفعال النساء على زياراتهن لهن ليظهرن مدى جهلهن وصبيانيتهن، فقد شعرت كثيرات من هؤلاء الكاتبات بأن لديهن الأهلية والكفاءة الكافية لإطلاق أحكام واثقة وأكيدة. فإن لم تكن النساء جميلات وفاسدات كما هُنّ فى اعتقادهن، فلا بد أن يكن إذًا أميات، وأمهات رديئات يثرن الشفقة لهذه الحياة المملة التى يعشنها. بل إن البعض كن يعتبرن أن لديهن من المعلومات المسبقة ما يكفى لأن يرفضن الزيارة أصلاً. ومن هؤلاء إ.هـ. ميتشل فى عام ١٨٩١، حيث أشارت إلى أنها كانت تقوم بالزيارة لو كان لذلك أن يساعد «أخواتنا المسكينات» على النجاة من أَسْرِهن. أما الذهاب لرؤيتهن فى حبسهن البغيض فهو أمر أصعب من أن تحتمله مسيحية (عن لين تورنتن، المرأة فى اللوحات الاستشراقية). أما هارييت مارتينو، المناضلة الإنجليزية من أجل حقوق النساء، فقد قامت بزيارة حريمين وعلقت ببساطة أنها لا تستطيع أن تفكر بالصباحين اللذين قضتهما هناك دون أن ينقبض قلبها على نحو يفوق ما أصابها فى مدارس الصم والبكم، أو المصحات العقلية، أو حتى السجون (الحياة الشرقية، المجلد ٢، ص١٤٧).

أما فى الواقع، فقد كانت نساء الطبقة الوسطى والعليا فى مصر يكتبن المقالات ويصدرن الكتب التى تتداولها الأيدى فى ضروب الحريم منذ أوائل الستينيات من القرن التاسع عشر. ومع حلول العقد الأخير من ذلك القرن كانت الصحف النسائية قد صدرت أيضًا. ولقد أطلقت مارغو بدران على هذه العقود اسم «مرحلة النسوية المستترة»، حيث لم تكن أصوات النساء مسموعة للعالم الخارجى بسبب من عزلة النساء والفصل بين الجنسين. غير أن قلة ما من الرحالة الغربيين لا بد أن تكون قد تمكنت من سماع ما كان يجرى أو من قراءة ما كان يُنْشَر للنساء العربيات فى القرن التاسع عشر من ضروب الكتابة الشعرية، والقصصية، والمقالات التى تتناول العلاقة بين الرجل والمرأة، والمعاجم التى تشتمل على تراجم لأعلام النساء وما إلى ذلك (مارغو بدران ومريام كوك، فتْح البوابات). بل إن كثيرات من نساء الطبقة الوسطى والعليا فى مصر كُنّ قد انخرطن فى النضال ضد الاحتلال البريطانى واشتركن فى المظاهرات عام ١٩١٩، حيث كفّت كثيرات منهن على أثر ذلك عن ارتداء الحجاب الذى يغطى الوجه.

ولقد وجدت ليلى أحمد أثناء كتابتها عن مواقف النساء الأمريكيات فى ثمانينيات القرن العشرين من الحريم أن معظم هؤلاء النساء «يعرفن» أن النساء المسلمات يعانين من الاضطهاد ما لا تعانيه غيرهن من النساء، وذلك فى الوقت الذى يعترفن فيه صراحة بأنهن لا يعرفن شيئًا عن الإسلام أو عن مجتمعات الشرق الأوسط. وتناقش ليلى أحمد طريقتين مختلفتين فى النظر إلى الحريم، حيث:

> يمكن تعريف الحريم بأنه ضَرْبٌ من النظام الذى يتيح للرجال مدخلاً جنسيًا إلى أكثر من امرأة واحدة. ويمكن تعريفه أيضًا، وعلى نحو أدق، بأنه ضرب من النظام الذى تتشارك فيه قريبات رجل ما - زوجاته، وأخواته، وأمّه، وعماته، وبناته - قسطًا كبيرًا من وقتهن ومكان عيشهن، ويوفر للنساء، علاوة على ذلك، مدخلاً سهلاً ومتكررًا إلى نساء أخريات فى مجتمعهن، وذلك بصورة أفقية وقطرية وعمودية. («المركزية الإثنية الغربية وتصوراتها عن الحريم»، دراسات نسوية، ٣:٨، ١٩٨٢»).



وبالطبع، فقد فضل الغرب التعريف الأولى على الدوام.

وحين كان الرسامون يرسمون النساء جماعات، فإن الحمام التركى كان خلفية نمطية لمثل هذه الرسوم. وما يلفت الانتباه أن الرسامين الذين صوروا النساء بوصفهن أمهات هم قلة قليلة وحسب بين الرسامين الاستشراقيين قبل نهاية القرن التاسع عشر، وذلك قياسًا بالعدد الكبير من اللوحات التى تصور النساء الغربيات ومن حولهن أطفالهن. ويعود هذا فى جانب منه إلى أن الخلفية «الغربية» كانت تمكن هؤلاء الرسامين من رسم أشياء ما كان لهم أن يرسموها على خلفيات وطنية دون تبعات وخيمة: ذلك أن «فتاةً شبه عارية ومثيرة على عتبة فى الجزائر هى أمر غريب ومدهش، أما الفتاة ذاتها وفى الوضع ذاته على عتبة فى باريس فهى أمر فاحش وقذر» (بيترغى، التجربة البرجوازية، المجلد ١، ص ٣٩٢).

بيد أن ما كان يعزز مثل هذه المواقف لم يكن مقتصرًا على طرائق النظر إلى النساء «الشرقيات»، وإنما تمثل أيضًا فى الأفكار الأوروبية السائدة بخصوص دور المرأة. فالأيديولوجية البرجوازية الشائعة كانت قائمة على معارضة بين عالمين، عالم عمل الرجال العام المغترب وعالم عمل النساء الخاص غير المغترب والمرتبط برعاية الأطفال والتضحية، كما كانت البنية برمتها معتمدة على تعزيز مُثُل الزواج الأحادى وصورة النساء بوصفهن كائنات جنسية سلبية. ولذا فقد كان من شأن تصوير نساء الحريم كأنهن نساء عاديات يعتنين بأطفالهن ويرعين منازلهن كما تفعل النساء فى أوروبا أن يقوض كل دعائم الحياة العائلية الغربية. وذلك فى قرن من التغير المتلاحق، ومع ثقافة الطبقة الوسطى «الانتقائية المليئة بضروب التوتر والدوافع المتناقضة» (كما يصفها بيترغى)، حيث كان من الضرورى أن يتم الحفاظ على هذين العالمين المنفصلين، اللذين كانا عرضة لتهديد دائم ومتواصل.

فالقرن التاسع عشر هو فترة كان على الناس فيها أن يتكيفوا مع صنوف من التغير الشديد فى حياتهم اليومية حتى إنهم حاولوا تجميد الأشياء وتجزئتها بغية الحد من ذهولهم. فالتصنيع، والنقل، والاضطراب والتغير السياسيان، وتعاظم تجارة ما وراء البحار، والاستعمار، ومراحل النمو والركود، وضروب الصراع بين الفلسفة والدين فى أرجاء القارة الأوروبية، وبين العلم والدين فى إنجلترا، كل ذلك عمل على تغيير المجتمع ودفع البشر لأن يكونوا فى آن معًا متعجرفين وغير واثقين حيال مكانتهم فى العالم. كما كان على البشر أن يتكيفوا مع إحساس جديد بالزمن أدخلته القطارات، والمحركات البخارية السريعة، والخدمات البريدية فضلاً عن الدراسات الجيولوجية والأثارية فى النصف الأول من ذلك القرن وكتاب داروين أصل الأنواع فى عام ١٨٥٩، أى بعد بضع سنوات من معرض الكريستال بالاس عام ١٨٥١، والذى يشكل الذروة التى بلغها القرن التاسع عشر:

إنها لمفارقة ساخرة أن مجتمعًا يعتبر ذاته القمة الفريدة للحضارة كان عليه أن يعمل على رعاية الحفريات التى أطاحت بذلك الوهم المريح.

فالتيار الثقافى الذى ينتمى إليه الفيكتوريون لم يكن سوى واحد وحسب من تيارات التاريخ الكثيرة، ولعله ليس الأكمل بينها، فما بالك بأن يكون الأبقى. ومن المؤكد أنه لم يعد بالإمكان القول إن اليهودية - المسيحية قد احتلت على الدوام مركز المسرح العالمى: فهى مجرد حدث واحد فى دراما معقدة تعود إلى عصور طويلة ماضية. (ريتشارد. د. ألتيك، الناس والأفكار فى العصر الفيكتورى، ص ص٩٩-١٠٠).

مع منتصف القرن الثامن عشر، كان الإنتاج المنزلى قد بدأ بإفساح المجال أمام إنتاج المصانع، مما أفضى إلى تطور الأيديولوجية البرجوازية بخصوص العالمين المنفصلين. وراحت العوائل محدثة النعمة تبنى فيلات تعزل فيها النساء وتقطعهن عن العمل فى المجال العام. وقضَتْ فكرة «التهذيب» التى لعبت دورًا كبيرًا فى تلك الفترة بأن على نساء الطبقة الوسطى أن ينافسن نظيراتهن من الطبقة العليا، فكان عليهن ألا ينخرطن فى أى عمل مأجور ما لم يكن ذلك أمرًا لا مفر منه. ولقد كُتِبَتْ فى تلك الفترة روايات كثيرة عن الطريقة التى كنّ يقضين فيها أيامهن فى تعلم الأشغال النسوية والقيام بزيارات متبادلة متكررة بعضهن لبعض. أما التعليم الذى نلنه فكان محدودًا إلى أبعد حد ولم يكن المقصود منه سوى جعلهن زوجات وأمهات طيبات، كما كانت الصفات والخصائص الجنسية التى اعترف لهن بها معدة لهذا الغرض ذاته.

وبالمقارنة، فإن النساء فى النصف الأول من القرن الثامن عشر لم يكن يُنظر إليهن على هذا النحو. فحتى أواخر أربعينيات القرن الثامن عشر «كان ثمة تمثيل ثابت للنساء بوصفهن موضعًا للمشاعر الجنسية الجامحة والجوع الجسدى. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر فصاعدًا بدأت صورة النساء هذه بالتحول ببطء باتجاه المثال المنزلى، أو ملاك البيت الذى يحفظه كملاذ من العالم الخارجى القاسى. وفى عام ١٧٦١، أطلق جان جاك روسو فى كتابه الشهير إميل فكرته عن التربية الملائمة التى ينبغى أن تتلقاها صوفى، أو المرأة المثالية كما يراها. وكتب يقول إن هذه التربية يجب أن تكون متصلة كل الاتصال بشئون الرجال، ذلك أن على المرأة أن «تمتعهم، وتنفعهم وتكون محبوبة عندهم وتتشرف بهم، وتعلمهم فى الصغر، وترعاهم فى الكبر، وتشير عليهم، وتواسيهم، وتجعل الحياة سائغة ومقبولة لديهم». ولقد عززت الداروينية فى القرن التاسع عشر هذه الأفكار، حيث أشارت إلى أن تطور المرأة الخاص قد جعل منها عضوية متكيفة مع تنشئة الأطفال فى الوقت الذى جعلها هشة وسيئة التكيف مع المساعى الفكرية. وبالطبع، فإن الصورة القديمة التى قضت بأن تكون النساء محكومات من قبل الرجال وفى حمايتهم لم تختلف تمامًا بأى حال من الأحوال، كما أن الصورة الجديدة لم تكن أكثر من صورة مثالية ليس غير. ولقد تم الإقرار بوجود الرغبة الجنسية لدى بعض النساء، إنما مقابل النظر إليهن على أنهن «بلا أخلاق»، إما أن يكن من بنات الطبقة الدنيا - كفتيات المصانع اللواتى وُصفن بوضاعة الأخلاق ولم يكن من الممكن قبولهن كخادمات فى المنازل - أو من النساء «الغريبات»، كالغجريات ونساء الأعراق الأخرى، أو مجرد مجنونات وحسب. ومع ذلك، فقد كان يرى أن سنة القيم البرجوازية هذه تصلح للطبقة الوسطى كما تصلح تاليًا لأى أحد آخر، خاصة أنها تترك الحرية للرجال نظرًا لما لديهم من «أهواء أقوى».

وحين عمد الرحالة إلى الشرق الأوسط إلى مقارنة حياة النساء فيه بحياة النساء فى أوروبا لم يقارنوا بين أفراد، ذلك أنهم كانوا يتحدثون بصورة تكاد أن تكون ثابتة عن النساء الأوروبيات من الطبقة الوسطى. وحتى آنذاك لم تكن المقارنة شريفة أو نزيهة. فمن الواضح أن كثيرًا من هؤلاء الكتّاب لم تكن لديهم أية معرفة بحياة النساء من الطبقة العاملة الأوروبية ومدى تدهورها وانحطاطها. وحين كانوا يلتقون بالنساء المحجبات و«السجينات»، كان أكثر الكتّاب من الرجال يتوقون إلى رؤيتهن وامتلاكهن فى الوقت الذى يؤكدون فيه على اختلاف نسائهم عنهن. أما الكاتبات النساء فكن يملن إلى وصف المساواة التى يتنعمن بها بأوصاف متفاخرة، متناسيات ما عانته كثيرات منهن فى مجتمعاتهن من ضجر وإحباط ويأس، مما كان سببًا فى سفرهن وترحالهن فى كثير من الحالات.

وفى النظرة الأوروبية الذكورية إلى

العالم، غالبًا ما نجد النساء وسكان البلدان الأخرى وقد تم «تصويرهم ومعاملتهم كأطفال بحاجة إلى الحماية والرعاية التى توفرها سلطة ذكورية / امبراطورية نظرًا لضعفهم وبراءتهم وقصورهم» وإذا ما كان الرجال الأوروبيون قد اعترفوا بحق النساء التركيات فى الخروج سافرات، فى الوقت الذى بذلوا فيه كل جهد لمنع نسائهم من تجاوز حدود معينة، فذلك لأنهم كانوا يحاولون استخدام النساء التركيات ـ أو غيرهن من النساء الشرقيات ـ لدك النظام الاجتماعى هناك تحت ستار تحرير هؤلاء النساء من ربقة رجالهن.

والحق أن النسويين لم يختلفوا عن غيرهم فى اتخاذ مواقف مركزية أوروبية واستعمارية. وحين أخذت النساء العربيات بالانخراط فى النضالات الوطنية، غالبًا ما سارعت النساء الأوروبيات إلى الإشارة إلى ما يرتكبنه من خطأ. ومن الأمثلة على ذلك ما تقوله تروبريدجهال فى كتابها مصر فى صورة ظليلة:

> إيه أيتها النساء، يا من تقاتلن من أجل الحرية أروع قتال وأنبله، فلتنسين فى الحال كل كفاح سياسى. إن المهمة الملقاة على عاتقكن لهى أعظم أهمية بما لا يقاس من الحكم الذاتى لبلادكن. فلتنسين كل شىء ماعدا إلغاء تعدد الزوجات، تلك اللطخة الشنيعة التى تشوه سمعة بلادكن الطيبة. (ص ٦٤).

وأكثر ما يصدم المرء لدى قراءته ما كتبه الرحالة فى وصف حياة النساء «الشرقيات» فى القرن التاسع عشر هو ذلك المستوى الرفيع من النفاق فيما يختص بوضع المرأة فى الغرب. فالسؤال الحقيقى هو ما مدى الفوارق فى حياة النساء فى كلتا المنطقتين، والتى تؤدى إلى مثل هذا التفاوت فى الأوضاع الاقتصادية والسياسية، أيًا كانت المظاهر الخارجية والأساليب المختلفة فى تنظيم شئون الأسرة؟ وهل المسيحية هى السبب الذى يجعل وضع النساء الأوروبيات على هذه الدرجة من الاختلاف، نظرًا لاعترافها بالقيمة الحقيقية للمرأة، كما ادعى الكثير من الكتّاب؟ ربما كان علينا، قبل قراءة ما خطّه الكتّاب عن النساء الشرقيات، أن نلقى نظرة على وضع النساء فى أوروبا وما حمله الرحالة معهم من أفكار تتعلق بطبيعة المرأة.

فمع تنامى تأكيد الأيديولوجيا البرجوازية فى القرن التاسع عشر على حصر المرأة بالبيت، كان ثمة جهد مبذول لإقامة تعارض مُحْكَم بين عالم الرجل وعالم المرأة، بين العالم العام والعالم الخاص، وذلك باللجوء إلى «غريزة» الأمومة لدى المرأة بوصفها جوهر كينونتها الذى لا يقتصر على جعلها منشئة أطفال وحسب، بل يهبها ضربًا من النفوذ الأخلاقى بفضل طبيعتها المُحبّة والمضحية. وربما وافق كثير من الرجال على ما كتبه الرسام الشهير ديلاكروا فى مفكرته بعد زيارته الجزائر، حيث قال: «يا للجمال! لكاننا فى أيام هوميروس! فالمرأة فى مدقتها منهمكة فى رعاية أطفالها، أو فى غزل الصوف أو تطريز أقمشة جميلة. تلك هى المرأة كما أفهمها» (أوردته آسيا جبّار فى كتابها نساء الجزائر فى مساكنهن).

وبالطبع، فإن الحفاظ على هذه البنية المؤلّفة من عالمين منفصلين (ومتساويين) لم يكن ممكنًا على مستوى المجتمع ككل. فمثل



هذه البنية تظل ضربًا من المثال الذى لا يُطال أبدًا. بل إن ذلك لم يكن مرغوبًا فيه من الناحية الاقتصادية، لأن المرأة كانت تشكل جزءًا أساسيًا من القوة العاملة.

لقد تم تصوير هذين العالمين على أنهما عالمان منفصلان لكنهما متساويان. ولعلنا لا نجد من صور هذين العالمين على هذا النحو بذلك العداء للمرأة الذى نجده فيما كتبه بيير جوزيف برودون عام ١٨٤٦:

> بالنسبة لى، كلما فكرت بالأمر أكثر، كلما ضعفت قدرتى على تبرير ما يُقدّر للمرأة خارج البيت والعائلة. فأنا لا أرى أية منطقة وسطى بين البغى وربة المنزل (أقول ربّة المنزل، لا الخادمة). فما الذى يحط من قدر المرأة إذا ما اتخذت هذا الخيار؟ وبأى منظور يكون دور المرأة، المثقل بأعباء إدارة شئون المنزل وكل ما يتعلق بأمور الاستهلاك والادخار، أدنى مرتبة من دور الرجل، الذى تتمثل وظيفته فى توجيه الورشة، أى فى قيامه بدور حكومة للإنتاج والتبادل؟

ومع هذا، فقد قبلت نساء كثيرات مثل هذا الرأى، نظرًا لما كان شائعًا فى أوساط الطبقتين الوسطى والعليا من إيمان عميق برسالة خاصة تؤديها المرأة. وحين كانت النساء من الرحالة إلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط يخبرن من يلتقينهن هناك عن الزواج الغربى القائم على المساواة التامة أو كُنّ يطلقن ضروبًا من التعميم الذى لا يستند على أكثر من خبرة محدودة وناقصة. والحق أن كثيرًا من النقد الذى وجهنه للمجتمعات التى زرنها كان من الممكن أن يوجّه أيضًا إلى مجتمعاتهن.

ففى إنجلترا القرن التاسع عشر كان يُنظر إلى النساء بوصفهن مشكلة. فمن جهة أولى، لم تكن النساء راضيات على الدوام بالمكانة المقسومة لهن فى المجتمع. أما من جهة ثانية، فقد كانت أعدادهن كبيرة جدًا بالنسبة لمجتمع قائم على الزواج الأحادى وقدسية المنزل وتبعية النساء. ولقد ناقش و. ر. غريغ هذه «المشكلة» فى عام ١٨٦٢ فى مقالة عنوانها «لماذا النساء زائدات عن الحاجة؟» وحاول أن يبين أن هؤلاء النساء الفائضات هنّ «الشر والآفة التى تجب مداواتها». وكان الدواء مرة أخرى ترحيل ٥٠٠٠٠٠ إلى المستعمرات.

ولقد ازدهرت تجارة البغاء على نحو خطير فى فرنسا أيضًا نتيجة لتضافر إفقار النساء مع ازدواجية المعايير الجنسية بالنسبة للرجل والمرأة والمطالبة بأن يكون الرجال «ذوى خبرة» قبل الزواج. وهكذا، فقد افتُرض بنساء الطبقة العاملة والنساء المهاجرات من المستعمرات أن يكن ضمانًا لطهارة زوجات البرجوازية وبناتها.

وفى روايته واحد من فاتحينا (١٨٩١)، يصور جورج ميريديث «مهراجا من الشرق» يطوف الشوارع ليلاً أثناء زيارته إلى لندن ويلاحظ أن «مجتمعات الزواج الأحادى تنم على مظهر لائق وخلفية شنيعة».

والدارس لهذه الفترة يعجب حين يعلم أن الأوروبيين كانوا يشخصون بداية الطمث والمشاعر الجنسية المرتبطة بسن اليأس على أنهما مشكلتان مرضيتان، ذلك أن الجنس عند المرأة كان يُعتبر مرضًا يتطلب العلاج. ومن ثم دخول مستشفيات الأمراض العقلية.

لذا كان يجرى الختان (قطع البظر) «لمساعدة النساء فى السيطرة على أنفسهن». وفى ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان أطباء النسائية فى الولايات المتحدة وبريطانيا يستأصلون مبايض سليمة بكل رحابة صدر كعلاج لحالات مثل الجنون المبكر أو الصرع. وبالنظر إلى مثل هذه المواقف والأجواء، ليس مستغربًا أن تكون

ردود الفعل تجاه «الشهوانية الشرقية» على ما كانت عليه من القوة والتشوّش.

النظرة المتدنية إلى المرأة فى أوروبا فى هذا العصر وصلت إلى درجة أنه حين أرسلت شارلوت برونتى عام ١٨٣٧ بعضاً من بواكير أشعارها إلى الشاعر روبرت سوثى لإبداء رأيه فيه أقرّ أنّ لديها الموهبة لكنه حاول أن يثنيها عن مواصلة الكتابة قائلاً:

ليس للأدب أن يكون شغل المرأة الشاغل، ولا ينبغى أن يكون.. فأحلام اليقظة التى تغرقين فيها قد تؤدى إلى حالة من الاعتلال تصيب العقل: ولأن كلّ الحاجات العادية فى هذه الدنيا تبدو لك تافهة وبلا طائل، فإنك لن تكونى نافعة فيها ولا فى سواها.

وعلى الرغم من النجاح السريع الذى حققته رواية شارلوت برونتى جين آير، فإن أصوات المعارضة سرعان ما بدأت تشير إلى أن البطلة لا تبدى الخصال التى تميز المثال الأنثوى. فجين آير فخورة بنفسها، وتبدى مشاعر الهوى والغضب، مما لا يمكن قبوله فى عصر كانت السيطرة فيه لأتباع الكنيسة الإنجيلية. ولم يكن معروفاً فى ذلك الحين أن المؤلف امرأة، إذ نُشرَت الرواية باسم مستعار هو كورير بل. ففى عام ١٨٥٧، وجّهت تهمة الإساءة إلى الأخلاق العامة هذه إلى كل من فلوبير بسبب روايته مدام بوفارى وبودلير بسبب ديوانه أزهار الشر. أما المشهد الذى يقوم فيه رجل ببيع زوجته فى رواية (عمدة كاستربريدج)، فقد صدم الحساسية الفيكتورية أيما صدمة. واتهم النقاد هاردى بتجاوز روايته حدود المعقول فى القص.. بيد أن بيع الزوجات كان يجرى فى انجلترا القرن التاسع عشر، وفى أسواق المواشى غالباً، حيث كانت تقتضى العادة الشعبية فى كثير من الأحيان أن تُساق المرأة إلى هناك بالرسن (صموئيل بيات مينيفى، زوجات للبيع، حيث يورد ٣٠٠ حالة موثقة بين عامى ١٨٠٠ـ ١٩٠٠).

لقد مال رحّالة العصر الفيكتورى إلى اعتقاد مفاده أن حياة المرأة المسيحية، الأوروبية، المنتمية إلى الطبقة الوسطى وحياة المرأة المسلمة، الشرقية، المنتمية إلى المنزلة الاجتماعية ذاتها تقفان على طرفى نقيض، غير أنّ حياة النساء فى الشرق لم تكن كما وصفوا، وحياة المرأة الأوروبية ظلت مكبّلة بأشد القيود حتى نهاية القرن، لذا فإن الوضع فى الطرفين لم يكن مختلفاً كثيراً كما يحلو لكثيرين أن يؤكدوا. فالنساء الفقيرات فى كلا المجتمعين كن يعانين من العمل المضنى سواء داخل البيت أم خارجه، وحقيقة ارتداء المرأة الشرقية الحجاب ما كانت لتجعلها أشد معاناة وشقاء بالضرورة. والحال أن النساء لم يكن ضحايا مستكينة وسلبية فى واحد من هذين المجتمعين أكثر منهن فى المجتمع الآخر.

فحين ألحت النسوة فى حمام تركى على السيدة مارى مونتاغيو لكى تخلع ملابسها وتلتحق بهن، نضت عنها سترتها لكى تريهن مشدّها. وهذا ما ساقهن ـ كما تقول ـ إلى الاعتقاد بأنها سجينة فى آلة لا يمكن فتحها إلا من قِبَل زوجها. وهذا مثال على أن كل واحدة من مجموعتى النساء هاتين كان بمقدورها أن ترى الأخرى كمجموعة من السجينات. ولاشك أن كلتيهما كانت محقة.

أما ماتيلدا بيثام إدواردز فقد خرجت أثناء رحلتها فى شمال أفريقيا، لتتمشى مع بعض الصبايا الفرنسيات ممن التقت بهن هناك. غير أن والدة هؤلاء الفتيات طلبت منها ألا يغربن عن ناظريها إلى أن يعدن سالمات إلى البيت، ذلك أنه لم يكن من اللائق أن يتجولن فى الطرقات بمفردهن بوجود كثير من الجنود فى المدينة.

هنا تكمن السخرية فى حرية التفكير الأوروبية! ففى حين نرثى لحياة العزلة والقيود التى تعيشها النساء المغربيات، نجد أن الصبايا الفرنسيات فى سن الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين لا يُؤتَمَنَ على البقاء وحدهن أبعد من حديقة المنزل! لاشك أن بمقدور هجاء عربى أن يخرج بشىء من حالة كهذه! (شتاء مع السنونو، ص١١٦).

وثمة رحالة آخر هو جون رينيل موريل سمع الكثير مما قاله الفرنسيون ضد العرب فى الجزائر، غير أنه حذّر قراءه من قبول هذه الاتهامات على نحو أعمى.

لدى تلقيك هذه وغيرها من أقاويل الكتّاب الفرنسيين عن العرب، من الضرورى أن تتوخّى أشد الحذر، وذلك لأن من مصلحة الفاتحين أن يصوروا ضحاياهم بأبشع صورة، كما يبرروا وحشيتهم وظلمهم. (الجزائر ص٣٠٣)

وأخيراً، فقد أمضى الباحث الفرنسى فولنى من الوقت فى تهيئة نفسه للرحلة التى انطلق بها إلى مصر وسوريا فى أواخر القرن الثامن عشر أكثر مما أمضاه معظم الرحّالة. وذلك، كما يقول، لأن فهم طبيعة بلد ما يقتضى أن تقيم هناك، وتتعلم لغة هذا البلد وتمارس عاداته، علماً أن ذلك كله لن يكون كافياً لحصول الرحّالة على معرفة حقة وفهم حق:

فليس عليهم (الرحّالة) أن يغالبوا كل ما سيواجهونه من أهواء وحسب، وإنما أن يتغلبوا كذلك على التى جلبوها معهم؛ ذلك أن الفؤاد مُحَابٍ، والعادة غلابة، والحقائق خادعة، والوهمُ هيّن. ولذا فإن على المراقب أن يكون محترساً دون أن يكون خائر القلب، وعلى القراء الذين ليس أمامهم سوى الرؤية بعين وسيط أن يهتموا برأى هذا الدليل دون أن ينسوا حكمهم الخاص. (سى.ف.فولنى، رحلة إلى مصر وسوريا، ص٣٩).

والحال أنّ قلة من الرحّالة هم الذين تمكنوا من الوفاء بقائمة المتطلبات الأولى، وأقلّ منهم بكثير من وفوا بالثانية. فمواجهة الأهواء والأحكام المسبقة التى حملوها معهم لم تكن واحدة من النصائح النافعة التى قُدِّمت لرحالة القرن التاسع عشر.

ترجمة: ثائر ديب

ماك

بواقى التصدير والرواكد

مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٢
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول
ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الألايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٣١٠٧٧٣٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش اثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٢٤٥٣٥٦٩٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر . طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٣٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٢٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ت: ٣٦٣٠٥٩٠
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٢٩١٨٤٧٠

العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت:٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى . شارع التحرير
بنى سويف: ٥ . ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٣٢ ٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ٠٥٥٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ت: ٠١٠١٩٣٢٤٢٨
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩ ٠٦٨٣٦٥٦٥٦
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى
بورسعيد: ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
منوف: ٨ ش ترعة العشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com





رسم لميدالية تذكارية من الفضة قام بإعدادها
الفنان بديع عبدالملك غطاس

الفن القبطى

صورة مصر فى عصورها المتطورة

مينا بديع عبدالملك

ابتكر أقباط مصر عناصر الفن المسيحى المتمثل فى صناعة الأخشاب والفخار والزجاج وصناعة المعادن والعاج والعظم بالإضافة إلى الأيقونات والمنسوجات والعمارة. ويقول الأب يوساب السريانى إن فكرة الأيقونة من بدايتها كانت متداولة فى مصر حتى قبل بداية الفن المسيحى متمثلة فى بورتريهات الفيوم وأخميم، فكان الأقباط يضعون صورهم الخاصة فى منازلهم كما يحدث الآن فى العصر الحديث، ومنها أخذت الأيقونة، ولم يكن هذا الأمر موجودًا فى العالم المسيحى آنذاك. وكان الشعب القبطى فنانًا بطبيعته فقام بزخرفة المنازل والمبانى والكنائس بعناصر أخرى مثل النسيج والأحجار.

فى بادئ الأمر - كما يذكر وديع حنا شنودة - كان من المعتقد أنه لا وجود لفن قبطى مستقل، وأن تلك الآثار المسيحية التى ترى ماثلة فى كنائس الأقباط وأديرتهم، ما هى إلا آثار بيزنطية يونانية. إلا أن أول من لاحظ استقلال الفن القبطى عن سواه من الفنون الأخرى هو العلامة ماسبيرو Maspero، وجاءت أقوال العلماء الذين قاموا بإحياء هذا الفن باكتشافاتهم وكتاباتهم أمثال بتلر وكلارك ودى كوسون وشاسينا وجاييه وإيفلين هوايت وأميلينو ودريتون وغيرهم من العلماء والباحثين والرحالة، مؤيدة ومجمعة على ذلك. ولو أنه ظهر على هذا الفن فى بادئ الأمر (فى القرون الثلاثة الميلادية الأولى) مسحة التشابه مع الفن البيزنطى اليونانى. وذلك يرجع إلى ارتباط واتحاد الكنيسة القبطية مع الكنائس المسيحية عامة. ولكن منذ أن انفصلت الكنيسة القبطية عن الكنائس الغربية وأصبح لها وجود ذاتى مستقل أمكن للأقباط من ذلك الوقت أن يتخلصوا من كل شىء له علاقة بالفنون البيزنطية واليونانية، وعادوا إلى الصناعات المصرية الفرعونية مع إدخال التعديلات التى تتفق مع المعتقد الدينى المسيحى.

وهنا يقول الأب يوساب السريانى: لقد اقتبس فن مصر القبطى بعض عناصره من الفنون الأخرى خلال الأحداث السياسية أو العلاقات التجارية. فمثلاً بحكم موقع مدينة الإسكندرية الحساس أخذ الفنانون فيها عن الفن اليونانى الرومانى تيجان الأكانثاس بعد أن حوروها وجردوها من نسب الطراز الرومانى الأصلى وأبعاده. كما أخذ الفن القبطى كذلك من الفن البيزنطى ومن الفن الساسانى. ورغم كل ما اقتبس بقى الفن القبطى محافظًا على جوهر قوميته وأصالته.

وتذكر نعمت إسماعيل علام أن الفن القبطى هو الفن الأول فى الشرق الأوسط الذى كان من إنتاج الشعب ولم توجهه الدولة. ولقد أنتجه مسيحيو مصر منذ الفترة التى اعترفت فيها الدولة بالكنيسة عام ٣١٣م واستمر لفترة بعد الفتح العربى.

وقد اهتمت المتاحف الكبرى فى العالم بعرض نماذج الفن القبطى منها متحف اللوفر بباريس، ومتحف برلين بألمانيا، ومتحف المتروبوليتان بالولايات المتحدة، ومتحف لندن بالمملكة المتحدة، والمتحف الملكى ببلجيكا. كما اهتمت بعض جامعات العالم بإنشاء أقسام متخصصة لدراسة هذا الفن مثل قسم تاريخ الفن القبطى بجامعة «ليدن» بهولندا وقسم الدراسات القبطية بجامعة مونستر بألمانيا الذى أسسه الأستاذ الدكتور كراوزا وقسم الفن القبطى بجامعة وارسو ببولندا الذى يرأسه الأستاذ الدكتور جودلفسكى وقسم آخر بجامعة بباريس.

وهنا نذكر بكل تقدير العالم الفرنسى الدكتور بير دى بورجيه رئيس القسم القبطى بمتحف اللوفر بباريس الذى أصدر عدة مؤلفات عن الفن القبطى منها مجلد ضخم يختص بالنسيج القبطى فقط يحتوى على أكثر من ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير ويعتبر أكبر دراسة متخصصة عن النسيج القبطى. ومن شدة اهتمامه بدراسة هذا النوع من الفن - كما يذكر الأب يوساب السريانى - قام بصنع نول نسيج يدوى ليعمل عليه بنفسه حتى يستطيع أن يقف بنفسه على مختلف الطرق الفنية التى كان يستخدمها الأقباط منذ القرون الأولى.

وقبل أن نتعرض لدراسة هذا الفن فإنه يجب الإشارة إلى بعض أسماء المصريين الذين ساهموا - فى القرن العشرين - بجهد واضح فى هذا المجال منهم: مرقس باشا سميكة (مؤسس المتحف القبطى بالقاهرة)، د. سعاد ماهر محمد (فى النسيج القبطى)، الدكتور أحمد فخرى (فى الآثار)، الدكتور باهور لبيب (فى الآثار)، الدكتور حشمت مسيحة (فى الآثار)، الدكتور لبيب حبشى (فى الآثار).

تاج عمود قبطى من باويط قرن ثامن ميلادى



صناعة الأخشاب:

تجلى تفوق الأقباط فى فن النجارة فى درايتهم الكاملة بالأنواع المختلفة للأخشاب. فلم يتوقف استخدامهم على الأنواع المحلية - كما كان الحال عند قدماء المصريين - مثل خشب الجميز والنبق والسنط والنخيل، بل لجأوا إلى استيراد أجود الأنواع من الخارج مثل خشب الأبنوس من أثيوبيا وجنوب السودان، والأرز من لبنان وسوريا، والساج من الهند بالإضافة إلى خشب الجوز والبندق والبلوط من أوروبا وغرب آسيا وغيرها.

ففى بادئ الأمر عند استخدامهم للأخشاب المحلية، فإنهم كانوا يشقونها ألواحًا ويسكبون عليها المياه، ثم يتركونها معرضة للشمس مدة كافية حتى تجف، وحتى لا تلتوى بعد صنعها تبعًا لتغير حرارة الجو، ومنها ما كانت رائحته ذكية تساعد على منع الحشرات التى تفتك بها سريعًا.

وعندما استوردوا الأصناف الأخرى من الخارج نشأت لديهم طريقة تطعيم الخشب فيصنعون البرواز الخارجى من الخشب العادى ثم يزينون سطحه بحشوات منقوشة من أنواع أخرى فيزداد رونقها وبهاؤها.

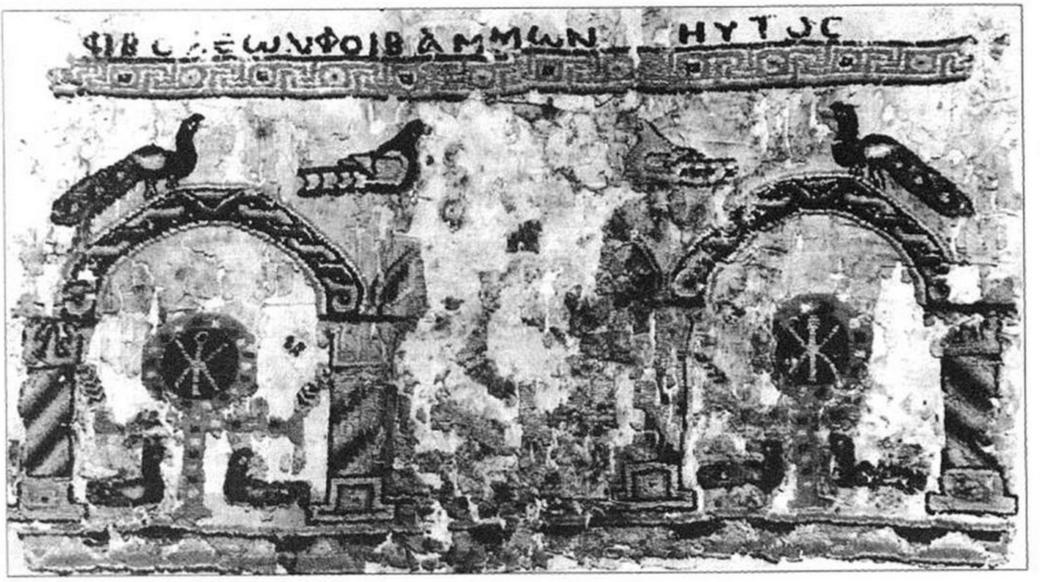
وكان أعز أنواع الأخشاب عند الأقباط خشب الزيتون الذى ورد ذكره كثيرًا فى الكتاب المقدس، فكانوا يصنعون منه - وحتى الآن - الأختام المستخدمة فى ختم الخبز المقدس الذى يستخدم فى الصلوات الكنسية، وكذلك خشب الجميز، إذ يعتقد أنها شجرة مقدسة لكونها تعيش أجيالاً عديدة بدون رى بالماء حتى أن المصريين القدماء كانوا يكثرون من زراعتها بجانب المقابر والمعابد وصنعوا منها توابيت الموتى.

استمر تزيين الخشب ونقشه برسم صور دينية ومناظر من حياتهم وأعمالهم إلى حوالى القرن العاشر الميلادى فى عصر الفاطميين عندما تبدلت هذه الصور بأشكال هندسية ونباتية تتخللها صور الطيور والحيوانات.

وأهم ما يستلفت النظر فى صناعة الأبواب الدقيقة والحواجز الخشبية بالكنائس والتى يطلق عليها اسم حامل الأيقونات، أنها تتكون من عدة قطع صغيرة من الخشب المخروط أو المنقوش. وتتجلى روعة تلك الصناعة فى أنه يمكن تجميع أجزائها بعضها إلى بعض دون استعمال المسامير أو الغراء فى تثبيتها، وأن بين كل حشوة وأخرى تركت مسافة كافية مراعاة لما قد يحدث فى الأخشاب عادة من تمدد أو انكماش تبعًا لاختلاف فصول السنة فيتسنى لها بذلك أن تتكيف حسب اختلاف درجات الحرارة طوال العام.

الفخار:

تعد صناعة الفخار من أقدم الصناعات التى برع فيها الإنسان إذ أن الأوانى الفخارية كانت الوسيلة الضرورية لطهى المأكولات وحفظ السوائل على اختلاف أنواعها ووضع الحبوب لصيانتها من التلف. وقد ظلت صناعة الفخار محافظة على مكانتها حتى القرن الثالث عشر



نسيج قبطي تظهر به علامة الصليب وفي أعلى القطعة رسم للطاووس الذي يرمز إلى الفردوس والحياة الجديدة

نحت قبطي من الحجر يمثل رمز السمكة التي تشير إلى المسيحية. من القرن الرابع الميلادي. بمتحف اللوفر بباريس



الميلادى. ومما يدل على انتشار الفخار على نطاق واسع بمصر، وكان زهيد الثمن، ما رواه المقريزى عن أحد الرحالة «أن البقالين وبائعى الخردوات فى القاهرة كانوا يسلمون مبيعاتهم للمشترين فى أوان من الخزف بدون مقابل».

وازدهرت صناعة الخزف فى العصر القبطى وامتازت مصنوعات هذا العصر عن غيرها بخلوها من الدهان المعدنى الذى يجعل لها بريقًا ورونقًا خاصًا. وانتشرت صناعة الأطباق الفخار والقدور المعدة لحفظ السوائل لا سيما فى الأديرة القبطية. وكانت تزين هذه القدور والأطباق بأشكال الأسماك والأسد والطيور والنباتات وغيرها من الأشكال الرمزية. وكذلك كان يصنع من الفخار نوع خاص من المسارج المعدة للإضاءة، نقش على سطوحها نصوص قبطية بارزة، وعدد كبير من القوارير الصغيرة الجميلة الأشكال، والتى كانت تستخدم فى حفظ أنواع العطور والدهون والأطياب. وكذلك مجاميع الأنابيب الصغيرة المستديرة التى تعرف باسم قوارير القديس «مينا». وقد حليت بصورة بارزة للقديس «مينا» (شهيد مصرى فى القرن الرابع الميلادى) تمثله وهو واقف بين جملين وحوله كتابة بالأحرف القبطية البارزة. ومما هو جدير بالذكر أن رهبان دير القديس «مينا» القائم حاليًا بمنطقة مريوط - غرب الإسكندرية - قد قاموا حديثًا بإعادة صناعة تلك القوارير الفخارية بنفس النقوش التى كانت عليها فى القرن الخامس الميلادى وبنفس الإتقان الذى كان لأجدادهم الأوائل، فأعادوا بذلك جزءًا من أمجاد ذلك العصر.

كذلك استخدمت بعض قطع الفخار - وبالأخص فى الأديرة - فى تدوين نصوص قبطية من الكتاب المقدس. كما كانت - لكثرتها ورخص ثمنها - المادة التى يتعلمون عليها طريقة تحسين وإتقان الأحرف القبطية عند البدء فى تعلم الكتابة. وقد عثر فى الأديرة القديمة على عدة قطع من الفخار الذى استخدم لجميع الأغراض السابقة ويرجع تاريخها إلى ما بين القرن الخامس والثامن الميلادى.

الزجـــــــاج:

يذكر فلندرز بترى أنه كشف عن بعض قطع من الزجاج الشفاف فى إحدى مقابر هوارة بالفيوم يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الميلادى، كما وجد أيضًا بعض عدسات كان القصد منها تكبير الأشياء. ويؤكد الفريد بتلر شهرة منطقة وادى النطرون وأديرته منذ العصر القبطى المبكر بهذه الصناعة وأنه كانت توجد فى هذه المنطقة عدة معامل لصناعة الزجاج، وهذه المعامل تعود إلى العصر الرومانى. وفى عام ١٧٣٠ زار مصر الرحالة جرانجيه وقد رأى ثلاثة معامل للزجاج مهجورة بجهة وادى النطرون، كما كانت الأديرة القبطية - حتى القرن التاسع عشر - ملأى بالزجاج المستخدم فى المصابيح الملونة المشغولة بالمينا. وفى منتصف القرن الثامن الميلادى بدأت الكنائس فى استعمال أوان للقيام بالطقوس الدينية من مادة الزجاج الدقيق بدلاً من الذهب أو الفضة.

صناعــــــة المعــــادن:

نبغ الأقباط فى فن صياغة المعادن، وكان لديهم الكثير من الأوانى والأدوات المعدنية المصنوعة من الذهب أو الفضة أو النحاس أو البرونز وكذلك من الحلى وأدوات الزينة الثمينة الجميلة. وإن كان ما وصلنا منها الآن قليلاً جدًا بالمقارنة مع ما كانوا يملكونه من قبل، وسبب ذلك يرجع إلى أنه كان من عادة القوم وقتئذ أن تصهر تلك الأوانى سواء أكانت ملكًا للأفراد أو للكنائس كلما تقادم العهد عليها لاستبدالها بأوان أخرى جديدة. ويحتفظ المتحف القبطى بالقاهرة بالعديد من معادن العصر القبطى، منها باب من خشب الدوم محاط بإطار من البرونز ومزين برسوم بارزة وصور ملائكة، وفى وسطه قرص عليه رسم بارز ودوائر داخلها صلبان برونزية الصنع ويعود تاريخه إلى القرن العاشر الميلادى وعثر عليه فى الفيوم. أيضًا يوجد تمثال رائع وفاخر لنسر من البرونز عظيم الصنع عثر عليه فى حفائر أحد أبراج حصن بابليون بمصر القديمة. ولروعته حاول فيكتور عمانوئيل ملك إيطاليا اقتنائه لكن الحكومة المصرية اعتذرت عن ذلك. أيضًا توجد مجموعة من الأطباق الفضية والنحاسية عليها رسوم أسماك يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادى.

صناعــــة العـــاج والعظم:

العـاج والعظم من المواد التى توافرت فى مصر من أقدم العصور التاريخية وتؤخذ من سن الفيل وفرس النهر. ومن بين المصنوعات التى قامت على مادتى العاج والعظم، أدوات الزينة للمرأة كصناعة الخلاخيل والأمشاط ودبابيس الشعر ثم الصناديق الصغيرة لحفظ أدوات الزينة أو القلائد الثمينة وغيرها. وقد ظلت تلك الصناعة منتشرة فى مصر فى جميع عصورها، وفى العصر القبطى بلغت درجة مرموقة من الدقة والإتقان والبراعة، كما كثرت وتنوعت الأدوات المصنوعة من مادتى العاج والعظم، فلقد استخدمت تلك المواد فى عمل لوحات للتصوير بعضها بارز ومنها ما هو غائر فى مناظر دينية رائعة بالإضافة إلى قطع أخرى صبغت على شكل طيور أو حيوانات أو أسماك بالإضافة إلى استخدامها فى تطعيم التوابيت الفاخرة وفى تطعيم أبواب الكنائس ومازالت الحواجز الخشبية (حامل الأيقونات) بكنائس مصر القديمة يشاهد معظمها مطعمًا تطعيمًا تعطينا مثلاً رائعًا لدقة وعظمة ما بلغه الصانع القبطى من براعة عجيبة فى فن التطعيم.

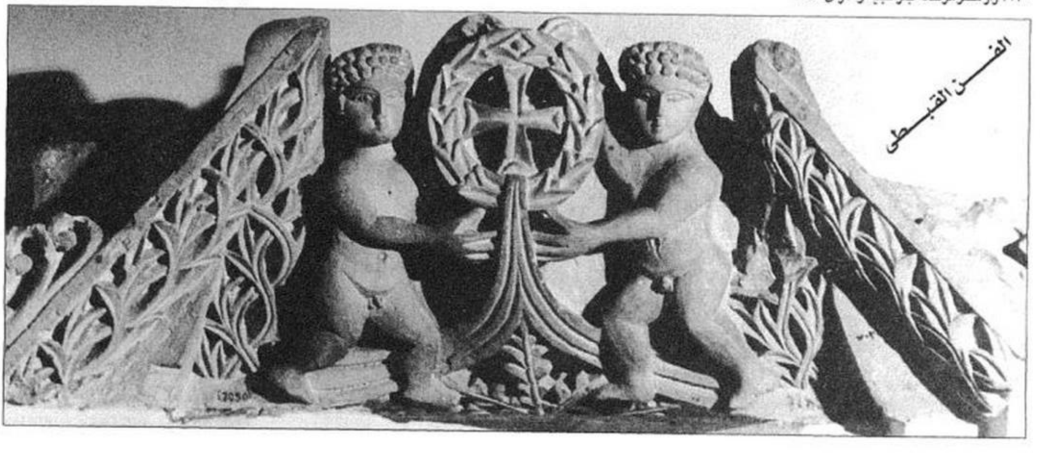
العمــــارة القــبطيـــة:

إن المسجد والكنيسة هما أهم مبنى فى المدينة وخاصة فى القرى المصرية. فقد ورثنا عن المصريين القدماء الاهتمام الكبير بمعتقداتنا الدينية وتغلغلها فى النفوس. وإذا كان الأقباط قد ورثوا عن المصريين القدماء اللغة القبطية، وهى آخر مراحل تطور اللغة المصرية القديمة وورثوا أيضًا بعضًا من الألحان من الموسيقى الفرعونية إلا أنه كان لهم طابعهم الخاص الجديد، وقد ظهر ذلك بوضوح فى العمارة. فنرى كنائس القرنين الخامس والسادس تشبه المعابد ذات الشكل المستطيلى الخارجى وزخارف فرعونية أضيفت إليها الرموز المسيحية إلا أن التصميم الداخلى يختلف تمامًا عن المعبد المصرى، بل ويقترب بالأكثر إلى البازيليكا. فبعد منشور التسامح الدينى الذى صدر عام ٣١٣م وجد المسيحيون أن أنسب مبنى ممكن أن يتحول إلى كنيسة هو البازيليكا الرومانية التى تتكون من صحن أوسط وجناحين وحنية Apse فى المقدمة للملك أو الرئيس. وقد كان للبازيليكا القبطية فى القرون من الخامس حتى الثامن الميلادى طابعها الخاص من دخولها داخل مستطيل ووجود جناح ثالث غربى ووجود حجرتين بجانب قدس الأقداس (الهيكل) نصف الدائرى، ووجود المدخل Narthex أو أكثر كما هو فى الدير الأبيض (نسبة إلى بنائه بالحجر الأبيض) والدير الأحمر (نسبة إلى بنائه بالحجر الأحمر) بسوهاج. وتطور شكل البازيليكا وظهر الخورس وهو قسم منفصل بين الهيكل والصحن كما فى كنائس أديرة وادى النطرون ثم تطور شكل الكنيسة فى القرنين ١٦ - ١٧م وامتدت من الشمال إلى الجنوب بدلاً من الشرق إلى الغرب، كما فى دير القديسة دميانة بالطربية المدفونة. وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ظهرت الكنائس ذات الاثنتى عشرة قبة كما فى معظم كنائس الوجهين البحرى والقبلى التى بنيت فى هذا العصر. ومن العناصر المعمارية المهمة فى الكنيسة القبطية تيجان الأعمدة، فالعامود القبطى يتألف من ثلاثة أجزاء هى القاعدة والبدن والتاج، ويتميز ببساطة زخرفة بدنه وزخرفة تاجه بعناصر زخرفية مميزة، فبعضها يحمل زخارف نباتية وهندسية تشتمل على أوراق الإكانتس وعناقيد العنب وسعف النخيل وثمار الرمان، والزخارف الهندسية فأخذت أشكال السلال ذات الزخارف المجدولة والمفرغة فى بعض الأحيان. ومن الملاحظ أن شكل أوراق العنب فى الشرق قد طرأ عليه تغيير كبير حيث بسط الفنان القبطى فى شكل الورقة لدرجة أنها صارت فى بعض الأحيان رمزية. وتحولت إلى شكل هندسى متصل، وبذلك مهدت إلى زخارف الأرابسك التى تميز بها الفن الإسلامى.

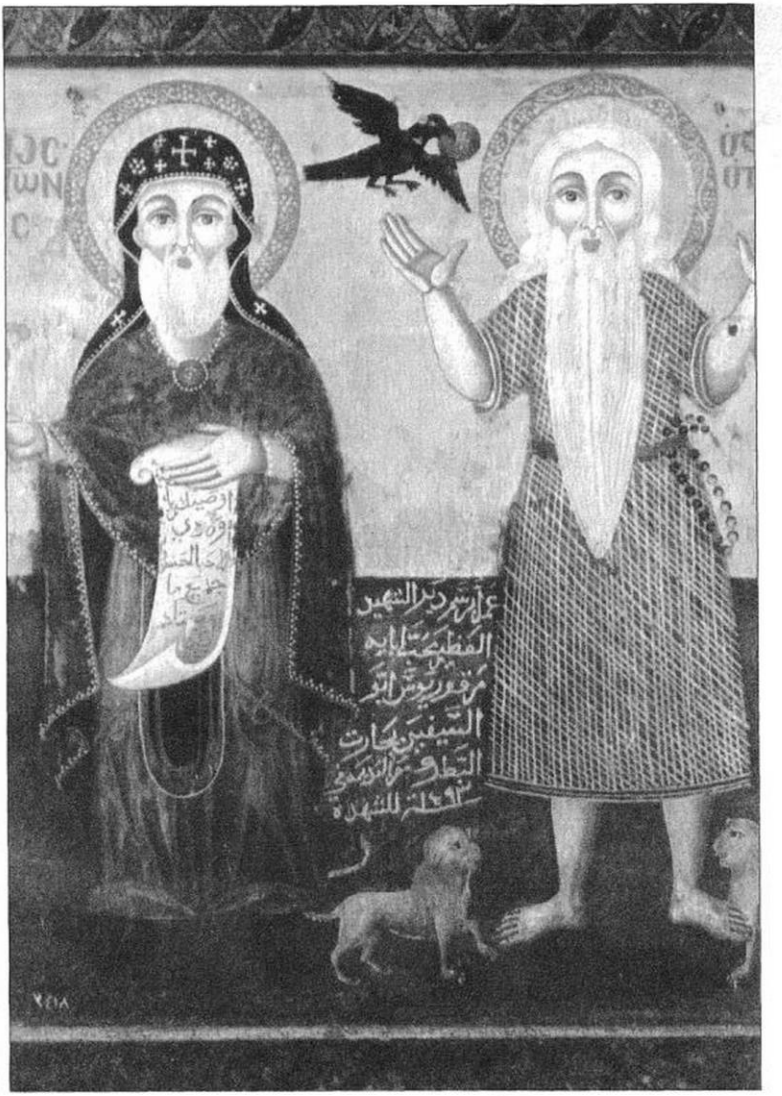
أما العمارة القبطية المستخدمة فى خدمة الحياة الدنيوية فهى تشمل العمارة السكنية والمنازل ومبانيها وزخرفتها وتخطيط المدن ومصانع الهدايا التذكارية. وقد استعان الفنان القبطى - فى زخرفة العمارة - بمناظر جنى وتجميع محصول العنب، نيل مصر الخالد وفيه تسير المراكب محملة بالأوانى الفخارية، غزلان، تماسيح وأسماك وأيضًا نبات اللوتس. ومن ثم كان من الطبيعى أن يستخدم المسلمون الصناع والعمال المهرة من الأقباط فى أعمال البناء والزخرفة فى العصر الأموى. وفى مصر نجد التأثير الفنى للأقباط على زخارف منازل الفسطاط وجامع عمرو بن العاص ومقياس النيل بالروضة.

المنسوجات القبطية:

تعتبر المنسوجات القبطية من أهم الفنون التى ظهر فيها تطور الفن القبطى. وكان الأقباط يتقنون هذه الصناعة إتقانًا كبيرًا ويصدرون منسوجاتهم إلى روما وبيزنطة فى فترة الحكم الرومانى. ووصلتنا نماذج من المنسوجات القبطية يرجع الفضل فى بقائها إلى جفاف التربة المصرية وإلى عادة الأقباط فى تكفين موتاهم بأجمل الملابس ودفنهم فى مقابر رملية فى الصحراء بعيدًا عن وادى النيل خوفًا من مياه الفيضان. وكان الصانع القبطى يزخرف النسيج برسوم للطيور والأسماك أو نبات اللوتس أو



قطعة من الحجر الجيرى يعود تاريخها إلى القرن الخامس وفى أعلاها نقش صليب داخل إكليل من الغار يحمله طفلان. وأهمية تلك القطعة أنها تمثل مزيجاً من العصرين الوثنى والمسيحى. ويعتقد أنها واردة من سوهاج.



رسم للقديسين الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا يعود تاريخه إلى القرن ١٨. [المتحف القبطي بالقاهرة]

عناقيد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص.

وقد ظلت شهرة المنسوجات القبطية حتى العصور الإسلامية وكان نسيج القباطي المعروف بالتابستري من أفخر أنواع النسيج، وقد اشتهر باسم «القباطي» نسبة إلى قبط مصر. وقد اهتم العالم الإسلامي بصناعات الأقباط فكان الخلفاء يختارون مصر لترسل الكسوة السنوية إلى الكعبة لما لمسوه من إتقان المصريين لصناعة النسيج.

أما عن الألوان المستخدمة في مختلف مظاهر الفن القبطي فكان لها رموزها التي تخدم بدورها المضمون اللاهوتي. فاللون الأصفر يرمز للقداسة التي تنبعث من النور الإلهي ويستخدم عوضًا عن الذهب، واللون الأحمر بدرجاته يرمز إلى المجد والفداء، واللون الأبيض يرمز إلى الطهارة القلبية، واللون الأزرق يرمز إلى الأبدية التي لا نهاية لها، واللون الأسود يرمز إلى الوجود ويستخدم دائمًا في تأكيد الأشكال وإبراز التصميم.

الموسيقى القبطية:

الموسيقى المصرية القديمة - بشهادة كل العلماء والموسيقيين - لا زالت ماثلة في صورتين: إحداهما تتمثل في حياة الناس العامة ولا سيما فلاحي مصر، ومصر العليا بصفة خاصة، ممن عاشوا حتى اليوم أبعد ما يكون عن المؤثرات الوافدة وبقيت لهم أغانيهم بترنيماتها على صورة لم تبعد كثيرًا عما كانت عليه في الماضي البعيد. والأخرى تتمثل فيما لا يزال يتردد بين أرجاء الكنائس القبطية على ألسنة المرتلين والشعب يؤدونه كما وعوه ولقنوه. فمسيحيو مصر ورثوا عن آبائهم الفراعنة موسيقاهم، لم يصرفهم عنها خروجهم من معتقد ولم يمس المعتقد الجديد تلك الموسيقى القديمة في صميمها وإنما مسها في ظاهرها فلوّن منها شيئًا ولكنها لا تزال هي هي موسيقى فرعونية بلحمتها وسداها.

ويؤكد العلماء الموسيقيون مثل هكمان وفلز وجلسبي ودريتون وغيرهم أن هناك تشابها في الأداء بين الغناء الشعبي الحديث والغناء القديم، بل يؤكد أن هناك تطابقًا في الترتيل والتنغيم بين ما هو جاري على ألسنة المرتلين في الكنائس القبطية والمغنين في الريف وبين ما كان جاريًا على ألسنة آبائهم من قدماء المصريين.

تستخدم الكنيسة القبطية موسيقاها الصوتية - وليست الآلية - في العبادة. وهذا تقليد مصري قديم وتقليد عبادي قديم أيضًا. ففي الدولة الحديثة كان الاهتمام في مصر القديمة ينصب على الصوت أصلاً، حيث إنهم يعتبرون صوت الإنسان موصلاً للروح من شخص إلى شخص، وأنه أخلص وسيلة للتعبير. وهذه الطريقة الصوتية البحتة أتاحت لكل الشعوب الفرصة للعبادة دون أن تكون مقصورة على الموسيقيين فقط.

وقد ذكر فيلو السكندري (القرن الأول الميلادي) أن جماعة المسيحيين الأولين أخذوا ألحانًا من مصر القديمة ووضعوا لها النصوص المسيحية. ومن بين هذه الألحان لحن «غولغوثا» أو «الجلجثة» أي الجمجمة الذي كان يستعمله قدماء المصريين أثناء عملية التحنيط وفي مناسبة الجنازات. ولحن «بيك أثرونس» أي عرشك أو كرسيك الذي يشتمل نصفه الأول على نغمات حزينة تردد لوفاة الفرعون ونصفه الآخر على نغمات مبهجة تردد لزفاف الفرعون المنتقل إلى مراكب الشمس لتصحبه إلى «رع» في دنيا الخلود.

ويذكر عميد الأدب العربي د. طه حسين أن كل حرف يردد داخل جدران الكنيسة القبطية على مدى كل ساعات الليل والنهار له موسيقاه الملهمة. كما تنفرد الكنيسة القبطية عن كل كنائس العالم بهذا الكم الهائل من الألحان التي تمثل أعمق ما في ذاكرة البشرية من موسيقى ملهمة تنتمي إلى عشرات الفصائل الموسيقية المختلفة والمتباينة في تأثيراتها وقوتها، كما أن التأثيرات البديعة لنوع هذه الألحان لا سيما الألحان الجنائزية والتي يرجع تاريخ بعضها إلى العبادة الأوزيريسية (نسبة إلى أوزوريس).

وإذا كانت اللغة الإيطالية لغة المسرح والغناء، واللغة الفرنسية لغة الصالون، فإن اللغة القبطية لغة الصلاة. ميزة هذه اللغة - كما يذكر عميد الموسيقى القبطية د. راغب مفتاح - أن أغلب كلماتها تحتوي على حروف متحركة كثيرة تؤدي إلى سهولة اللفظ وجمال الترتيل والتسبيح. لهذا السبب تفقد أنغام هذه اللغة نحو ٧٠٪ من أصولها الموسيقية عندما تنقل إلى لغة أخرى.

من هنا فإن الموسيقى القبطية تعد أقدم تراث موسيقي في العالم، وهي موسيقى شعبية وجذورها مصرية عريقة. لذا فإنه من واجب المصريين جميعًا الحفاظ على هذا التراث الفريد باعتباره أحد الفنون القومية المصرية الأصيلة.

يبدو مما تقدم عن الفن القبطي أن له طابعًا شعبيًا مصريًا دنيويًا إلى جانب الطابع الديني ويتفق تمامًا وحياة الشعب المصرية القديمة والفن الشعبي الحديث. وأنه صورة من صور الفنون المصرية في عصر من عصورها المتطورة وأن له طابعًا شعبيًا خاصًا من أصالة وعمق وروحانية.

وقد أصبح للفن القبطي تأثيره المباشر في حضارة أوروبا وفنونها في عصر من عصور نهضتها وكذلك في بعض البلاد الأسيوية والأفريقية. ■

مراجع:

١. يوساب السرياني (الأب) الفن القبطي. دير السريان ١٩٩٥.

٢. رءوف حبيب: الأخشاب القبطية القديمة وروعة نقوشها، مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٧٨.

٣. باهور لبيب: الفن القبطي. دار المعارف. ١٩٧٨.



«متحف النوبة»
مصـــــر

عمـــارة المجتمـــع

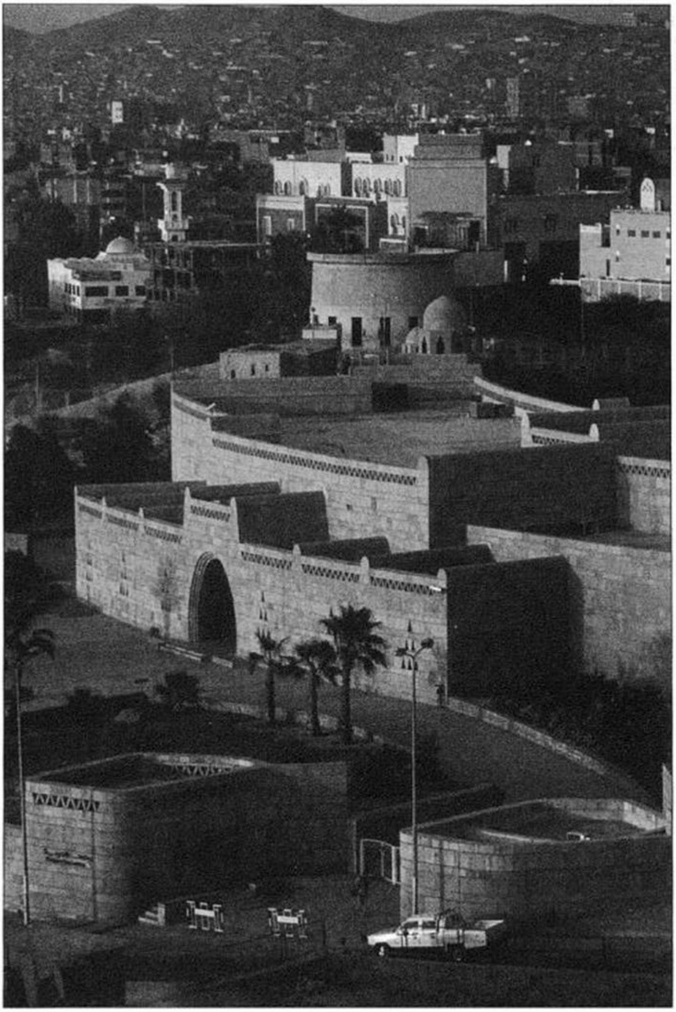
جــائزة الأغاخـــان للعمــــــارة ٢٠٠١

إسماعيل سراج الدين

يشهد العالم كل ثلاث سنوات مظاهرة ضخمة تنظمها جائزة الأغاخان للعمارة، لتعلن خلالها الفائزين بهذه الجائزة، والاحترام الذى اكتسبته هذه الجائزة منذ إعلان جوائز دورتها الأولى فى حدائق شاليمار فى باكستان عام ١٩٨٠، نتج عن الجدية الشديدة التى اتبعها القائمون عليها والتى انبثق عنها معايير جديدة لتقييم المنشآت المعمارية. وفى توقع البعض أن تكون الضخامة والفخامة، هى معايير الفوز الأساسية، ولكن منذ إعلان الفائزين بالدورة الأولى قلبت الجائزة كل المعايير بل أثارت فى بعض الأحيان الدهشة والحيرة والتساؤل لدى الجميع، إذ كرمت أعمال ذات طابع اجتماعى فى العشوائيات فى إندونيسيا وأبراج مياه فى الكويت وغير ذلك من الخيارات، التى أجبرت المعماريين فى العالم أجمع أن يفكروا تفكيراً عميقاً فى معنى الإنجاز المعمارى وعلاقة العمارة بالمجتمع.

أنشأ الجائزة الأمير كريم أغاخان عام ١٩٧٧ لتشجيع المفاهيم المعمارية التى تنجح فى مواجهة احتياجات المجتمعات الإسلامية وتطلعات هذه المجتمعات. وكشفت الجائزة خلال دوراتها الماضية نماذج متفردة فى مجالات التصميم المعاصر، والإسكان الاجتماعى، وتنمية المجتمعات المحلية، وترميم الآثار وإعادة توظيفها، إضافة إلى البيئة والحفاظ عليها.

طالعتنا الجائزة هذا العام باختيارات عشرة: تسعة مشروعات فائزة بالإضافة إلى جائزة الرئيس (التى لا تمنح إلا نادراً جداً) التى منحت للمعمارى السريلانكى جيفرى باوا لأعماله المتميزة عبر حياته كلها. ووجدنا هذه الأيام خيارات استمرارية فى اهتمامات الجائزة





«حياة جديدة لمبان قديمة»
إيران

والتراث والبيئة

ومحاور فكرها من الاهتمام بالنواحي الاجتماعية والتراثية والبيئة وإبراز كل منها من خلال تجارب معمارية متميزة.

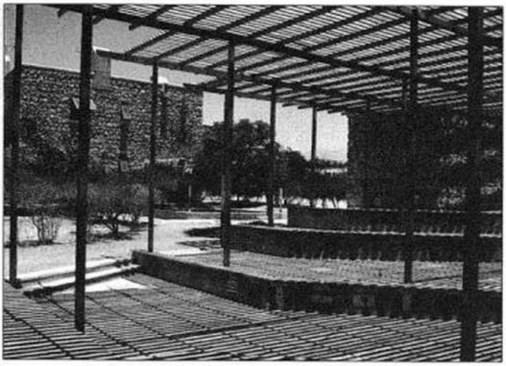
المحور الاجتماعي:

لاشك أن العمارة ترتبط بالمجتمع، ولكننا نقصد هنا الاهتمام بمعالجة الفقر والحرمان في المقام الأول، والتأكيد على التفاعل الاجتماعي، مع احترام الثقافة والبيئة.

وكانت المشروعات الثلاثة الريفية التي كُرِّمت هي:

مدرسة كاهيري إيلا لتربية الدواجن بغينيا:

لإدخال المزيد من البروتين في طعام الغينيين جاءت الفكرة لإقامة مدرسة لتعليم الفلاحين كيفية تربية الدواجن. وجاءت هذه المدرسة بالحل المعماري المتناهي البساطة، ولكنه الحل المعماري الذي يستجيب لحاجة المستفيدين من المبنى ويحدث وسائل البناء المحلية ويهذِّبها، ويفتح مجالات جديدة للفلاحين المجاورين لتحسين طريقتهم في البناء بالإضافة إلى الاستفادة المادية لهم ولجيرانهم من الاضطلاع بتربية الدواجن في غينيا. يعود الفضل في إنشاء هذه المدرسة إلى السيدة كيفكاس الفنلندية الجنسية التي تعاون معها غينيين، ونفذ المشروع في منطقة كنديا المعروفة بالمباني المستديرة ذات السقف المخروطي المغطى بالقش. بنيت المدرسة وفق هذا النمط، ولكن من ثلاث بنايات، فصل للدراسة وجناح للدارسين يسع ١٢ دارساً، وجناح للمعلمين. وتلتف هذه البنايات حول ساحة في وسطها شجرة. وقد طوَّر كبير البنائين التقليديين في هذه المدرسة تقنيات جديدة في البناء. فبعد أن تدرب على تطوير البناء التقليدي الذي أدخل إليه المعماريين مواد جديدة تزيد من متانته وصلابته، بدأ هو نفسه في توظيف هذه التقنيات في صور مختلفة جديدة.



قرية الأطفال... S.O.S.
الأردن



«فندق داتاى»
ماليزيا



قرية «آيت المثل» الريفية
المغرب

قرية أيت إكتل المغربية:

تعد هذه القرية نموذجاً للترابط بين المغتربين وسكان الوطن الأم. فقد كانت قرية آيت إكتل تعانى من ندرة المياه لعزلتها، فكانت النساء يقضين ساعات لجلب المياه فى عمل شاق ومعظم شباب القرية التى يبلغ تعدادها ألفى نسمة يهاجرون للخارج لإعالة أهل القرية ولتوفير سبل عيش آدمية لهم. وفى عام ١٩٩٢ أسس على أمهان وهو مهاجر من أبناء القرية رابطة ثقافية اجتماعية ضمت أبناء قبيلة غوجداما التى تكون معظم سكان القرية الذين هاجروا للرباط والدار البيضاء. وأطلق عليها رابطة آيت إكتل للتنمية عام ١٩٩٥. وفرت الرابطة المياه من خلال شبكة تضخ المياه إلى الصنابير التقليدية فى الشوارع. ومدرسة تسمح ساعات العمل فيها بمساعدة الأطفال لأسرهم فى الأشغال اليومية. ووفرت الرابطة الكهرباء للقرية.

المعماريون الحفاة بالهند:

فى ولاية راجستان فى الهند بدأت تجربة رائدة فى عام ١٩٧٢، تقوم على إحياء المعارف المخزونة على مدار الزمن لتنمية المجتمع. فأسست كلية «المعماريون الحفاة» فى تيلونيا وهى مجتمع ريفى فى راجستان. إن اللافت للنظر أن الكلية جذبت الحرفيين البنائين من خلال رؤية خاصة لشخص متميز اسمه بنكروى الذى تبنى المشروع. والتجربة تقوم على أن المجتمع يستطيع أن يعتمد على نفسه لتطوير نفسه، وسرعان ما عمل معه المعلمين المحليين الذى وجدوا التقدير منه لمهاراتهم وكذلك مسئولى الرعاية الصحية ومهندسى الطاقة الشمسية وميكانيكى المضخات الآلية. وأدت هذه المشاركة بين تخصصات مختلفة إلى ظهور خطة إنمائية، وبرامج بحثية قام بها «المعماريون الحفاة» من أبناء المنطقة. وهو الاسم الذى أطلق على بناة مهرة ليست لديهم شهادات أو تعليم جامعى. ولكنهم قادرون حقاً على البناء وحل مشاكل المجتمع الذى يعيشون فيه. وهذه التسمية مأخوذة من اسم «الأطباء الحفاة» هم أيضاً أعضاء هيئة التدريس فى الكلية التى أنشاها بنكم روى، والتى بها برامج بحثية استحدثت تعديلات فى الأبنية التقليدية وأدخلت لها تقنيات حديثة وبسيطة يسهل تطبيقها مثل القبات الجيولوجية التى اخترعها بكمنتر فولر. ووفرت الكلية أكثر من مائتى مسكن فى القرى المجاورة لتيلونيا. وابتكرت نظاماً لحصد مياه الأمطار بدلاً من الاعتماد على المياه الجوفية فقط، واستطاعت زراعة مناطق جديدة، كل هذا أدى إلى انتشال سكان القرية ومحيطها العمرانى من الفقر المدقع إلى حياة آدمية إنسانية. ومن الجدير بالذكر أن الكلية دربت مئات من المعماريين الحفاة يعملون فى عشرات القرى براجستان. فباتت تجربة حقاً تستحق التكريم والدراسة.

ونجد أن الخيط المشترك بين هذه المشروعات الثلاثة هو أهمية المشاركة معاً. والاعتماد على الذات. واستعمال التقنيات المناسبة.

كما أن كلا منها يؤكد على بعد يختلف تماماً عن الآخرين. ومن ثم يستحق التكريم. فمشروع «آيت أكتل» أبرز علاقة المهاجرين بالباقين: وأهمية التواصل الاجتماعى للمهاجرين مع مناطقهم الريفية.

وأبرز مشروع (المعماريون الحفاة) علاقة المهنة المعمارية بالمجتمع الفقير حيث جاء التأكيد على توظيف خبرة المعماريين مع المجتمع، دون الاهتمام بشهادة المعمارى الجامعية، ولكن بالتركيز على مدى تمكنه من التعامل مع الواقع.

أما مشروع مدرسة الدواجن فى غينيا فرغم بساطة النموذج المعمارى المستعمل، نجد فى داخله فكراً تنموياً ارتقى بالمستوى التعليمى للفقراء، وربّى فيهم حاسة الاعتماد على الذات اقتصاديا وأدى إلى تحسين وسائل البناء فى القرى المجاورة. ووجدنا أن نجاح المشروع اعتمد بالأساس على مشاركة المجتمع المحلى مع الوافد الأجنبى فى النشاط لإنجاح التجربة.

البعد الاجتماعى للعمارة

قرية الأطفال:

فكرة مؤسسة قرى الأطفال المعمارية SOS الاهتمام بالأيتام، والأطفال المهجورين وتقوم مشاريعها على تكوين منازل تؤوى من ٨ إلى ٩ أيتام ترعاهم موظفة حنونة، وتكون هذه المساكن نسيج القرية وتترابط وتتكامل قرية الأطفال ككل مع المدينة المحيطة بها، وتلتف المدينة ومجتمعها حول القرية، مما أدى إلى أن الأطفال عندما يكبرون يدخلون دون صعوبات فى نسيج المجتمع وسوق العمل.

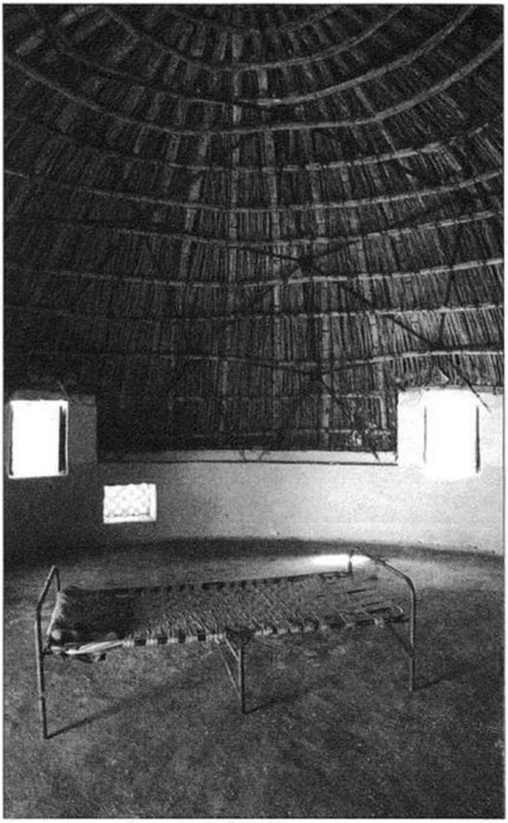
مركز أولبيا الاجتماعى

(إنطاليا، تركيا):

تفرد هذا المشروع بحل ثلاث مشكلات بتدخل معمارى فى مجمله بسيط ولكنه ناجح، وهذه المشكلات هى:

الربط بين المبانى المترامية بالجامعة، إيجاد بؤرة أو أكثر للتفاعل الاجتماعى، وإدخال عنصر إنسانى بيئى رقيق فى وسط سادته الأبنية المتعامدة.

أرادت جامعة البحر الأبيض بإنطاليا بناء مركز للنشاط الاجتماعى بالجامعة واهتم المعمارى ألا يكون الحل عبارة عن مبنى مستقل يضاف إلى المبانى المنفصلة الأخرى الموجودة، فالمفروض أن الحياة الاجتماعية بالمجتمع الجامعى جزء من العملية التربوية وليست منفصلة عنها. وجاء التصور ببناء شريط خطى يربط بين المبانى المختلفة



«كلية الحقاة»

الهند



«مزرعة النجاح»

غينيا

ويتكون الشريط من ممر للمشاه مغطى ببرجولا، ويجاوره الماء، ثم يتسع في مكانين لتكوين ميادين صغيرة تتواجد فيها حوانيت ومقاه وأماكن لأندية الطلاب. بالإضافة إلى الانفتاح على مدرج كبير (١٢٠٠ شخص) تستغله الجامعة والطلاب وأهل المدينة المحيطة بها.

وكان لهذا الكسر وتعامد توزيع المباني والمشايات وربطها مع المركز الاجتماعي تأثير كبير على زيادة التفاعل بين الطلبة، وبينهم الأساتذة وفتح الباب للتفاعل بين الجامعة وبين المجتمع المحيط بها.

إن أروع ما في هذا التصميم هو وجود بعد مريح للنفس الإنساني، وهو قناة ماء تقسم الممر الرئيسي للمركز الاجتماعي تتدفق عبر شلالات صغيرة من أعلى نقطة في الموقع مما يرطب المساحات المحيطة. وحرص المعماري جنكيز بكتاش على تزويد المساحات الشمالية للمركز ببركة كبيرة للمياه الساكنة يحيط بها مجمع المحاضرات ومطعم. ومن الناحية الجنوبية المقابلة تجويف صغير يضم درجات للجلوس وفي وسطه نافورة مياه يطل عليها برج ساعة.

الحفاظ على التراث:

كان الحفاظ على التراث دائماً محورا من المحاور الأساسية لفكرة جائزة الآغاخان للعمارة. وجاءت قرارات لجنة التحكيم في ٢٠٠١ مؤكدة لهذا المحور باختيار مشروعين يمثلان طريقتين متكاملتين للتعامل مع التراث والحفاظ عليه: مشروع إيراني لإحياء المباني القديمة في المدن التاريخية، ومشروع متحف النوبة بمصر، الذي يتعامل مع التراث من المنهج المتحفي.

إحياء المباني القديمة بالمدن الإيرانية:

المدينة مثل الكائن الحي، يجب أن تتجدد خلاياها. وحاجاتنا لاستعمال المكان تتغير عبر الزمان، وكثيراً ما نجهز على المباني القديمة ونزيلها راغبين في إفساح المجال لاستعمالات جديدة للأرض، ولكن كثيراً ما نجد أن هناك من بين هذه المباني القديمة عدداً يستحق الحفاظ عليه لما له من قيمة جمالية أو تاريخية.. والحل في هذه الحالة هو إعادة استخدام المبنى بما يتناسب واحتياجات الحاضر.. وهذا يحتاج لترميم المبنى واستعماله استعمالاً يتناسب مع المبنى كأثر ومع حاجات المجتمع. طبقت هذه التجربة في مدن أصفهان ويزد وتبريز وزنجان. والجديد في المشروع الإيراني هو المدخل المؤسسي، الذي جعل شراكة (٥١٪ منها للقطاع الخاص) تركز على مبانٍ أساسية في حي بذاته وتتولى العمل مع مشاركة المجتمع المحيط بالمبنى. وجاءت النتائج مبشرة بنجاح كبير يستحق الدراسة والاستفادة من هذه التجربة.

متحف النوبة:

نظمت اليونسكو حملة دولية عام ١٩٦٠ لإنقاذ آثار النوبة، شارك فيها المجتمع الدولي من خلال أربعين بعثة أثرية وتم إنقاذ ٢٢ أثرا من الغرق في بحيرة السد العالي التي اكتملت مع مشروع السد العالي عام ١٩٧١، ولعرض مكتشفات هذه البعثات تبنت مصر برعاية من اليونسكو إنشاء متحف النوبة وتراثها، والذي افتتح في ١٩٩٧، ومعروضات المتحف تبرز ثقافة النوبة منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى العصر الحديث. الجديد في المتحف أنه متحف للمجتمع المحلي قبل أن يكون رمزاً سياحياً، فهو يضم قسماً تعليمياً، هو الأول من نوعه في مصر، ينظم رحلات ومحاضرات وحلقات تعليمية لأطفال المدارس.

وموقع المتحف على مرتفع صخري في أسوان احترمه المعماري واستغله في تقديم صورة واقعية للبيئة والعمران النوبي من خلال تصميم المتحف وبنائه من مواد محلية، كما كان لتنسيق الموقع موضع مميز في رأي الجائزة.

التعامل مع البيئة:

كانت قضية البيئة دائماً من المحاور الكبرى لتفكير جائزة الآغاخان في عمارة المجتمعات الإسلامية. ونجد البيئة دائماً حاضرة في الحلول التي طرحتها المشروعات الفائزة بصورة أو بأخرى.

وجاءت هذه المجموعة من الجوائز مؤكدة لهذا التيار، من استعمال الطاقة الشمسية في المشروعات الريفية إلى تداخل العناصر الطبيعية في المعمار كما رأينا في متحف النوبة أو قرية الأطفال. ولكن هناك مشروعين اختيرا خصيصاً للبعد البيئي فيهما، أولهما فندق «داتاي» بماليزيا وهو محاولة ناجحة لاحترام البيئة المجاورة قدر الإمكان. وثانيهما حديقة «باغ فردوسي» بطهران.

فندق داتاي (ماليزيا):

يقال إن الغابات الاستوائية من أجمل ما في العالم، وهي من نماذج الطبيعة الخلابة، ومن ثم فإن بناء فندق سياحي حديث وكبير في الغابة الاستوائية يحتاج إلى حس مرهف حتى لا يتأثر النظام الإيكولوجي.

ويمثل فندق «داتاي» حلاً رائعاً لتكامل حاجات السياحة وحاجات البيئة. لقد كان قرارا جريئاً من المعماري الاسترالي «كيري هيل» أن يبني فندقاً في أخدود على شكل وحدات معمارية قائمة بذاتها محاولاً استغلال الأشجار كدعامات للمباني، ودون أن يمس أي عنصر من عناصر الغابة. وربط وحداته بممرات واحترم التقاليد المحلية في بناء الفندق، كما تخلل البناء تقنيات حديثة ومتقدمة لزيادة متانة البناء ولتوفير الخدمات للنزلاء أدى إلى لغة معمارية بليغة. ومن اللافت للنظر الآن أن الفندق أصبح جزءاً من مكونات الغابة فالألوان



حديقة «باغى فردوسى»
إيران

العتيقة بدأت تظهر على الأجزاء المعدنية والخشبية كما أن النباتات المتسلقة تنمو على أساسات الفندق الحجرية.

حديقة «باغ فردوسى» (طهران، إيران):

هذه الحديقة المسماة على شرف الشاعر الكبير (الفردوسى) على سفح الجبل المحيط بطهران، كبيرة جداً (٣٠ هكتارا) وهى ترتفع إلى ٣٠ مترا، مما جعل وجود العديد من السلالم وأماكن الراحة، واستخدامات المياه والفسقيات، والتماثيل والتكوينات الحجرية والنباتية بها أمراً طبيعياً. ويعبر ذلك عن تفاعل كبير بين المعمارى والبيئة، الذى احترم أنواع النباتات المحلية، وقد اختار منها أنواعاً تستطيع أن تتحمل فترات القحط مما أضفى الجمال على هذا المكان الذى تبناه أهل طهران. ونجد فى الحديقة طرزا تمثل ثقافات المجموعات السكانية فى إيران مثل الأذربيجانية والكردية والتركمانية والزاغروس مما يعكس اندماجها فى المجتمع.

جائزة الرئيس، المهندس «جيفرى باوا»

جاءت جائزة الرئيس تتويجاً للجوائز الأخرى وتأكيدا للاتجاه البيئى فى العمارة، وجائزة الرئيس تختلف عن باقى الجوائز إذ إنها لشخص تكريماً لجل عمله عبر مشوار الحياة وليست لمشروع بعينه، وهى لا تعطى فى كل دورة بل إنها حجبت فى أغلب الدورات.

وكان أول فائز بجائزة الرئيس المهندس المصرى حسن فتحى سنة ١٩٨٠ فى الدورة الأولى، وكان ذلك أول التكريمات الدولية الكبيرة التى منحت له، وكان الفائز الثانى المهندس العراقى «رفعة الجادرجى» سنة ١٩٨٦، والآن الفائز الثالث «جيفرى باوا».

وباوا مهندس معمارى رهيف الحس، من أسرة ماليزية مسلمة، انتقلت الأسرة إلى جزيرة سيلان (سرى لانكا حالياً) حيث ولد عام ١٩١٩ وبدأ محامياً، ولكنه اتجه للعمارة على كبر، وتخرج فى لندن وبدأ ممارسة العمارة فى سرى لانكا وعمره ٣٨ سنة.

وأعمال باوا تعتبر أعظم تعبير للعمارة البيئية، وتأثيره امتد إلى كل جنوب آسيا، وقد بيَّن فى إنجازاته تداخل الطبيعة والعمارة، ويعتبر منزله فى كولومبو ومزرعته على بعد ٥٠ كيلومترا منها، معلمين طوَّر كل منهما باستمرار على مدى ٤٠ سنة، الأول كمسكن والثانى كحديقة.

وكما قال الأمير كريم أغاخان فى ختام كلمته الختامية بعد الندوة العلمية التى نوقشت فيها المشروعات الفائزة:

«إن القضية هى قضية التميز: الامتياز فى الفكرة وفى التصميم وفى الربط بين المجتمع والعمارة ومراعاة البُعد البيئى والموروث الحضارى».

هكذا انتهت دورة أخرى من دورات جائزة الأغاخان للعمارة، وهى مثل الدورات التى سبقتها تأتى ببعض ما نقتنع به فوراً وبعض ما نختلف فيه ويصبح مثاراً للتساؤلات والاندهاش أحياناً. ولكن تبقى الجائزة مثار اهتمام الجميع لكونها قد قلبت كل الموازين، وتأتى دائماً فى جزء من المشروعات المختارة بعكس المتوقع من قبل الكثيرين، وهو ما يدعونا إلى إعادة تأسيس مدرسة معمارية معاصرة جديدة، وتنمية حاسة النقد المعمارى لدى المعماريين الشبان، وتنمية الفكر النقدى فى العمارة فى بلادنا. ■

الجزائر سنوات التسعينيات

الحرب غير المرئية

محمد الميلي

القول التالي ينطبق على ما يجرى فى الجزائر حاليًا، يجب أن يعرف الإنسان كيف يحدث التغيير من أجل أن يبقى كل شيء على حاله.

فقد دخلت الجزائر منذ ١٩٩١ فى دوامة عنف دموى، استمرت سنوات عديدة. وقد اتخذت وقائع تلك الدوامة طابعاً وحشيًا جعلها تبدو فى نظر كثيرين غير مفهومة. وقد كانت موضوع دراسات عديدة تجاوز عددها المائة كتاب فى السنوات الأخيرة.

ولاشك أن القارئ العربى فى حاجة لأن يتعرف على بعض هذه الكتب ولو من خلال عرض موجز أو تعريف مسهب.

وقد ترددت كثيراً فى أى الكتب أختار لـ«وجهات نظر»، واستقر الرأى أخيراً على واحد منها جذبنى عنوانه وهو «الحرب غير المرئية.. الجزائر فى سنوات التسعينيات».

مؤلفه هو «بنيامين ستورا»، وهو مؤرخ معروف تخصص فى دراسة الحركات الوطنية بالمغرب العربى وفى الجزائر خاصة. وكنت قد حضرت بعض محاضراته بباريس عندما كنت سفيراً لدى اليونسكو، منتصف الثمانينيات. وقد صدرت له عدة كتب مثل «مجندو حرب الجزائر»، «مخيالات حرب: فيتنام ـ الجزائر»، «الغانغرينا والنسيان»، «الجزائر: تكوين أمة»، «مصالى الحاج»، «الأبواب المائة للمغرب العربى» و«تحويل ذاكرة»، بالإضافة إلى كتاب عن «فرحات عباس» وضعه بالاشتراك مع زكية داود.

يمثل بنيامين ستورا جيلاً جديداً من الكتّاب الفرنسيين الذين ولدوا بالجزائر. ولأنه من يهود الجزائر فهو ينتمى إلى جالية جزائرية هاجرت أصولها إلى شمال افريقيا منذ العصور القديمة أى قبل الفتح الإسلامى.

يضاف لذلك أن أسرته كانت تقيم بمدينة «خنشلة» فى قلب الأوراس، قبل أن تتحول إلى مدينة قسنطينة حيث ولد مؤلفنا عام ١٩٥٠. ولاشك أن أسرته ـ مثل يهود المدن الداخلية ـ كانت ترتدى اللباس التقليدى الجزائرى، رجالاً ونساء، بالإضافة إلى إتقانها للعربية الدارجة التى كانت هى لغة التخاطب مع المسلمين، زيادة عن العبرية طبعاً. لم يتغير هذا الوضع إلا بعد العشرينيات عندما ظهر جيل مفرنس اللباس، نتيجة الاحتكاك بالأوروبيين، والتردد على الجامعات الفرنسية.

ورغم أن اليهود كانوا يتمتعون بالجنسية الفرنسية منذ عام ١٨٧١، فقد كانوا يعانون من المعاملة العنصرية للأوروبيين. كان هناك مثل فرنسى يقول: «الفرنسى يبصق على الإسبانى الذى يبصق على الإيطالى الذى يبصق على المالطى الذى يبصق على اليهودى الذى يبصق على العربى الذى يبصق على الزنجى». فكان هناك سلم للقيم يحدد وضع كل جنس اجتماعيًا.

وقد عانى يهود الجزائر كثيراً من التمييز، خاصة فى عهد حكومة فيشى. لكن تصرف الجزائريين المسلمين معهم أثناء ذلك كان يختلف: فقد حموهم بعد تطبيق القرارات النازية عليهم، وآووا يهود تونس الذين التجأوا إلى الجزائر هرباً من الاحتلال الألمانى.

وعلى الرغم من الحزازات التاريخية التى كانت موجودة بين المسلمين واليهود، منذ حادثة تسميم النبى (صلى الله عليه وسلم)، والتى كانت تتسبب من حين لآخر فى أحداث دامية. فقد حدث فى ٥ (أوت) أغسطس ١٩٣٤ أن دنس يهودى «الجامع الأخضر» الذى كان يدرس به الشيخ عبدالحميد بن باديس. هاج سكان الحى فقتلوا عدداً من اليهود بالسلاح الأبيض، فلم تكن لديهم أسلحة نارية. ورد اليهود الفعل بإطلاق النار على المسلمين. وقد صار يوم ٥ (أوت) أغسطس مثلاً يضربه الناس كناية عن التنكيل الشديد، فإذا بالغ رجل فى تهديد خصمه يقول له: «سوف أعمل فيك سانكسوت» أى ٥ (أوت) أغسطس.

حفل الشيخ ريمون

لكن الخصومات بين المسلمين واليهود لم تكن تستمر، كما لم تستمر الخصومات بين الأعراق الجزائرية بعضها ضد بعض. وهذا ما يفسر كون المسلمين أعطوا اليهود حماية، زمن فيشى، ولم يستغلوا قوانين فيشى ضدهم. وقد سجل اليهود هذا الدور للمسلمين واعترفوا به، وهذا ما يفسر كون بعض اليهود، التحقوا بجبهة التحرير الوطنى فى حرب التحرير، وإن كان عدد هؤلاء لا يتناسب مع أهمية الأقلية اليهودية فى الجزائر.

وعلى ذكر قسنطينة ويهودها يمكن التذكير بالضجة الكبيرة التى أثيرت بالجزائر منذ نحو سنتين، عندما انتشر خبر حفل غنائى يقيمه بمدينة قسنطينة المغنى الشهير «أنريكو ماسياس».

ومن أسباب الضجة أن هناك من سكان قسنطينة من كان يؤكد أن هذا الأخير أطلق الرصاص على جزائريين انتقاماً لمقتل خاله المغنى الشهير «الشيخ ريمون» الذى أطلق عليه فدائى النار.

أثناء الإعداد لتلك الحفل، خصصت قناة «فرنسا ٢» برنامجاً تليفزيونيًا مطولاً للحديث عن «الشيخ ريمون»، شارك فيها بعض الجزائريين من عشاق فنه، كما شارك فيها بناته، وهنريكو ماسياس الذى كان قد تزوج إحداهن. وقد اقترح أحد الجزائريين المساهمين فى البرنامج أن يقام الحفل الغنائى فى ساحة شعبية بأحد أحياء المدينة القديمة، هو الحى الذى قتل فيه الشيخ ريمون.. وذهبت بعض أفراد أسرته إلى المطالبة بمعاقبة الفدائى الذى أطلق الرصاص على الشيخ ريمون.

وقد اتخذت ردود الفعل ضد مشروع الحفل أشكالاً مختلفة، وعارض فيها عدد من الشخصيات السياسية حتى اضطرت السلطات إلى إلغائها.

لم يكن كتاب «الحرب غير المرئية» هو أحسن الكتب التى صدرت عن حرب الجزائر فى السنوات الأخيرة، بل لم يكن أحسن ما كتبه مؤلفه لماذا اخترته إذن؟ وجوابى أنه تناول جانباً لم يتعرض له غيره. جانب يسهب فى تفصيل فكرة الغموض التى أحاطت بهذه الحرب، والتى يلخصها شعار، نسيت قائله، وهى: «نخشى أن تكون رؤيتنا واضحة، كما نخشى أن يرانا الناس بوضوح».

فقد حاول «ستورا» أن يقدم تصوراً لهذه الحرب، ليس من زاوية السرد التاريخى وما يتطلبه من توثيق وتسجيل للوقائع، وليس من زاوية الأحكام القيمية وما تستند عليه من حشد للحجج واستعراض للمواقف، ولكن لأنه زاوج بين التاريخ والذاكرة من جهة، وبين تغْييب التاريخ وما ينجم عنه من محو للذاكرة الجماعية من جهة أخرى.

فهو يلاحظ ابتداء من المقدمة أن السلطات الجزائرية إذ حرّمت على وسائل الإعلام نقل ما يدور فى البلد من وقائع، جعلت الوطن الجزائرى يظهر على الخريطة «بقعة سوداء» يلفها الظلام، بعد أن كانت تضئ خضراء شمالاً وصفراء جنوباً، مشعة فى كل أحوالها. وهذا فى الوقت الذى أصبحت فيه صور التليفزيون هى التى ترصد الحياة، وتسجل التاريخ، وتشد الجماهير. ولكى يقرب لنا ما يريد أن يقوله من خلال ذلك العنوان، يستشهد بما كتبه Philippe Sollers الكاتب والمفكر المعروف، فقد كتب هذا الأخير مقدمة لكتاب نشرته منظمة العفو الدولية عند المفقودين عام ١٩٩٤ جاء فيها:

«كل حادث لا تستطيع أن يبرزه التليفزيون

La Guerre invisible:
Algerie Annees 90

(الحرب غير المرئية.. الجزائر فى سنوات التسعينيات)

Benjamin Stora
Presses de Sciences Po. Mars 2001.
120pp.

كان هناك مثل فرنسى يقول:
«الفرنسى يبصق على الإسبانى الذى يبصق
على الإيطالى الذى يبصق على المالطى الذى يبصق على اليهودى الذى يبصق
على العربى الذى يبصق على الزنجى». فكان هناك
سلم للقيم يحدد وضع كل جنس اجتماعيا

حال وقوعه، يصبح مشكوكاً في مصداقيته. إن الرأي الآن هي الشاشة.. إذا لم يكن الحدث موضوع نشر مصور فذلك يعني أن كل شيء محتمل».

ويعلق «ستورا» على ذلك قائلاً: «هل يمكن أن توجد حرب إذا لم يشاهدها المرء على الشاشة»؟ ثم يقول: «عندما يغيب تنوع الواقع يصبح من الصعب أن نقتسم التجربة الحسية لهذه الحرب. وبما أن الحدث يفتقر إلى فضاءات يظهر من خلالها، فهو يخرج بسهولة عند دائرة السرد. إن كل فرد في هذه الحرب الأهلية يوجد على مقربة من «جبهة القتال» بحيث يشعر أنه دوماً في خطر: فيكون من العبث ألا نشاهد فيها المحاربين الذين يشكلون أطراف النزاع».

حرب التسمية

أول ما يصدم الإنسان الذي يحاول أن يفهم ما يجري بالجزائر منذ سنوات عشر، مشكل يتصل باللغة، بالكلمات، بالتسمية: «ما نوع النزاع الذي يعاني منه هذا البلد؟» يتساءل المؤلف، ثم يضيف: «إن التردد في وصف النزاع والاختلاف حول الكلمة أو الوصف الذي توصف به الحرب، يترجم مدى الحيرة أمام الواقع. إن مختلف التسميات التي يسمى بها النزاع لا تساعد أبداً على توضيحه، بل هي على العكس تزيد في تكثيف العتمة حول النزاعات التي مزقت الجزائر» وبعد أن يتساءل: هل الجزائر في حالة حرب فعلاً؟ يقول: «ما هو مستوى عدد القتلى في المعسكرات المتنازعة الذي يسمح للمعركة ضد الإرهاب ألا تنعت بأنها حرب؟».

إن اغتيال عدد معتبر من المسئولين ومقتل أكثر من مائة ألف وهو العدد الذي أعلن رسميّا، يجعل من الصعب عدم التفوه بكلمة «حرب» لوصف ما حدث في الجزائر.

وحتى بعد التسليم بأنها حرب، فأي صنف من الحروب هي؟ هل هي حرب تقليدية بين جيش نظامي مخلص للنظام أو جيش من الثوار معتصمين بالجبال ومنظمين تنظيماً محكماً؟ كلا.. فالجيش الإسلامي للإنقاذ وهو القوة الوحيدة المنظمة فعلاً، لم يستطع أن يبلغ مستوى من التنظيم العسكري مهيكل بحيث يغطي كامل التراب الجزائري، أمّا منافسوه من الإسلاميين الذين يطلق عليهم «الجماعات الإسلامية المسلحة» فهم عبارة عن عناصر متفرقة، غير موحدة إيديولوجيّا ومشتتة جغرافيّا، وغامضة تنظيميّا. فهي جماعات مستقل بعضها عن بعض، لم تنجح في أن توحّد صفوفها تحت قيادة موحدة، وظلت أسيرة منطق عنف داخلي ما فتئ يتضاعف بعيداً عن أية اعتبارات سياسية. وهذا الوضع الذي اتسمت به جعل من السهل اختراقها وتوظيفها: فهناك عمليات ثار بين أفراد أو أسر أو عشائر لتصفية حسابات خاصة تتخذ طابع انتقام سياسي.. وهناك إعدامات تمارسها فرق دولة تختفي وراء قناع مكافحة الإرهاب. هل هي حرب عصابات؟ لا يذكر الناس أية معركة حاسمة حدثت في تاريخ محدد، ولا تسجل ذاكرتهم أي مكان تواجه فيه المعسكرات في قتال مكشوف.

هل يمكن أن نتحدث عن مجرد سباق دموي بين كتل مختلفة تتصارع من أجل الحكم والانفراد بتسيير شؤون الدولة؟ إن الثروات الضخمة التي توفرها حقول الغاز والبترول لا تفسر وحدها مستوى الوحشية الذي بلغه النزاع بحيث تضررت منه كل شرائح المجتمع. هل هي حرب «حضارة»؟ حرب بين أنصار الحداثة الجمهورية ودعاة التعصب الديني؟ بين غياهب الظلامية وأنوار العقلانية؟ يجب التنصيص على أن الحرب هنا ليست دينية، لأن ٩٨٪ من الجزائريين مسلمون».

ثم يقول إن هذه الحرب الدموية قد مزقت الحجاب عن عدد من الحقائق يتوالى بعضها وراء بعض: فوراء مشاريع مجتمعية دينية أو دنيوية يوجد صراع رجال وكتل؛ والمعارك من أجل السلطة تخفي وهانات اقتصادية وإرادات الشركات البترولية الكبرى؛ وخلف عنف وحشي وغير مفهوم يكمن تاريخ طويل من تقاليد العنف الذي عمل عمله في مجتمع تعرض للاستعمار دهراً، ويسعى - أي المجتمع - لبناء الأمة الجزائرية منفصلة عن فرنسا.

إن ثنايا الحرب بين العسكريين والإسلاميين تخفي حروباً أخرى حاسمة وغامضة في الوقت نفسه.. إنها لغز له زنادان. إنها حروب يختفي بعضها داخل بعض، مثل الدمى الروسية، أو الطاولات التي يخفي بعضها بعضاً حسب أحجامها المختلفة. حروب تمر بدهاليز مظلمة، تشتمل على مخابئ مزدوجة ومطبات عديدة.

هل هي حرب أهلية؟ إن النظام الجزائري وحلفاءه، وأحزاب المعارضة التي ترفض التفاوض مع الإسلاميين تحفظوا طويلاً على التسليم بهذا الوصف. في الوقت الذي لم تتردد بعض أحزاب المعارضة التي تدعو إلى التفاوض مع التيار الإسلامي في إقرار هذه التسمية.

إن حرب التسمية هذه تكشف عن المصاعب التي يصطدم بها من يحاول الإحاطة بجذورها ومعرفة طبيعتها وأهدافها. إن الطابع اللامرئي لهذه الحرب يرجع أيضاً إلى هذا الاضطراب في إعطائها اسماً محدداً.

بيتروديمقراطية الشعبية

لكن كيف بدأت هذه الحرب، ومتى انطلقت؟ إن بدايات الانطلاقة العبثية لهذه الحرب وسط حياة سياسية مبنية على مرجعيات عادية، يصعب تحديدها. لقد جاءت هذه الحرب دون أن تعلن عن نفسها، عبر خطوات ومراحل يكتنفها الغموض: انطلقت بصورة غير ملموسة، وتدرجت حتى بلغت ذروتها في ١٩٩٣ و ١٩٩٤.

ولا يستبعد بنيامين ستورا أن تكون البداية هي قلاقل أكتوبر ١٩٨٨، لأنها تمثل انهيار الحزب الواحد جبهة التحرير الوطني.

ثم يشير إلى الأحداث الخطيرة التي شهدتها سنوات ١٩٨٩ و١٩٩٠ و١٩٩١.. يقول عنها: إن الإسلاميين هم الذين تسببوا فيها.

وقد يكون من المناسب أن نُذكّر بأهم التطورات التي عرفتها الجزائر خلال تلك السنوات والتي لم يتعرض لها المؤلف، حتى نتصور ماذا يعني بالغموض الذي يكتنف بدايات الحرب.

كانت قلاقل أكتوبر ١٩٨٨ هي السبب في إحداث شرخ كبير تفاقمت معه الهوة التي تفصل بين النظام والشعب. فقد انهارت السياسة الوفاقية التي كانت قائمة على الريع البترولي. والواقع أن نذر هذا الشرخ بدأت قبل ذلك بسنتين: عبرت عنها أحداث مدينة قسنطينة في ١٩٨٦ بصورة صارخة: فقد انطلقت حركة احتجاجية من الجامعة، ما لبثت الجماهير أن احتضنتها فسيطر الجمهور على الشوارع، واختفت قوى الأمن عن الأنظار، وراح بعض الشباب يفرضون على أصحاب السيارات أن يدفعوا إتاوة إذا أرادوا مواصلة الطريق. وفي نفس الفترة تقريباً انطلقت حركة احتجاجية بالعاصمة ضد قرار هدم المنازل التي بنيت بصورة غير شرعية.

«ولو أن النظام كان يتقن قراءة الواقع ويحسن تأويل بعض الإشارات التي بدأت قبل ١٩٨٦، لكان من الممكن أن يتجنب الانفجار، إن هو وظف، في الإبان، عوائد البترول قبل انحسار أسعاره، في معالجة الأوضاع المتردية التي كان يعانيها الشعب ولم يكن يشعر بها المسئولون».

ذلك ما كان يقوله بعض أركان الجناح اليساري في جبهة التحرير، بعد أن أبعدوا عن السلطة. وبعبارة أخرى إن بدايات الأزمة ترجع إلى بداية الثمانينيات، وإن كانت بعض عواملها ترجع إلى منتصف السبعينيات. لكن ارتفاع سعر البترول - والغاز الذي ربط به - سمح للنظام بأن يشتري «السلم الاجتماعي». فقد بلغ سعر البترول أربعين دولارًا. وقد وظفت الحكومة مبالغ كبيرة من تلك العائدات عام ١٩٨١، لتامين المواد الاستهلاكية على نطاق واسع: وبذلك أعطت انطباعًا مزيفًا، بوجود رفاهية ينعم الشعب في بحبوحتها. وهذا ما جعل أحد الخبراء المهتمين بالشأن الجزائري وهو المستعرب جيل





كيبيل (Jilles Kepel) يصف النظام الجزائرى بأنه «بتروديمقراطية شعبية».

إلا أن الانخفاض الحاد فى سعر البترول وجه ضربة قاضية لميكانيزم الربط بين سلبية الجماهير والسعر المرتفع للبترول. فقد قيل عن مظاهرات أكتوبر ١٩٨٨ إنها كانت مبرمجة من طرف النظام كى يتخلص من الجناح الذى كان يعتبره مسؤولاً عن عرقلة ما كان يريده من انفتاح اقتصادى وسياسى.

ويرجح بعض المحللين هذا الاحتمال مستشهدين بالخطاب الذى كان ألقاه الرئيس الشاذلى بن جديد، قبل اندلاع الأحداث أعلن فيه عزمه على وضع حد للحرب بين الكتل فى قمة السلطة. ودون أن يذكر بالاسم زعماء الكتل المعنية فإنه ندد بسلوك وممارسات بعض المسؤولين فى حزب جبهة التحرير الوطنى «الذين أثبتوا عجزهم عن التكيف مع الأوضاع الجديدة».

ولم يكن محض صدفة أن تنطلق الشائعات بعد ذلك عن قرب تحرك الشارع، بل إن بعضهم تحدث عن مظاهرات صاخبة يوم ٥ أكتوبر، قبل حدوثها ببضعة أيام. ويقال إن بعض المواد الاستهلاكية الضرورية اختفت من السوق، نتيجة التخطيط لتأجيج السخط الذى يسمح بالتخلص من قيادة الحزب. ويقال إن عددًا من السجناء مجرمى الحق العام أطلق سراحهم لتأطير المظاهرات.

لكن الذين خططوا لتلك الأحداث لم يقرأوا حسابًا لاحتمال انفلات الأمور وخروجها عن السيطرة. ذلك أنهم تعودوا على الحسابات «المخبرية» والخطط التى تطبخ فى دهاليز الحكم دون مراعاة لمعطيات الواقع العنيد.

فقد اغتنم التيار الإسلامي هذه الفرصة ووجَّه المظاهرات لفائدته. علمًا بأن حزبه «الجبهة الإسلامية للإنقاذ» لم يكن قد تأسس بصفة رسمية، لكن شبكاته كانت موجودة وتشتغل من زمان.

وأمام انفلات الأمور نزلت دبابات الجيش إلى شوارع العاصمة، وكان ضحايا وسالت دماء.

بعد خمسة أيام من الغليان تم الإعلان عن خطاب يلقيه الرئيس الشاذلى يوم ١٥ أكتوبر ١٩٨٨، فكان كل الناس بما فيهم ممثلى أهم التيارات السياسية مشدودين لما سوف يقوله الرئيس. أعلن هذا الأخير عن تعديل الدستور وعن التعددية السياسية وعن فتح باب الترشيح للانتخابات البلدية والتشريعية لمرشحين من خارج حزب جبهة التحرير الوطنى، ولم تمر ساعات قلائل حتى انطلقت مظاهرات «تلقائية» هائلة ترفع صور الرئيس.

جبهة الإنقاذ، انتصار كاسح

أمكن للنظام أن يسيطر على الوضع مؤقتًا، وشكلت حكومة برئاسة قاصدى مرباح الذى كان مسؤولاً عن جهاز «الأمن العسكرى» فى عهد الرئيس بومدين، ثم أقيل لطموحه فى الرئاسة، أو هكذا تصور الرئيس بن جديد، وعينت حكومة حمروش التى وعدت بتنفيذ إصلاحات اقتصادية. ولم تمر خمسة أيام على تنصيب حكومة حمروش حتى نشرت الجريدة الرسمية مرسومًا رئاسيًا يعترف بـ «الجبهة الإسلامية للإنقاذ» حزبًا معترفًا به.

كان دخول الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى الساحة السياسية المكشوفة ونزولها إلى ميدان المنافسة الانتخابية يمثل تحولاً مهمًا بفعل الوزن السياسى الذى اكتسبته، والفضاءات الجغرافية والإعلامية التى احتلتها، وقلوب المستضعفين والفقراء التى نجحت فى استمالتها، مستغلة بصورة خاصة الزلزال الذى ضرب ضواحى العاصمة فى ١٩٨٩، وكانت تسعف الناس بتوزيع المواد الغذائية، وكان حضورها فى ميدان المساعدات أقوى من حضور السلطات التى بدت شبه غائبة. من هنا فجبهة الإنقاذ يمكن أن تشكل عدوًا شرسًا فى حالة الاصطدام، كما تمثل حليفًا من الوزن الثقيل فى حالة التحالف معها.

وهذا ما يفسر التكتيك الذى ضبطه مولود حمروش لصيانة النظام وتأمين مستقبله، وذلك عن طريق إيجاد أغلبية تسنده، حتى يمكن تمرير الإصلاحات. ونظرًا إلى أن المجلس الشعبى الوطنى يتشكل من نواب جبهة التحرير هو فى حاجة إلى هذه. لذلك حرص على أن يظل داخل جبهة التحرير، بل وضمن قيادتها إذ كان عضوًا فى مكتبها السياسى مع أربعة من وزرائه كان أبرزهم «سيد أحمد غزالى»، وزير الخارجية وعلى بن فليس وزير العدل (وهو حاليًا رئيس الحكومة).

وبما أنه لا يطمئن كل الاطمئنان لجبهة التحرير فقد سعى لكسب الجبهة الإسلامية للإنقاذ، حتى تدعمه فى مسعاه لتحجيم جبهة التحرير من جهة وإيجاد قوة سياسية فى الميدان تحد من نفوذ الجيش، من جهة أخرى. ولهذا يؤكد كثيرون أن حمروش أبرم اتفاقات سرية مع جبهة الإنقاذ.

لكن إذا كان الاتفاق بين الحكومة وجبهة الإنقاذ على تحجيم جبهة التحرير يمثل قاسمًا مشتركًا بينهما، فإنه محكوم عليه بالفشل فى المدى القريب: لأن جبهة الإنقاذ كانت تخطط للانفراد بالحكم سواء بالانتخابات أو بالقوة، كما كان يعبر عن ذلك شعار رفعته، كانت قواعدها تردده وهو: «دولة إسلامية بالصندوق أو بالبندقية».

وقد استشهد بعض الجنرالات على ذلك بما قاله عباس مدنى فى إحدى لقاءاته التليفزيونية: «يجب التخلص من هذا المسمار الذى علاه الصدأ»، يقصد بذلك الرئيس بن جديد.

وأثناء الإعداد للانتخابات التشريعية التى كانت مقررة فى يونيو ١٩٩١، غيرت جبهة الإنقاذ موقفها، وأصبحت تدعو إلى انتخابات رئاسية مبكرة، بناء على أن الانتخابات التشريعية لا أهمية لها ما دام الرئيس يستطيع أن يحل المجلس بمقتضى الصلاحيات التى يمنحها له الدستور.

وهذا ما يفسر الإضراب العام الذى دعا له الإسلاميون، فى صيف ١٩٩١، وما صاحبه من مظاهر عصيان مدنى، بدا معها أن جبهة الإنقاذ أو بعض قياداتها المتشددة تفكر فعلاً فى الزحف على الرئاسة.

أمام هذا الخطر لم يجد الرئيس بن جديد بدا من إعطاء الأمر بتدخل الجيش، فأقيلت حكومة حمروش «أى استقالت»، وعين سيد أحمد غزالى رئيسًا للحكومة.

آنذاك بدأت مرحلة جديدة، تراجعت خلالها جبهة الإنقاذ عن المطالبة بانتخابات رئاسية مبكرة، وقبلت أن تخوض غمار الانتخابات التشريعية التى تأجلت إلى ديسمبر ١٩٩١.

كانت جبهة التحرير منقسمة فيما يتعلق بالإعداد للانتخابات: أمينها العام السيد عبد الحميد مهرى كان يرى أن الانتصار فيها ولو جزئيًا يتطلب ترشيح وجوه جديدة تقترحها القاعدة على أساس ما تتمتع به من شعبية، ولو كانت من خارج جبهة التحرير، بينما كان هناك من لم يهضم فكرة التخلى عن النهج المألوف المتمثل فى «طبخ» القوائم الانتخابية بحضور ممثلى الأجهزة الأمنية.

وكانت الحكومة قد التزمت بشفافية الانتخابات، وهو ما طبقته فعلاً، كما تبين بعد ذلك.

وكما اختلفت قيادات جبهة التحرير والنظام ككل، فى أسلوب الترشيحات، اختلفت فى التخطيط لما بعد الانتخابات: فالأمين العام لجبهة التحرير اقترح إجراء اتفاق مع كل القوى السياسية على تشكيل حكومة ائتلافية بعد الانتخابات مهما تكن النتيجة. لأنه إذا لم تتحصل جبهة الإنقاذ على الأغلبية فلا خطر من دخولها للحكومة: وإن هى تحصلت على الأغلبية فإنها تكون ملزمة بالاتفاق. وإذا تراجعت وأخلت به، فإنها تكون معزولة إزاء الأطراف الأخرى. لكن هذا الاقتراح لم يقبل.

وقد يكون من المفيد التذكير ببعض الملابسات التى أدت إلى ذلك النجاح الكاسح لجبهة الإنقاذ، رغم أنها خسرت مليون صوت بالقياس إلى الانتخابات البلدية فى صيف ١٩٩٠، ذلك أن القانون الانتخابى قد تم تغييره، واعتمد تقسيم الدوائر الانتخابية الذى اقترحته جبهة الإنقاذ، والذى كان لفائدتها. لماذا؟ خصوصًا أن المجلس الوطنى كان يتشكل من نواب جبهة التحرير. هنا تختلف التأويل التى يذهب بعضها إلى حد اتهام النظام القائم بأنه كان يخطط لنجاح الإسلاميين. لكن مناقشة هذه المسألة يبعد بنا عما نحن بصدده.

كان الناس مشدودين مساء يوم ٢٦ ديسمبر لمحطات الإذاعة والتليفزيون من أجل أن يعرفوا نتائج المعركة الانتخابية. وكان قصر الحكومة غاصا بالصحفيين، جزائريين وأجانب.. وكان رئيس الحكومة يتابع النتائج عبر اتصالاته مع الولايات. وكان واضحًا من خلال الأسئلة التى يطرحها رئيس الحكومة على محاوريه فى الولايات عبر الهاتف، أن ما كان يهمه فى الدرجة الأولى هو أن يعرف: هل نجح مولود حمروش أم سقط. وقد سجل ذلك مراسل «لوموند» فى صحيفته.

وما إن عرفت نتائج الدورة الأولى للانتخابات التشريعية حتى صار واضحًا أن جبهة الإنقاذ تحصلت على أغلبية ساحقة سوف تتأكد فى الدورة الثانية، بما يسمح للبرلمان القادم أن يغير الدستور ويدخل عليه ما يراه من تعديلات. وقد اختلف رجال الحكم فى الموقف الذى يجب اتخاذه: المؤسسة العسكرية ترى ضرورة وقف المسار الانتخابى، ويدعمها فى ذلك اتحاد العمال، والأحزاب التى تنعت بـ «الديمقراطية»، وإن كانت تمثل أقلية ضئيلة. وعارض فى ذلك كل من الأمين العام لجبهة التحرير الوطنى السيد عبد الحميد مهرى، وكذلك السيد حسين آيت أحمد زعيم حزب القوى الاشتراكية. وعندما عرض الأمر على الرئيس بن جديد قال إما أن تنفذ سياستى وهو الاستمرار فى الانتخابات، وإلا فسوف أضطر إلى الاستقالة.

ومن بين الحجج التى تذرع بها دعاة وقف المسار الانتخابى، أن البلديات التى كانت تابعة لجبهة الإنقاذ رفضت توزيع مليون بطاقة انتخابية. يضاف لذلك ما صرح به بعض زعماء الإنقاذ، مثل الشيخ محمد السعيد الذى طلب من الجزائريين أن يستعدوا بعد نجاح جبهة الإنقاذ، لتغيير عاداتهم فيما يتعلق باللباس. ويُنسب للشيخ رابح كبير، عضو مجلس الشورى للجبهة الإسلامية للإنقاذ أنه قال ما معناه: إذا قررت كوادر جزائرية أن تهاجر إلى الخارج حتى لا تتعامل مع جبهة الإنقاذ، فإن هناك اثنى عشر ألف كادر إيرانى مستعدون لتعويضهم.

الجزائر بين انحسار الدولة وحصار الدول

يرى مؤلف «الحرب غير المرئية» أن تسلسل الأحداث وتوالى التقتيلات والمجازر من عام ١٩٩٣ إلى عام ١٩٩٨، «يتم فى غياب قراءة مفهومة» لأن مشاهد الحرب تبدو فى صورة انهدامات عميقة يستحيل على من يسقط فيها أن يخرج منها «حواجز عديدة تقوم فى وجه الملاحظ تمنعه من الفهم» كما أن الوحشية التى تفجرت «أحدثتْ بفعل تكدها المتكرر فوضى فى الرؤية واضطرابًا فى الذاكرة، بينما الموت يضيع فى متاهات يومية». إلا أن عدم وضوح الرؤية أى انعدامها أصلا لا يعنى أن آثار الحرب لم تكن منظورة: بالعكس، إنها تتصاعد من يوم لآخر، وتشتد وحشية، وتمتد إلى شرائح مدنية ليست لها مسئولية حكم أى سلطات إدارية، لتصبح حربًا على الرأى والفكر والقلم، بل والمجتمع. فاتخذت أشكالاً من العنف وبلغت درجة من الفظاعة لا يستطيع المرء أن يسمع تفاصيلها، وتعجز حساسية الإنسان عن تحملها.

فقد امتدت التقتيلات إلى سلك التعليم: فى شهر فبراير ١٩٩٢ اغتيل ما لا يقل عن ٢٤ معلمًا ومعلمة، بعضهم قتل فى القسم أمام تلاميذه. وأصبح الشباب المجند، وليس فقط رجل الأمن أو العسكرى المحترف، هدفًا للتقتيل والذبح. حتى أن بعض العسكريين لم يتحملوا بعض ما شاهدوه، مثل مشهد شاب مجند ذُبح فى آخر يوم من رمضان فى عام ١٩٩٤، حينما كان يعد طعام الإفطار، على يد جمع مسلح هجم على مركز للجيش بتواطؤ ضابط صف؛ وأكثر ما أثر فى العسكرى الذى يروى الحادثة لأحد الصحافيين، «منظر عجين.. السباجيتى» يخرج من حلقه قطعًا قطعًا كأنها دود».

إن اغتيال عدد معتبر من المسئولين ومقتل أكثر من مائة ألف وهو العدد الذى أعلن رسميا، يجعل من الصعب عدم التفوه بكلمة «حرب» لوصف ما حدث فى الجزائر

وبعد قتل المعلمين جاء دور الصحافيين والمثقفين والفنانين.

وشيئًا فشيئًا انحسرت الدولة وضاعت البقية الباقية من هيبتها. وأصبحت أكثر من دولة غربية تراهن على نجاح الإسلاميين فى استلام زمام الحكم.

لذلك قررت قيادة الأركان، حسب المؤلف «أن تشن عمليات كبرى ضد الفرق الإسلامية المسلحة، «فالحركة الإسلامية المسلحة» القريبة من جبهة الإنقاذ والمتمركزة فى منطقة «مفتاح» غير بعيد عن العاصمة هوجمت بقوة وضربت أحيانًا بالنابالم، مما أدى إلى تشتيت محاربيها» ويستخلص الكاتب أن ذلك كان أحد العوامل الذى دفع تلك الحركة إلى تصعيد عملياتها ضد الأجانب. فاغتالت خمسة موظفين فرنسيين فى ٣ أغسطس ١٩٩٤. واختطفت طائرة «إيرباص» تابعة للخطوط الفرنسية، مما دفع باريس إلى وقف رحلاتها الجوية إلى الجزائر، ثم تبعتها الشركات الإسبانية والإيطالية، وتلتها شركات الملاحة البحرية. وفى الوقت نفسه طلبت وكالة «رويتر» من مراسليها بالجزائر أن يغلقوا مكاتبهم ويوقفوا نشاطهم. وأصبحت باريس متشددة فى منح التاشيرات إلى الجزائريين فانخفض رقمها من ٨٠٠ ألف فى ١٩٩٢ إلى ما دون المائة ألف.

فى ظل هذا الانحسار والحصار، كان النظام يتعامل مع الأخبار بعقلية متخلفة، إذ فرض رقابة غير ذكية على كل ما يتصل بالحرب.

ويعلق بنيامين ستورا على ذلك بقوله:

«إن جوهر المعارك تبدو كأنها تدور فى فلك آخر.. مع الروايات التى تنقل أخبار الرعب والمجازر، تحوم ظلال وسحب تشيع الشك وتزرع عدم اليقين. كل ذلك يتسبب فى إثارة شعور هلع إزاء خطر يمكن أن يداهم المرء فى أى مكان ومن حيث لا يتوقع».

زيادة عن ذلك كله صدرت مجموعة قوانين منذ أبريل ١٩٩٠، فى عهد حكومة حمروش، أى قبل أن ينفجر العنف الدموى على نطاق واسع، ثم عززتها أخرى فى فبراير ١٩٩٢ زمن رئاسة محمد بوضياف، ومجموعة ثالثة فى ٣٠ سبتمبر أى بعد اغتيال هذا الأخير.

ويستشهد بنيامين ستورا بما كتبه الصحافى «طوماس فيرنز» فى صحيفة لوموند:

«يستحيل على الصحافيين أن يزوروا الجزائر، كما يستحيل عليهم أن يعرفوا الظروف والملابسات الحقيقية للتقتيلات؛ من المستحيل أن نعرف بالتدقيق من هم القتلة، ما هى دوافعهم، كما يستحيل الفرز بين أنشطة مختلف الفرق المسلحة، وعمليات الثار وتصفية الحسابات، والاختراقات».

تقنين التعتيم

وكان مجموعة القوانين التى أشير إلى تواريخها لم تكف، فحددت السلطات فى ٧ يونيو ١٩٩٤ «الخطوط الحمراء» التى لا تستطيع الصحافة أن تتخطاها. وبذلك أصبحت كل المعلومات التى تتصل بالوضع الأمنى، من بعيد أو قريب، خاضعة لرقابة مشددة، أى أن كل المواد المعدة للنشر فى الصحف المكتوبة، أو فى قنوات الإذاعة أو فى «الوحيدة» - وهو الاسم التى تطلقه الصحف الجزائرية على التليفزيون - تمر على رقابة يشترك فى ممارستها كل من وزارة الاتصال ووزارة الداخلية.

وفى هذا السياق صدر مرسوم - لم ينشر فى الجريدة الرسمية - ينص على تكوين «خلية اتصال مكلفة بالاتصال مع وسائل الإعلام تتولى صياغة وإذاعة البلاغات الرسمية المتعلقة بالوضع الأمنى، والتى يتم تبليغها عبر وكالة الأنباء الجزائرية» ثم ينص المرسوم على أن أية معلومة تتصل بأنشطة الإرهاب والتخريب لا ينص عليها بلاغ رسمى أو تصريح مسؤول، يمنع نشرها».

وتنص التعليمات التى صدرت للصحف فى إطار هذا القانون على «ضرورة أن يعمل الصحافيون على غرس النفور من الإرهاب ورفضه من طرف الضمير الجماعى» كما ينص على محاربة الشائعة والدعاية العدوة وقهرها، من أجل الحد من التأثير السيكولوجى الذى يتوقعه الإرهابيون من ترويج تلك الشائعات. وهكذا وُضِعَتْ تحت تصرف الصحافيين الألفاظ والتعابير والمصطلحات الملائمة لتصوير الحدث وصياغة الخبر، حتى لا يلجئوا إلى استعمال تعابير تخدم أيديولوجية العدو، دون أن يكونوا واعين لذلك. كما يجب نشر البلاغات المتصلة بالإرهاب فى الصفحات الداخلية مع تجنب نشر صور زعماء الإرهاب ودعاة العنف. وفيما إذا كان لا بد من نشر الخبر فى الصفحات غير الداخلية، فينبغى أن يكون حيز الخبر محدودًا وصغيرًا.

وفى مقابل ذلك يتعين على الصحافيين أن ينشروا على نطاق واسع الفظائع التى ترتكبها الأنظمة الإسلامية، وأن يبرزوا الشعوذة وأساليب النهب التى يمارسها أولئك الذين يتسترون وراء الدين من أجل ارتكاب أفعال إجرامية.

وفى ١١ فبراير ١٩٩٦ عمدت وزارة الداخلية إلى وضع هيئات رقابية فى المطابع تقرأ المواد الصحافية قبل السماح بتقديمها للطبع.

وقد عبر أحد الصحافيين، وهو «محمد بلحى» عن حيرة الصحافى أمام تلك المجموعة من القوانين والإجراءات فكتب فى يومياته (التى نشرت عام ١٩٩٧ تحت عنوان «يوميات جهنمية») - كتب يوم ٢١ مايو ١٩٩٤ ما يلى:-

«إن الظلام الذى يلف الخبر الأمنى يضايق عمل الصحافى. أى خبر يصلح للنشر؟ هل تنشر أخبار العمليات الإرهابية؟ منذ أسبوع، عشية عيد الأضحى وقعت حادثة فى بلدة «تلاغ»، إذ هوجم مركز فوز تابع للجيش، ولم نتحدث عنه. كيف يمكن التمييز بين الخبر والشائعة؟ إن الشائعة تتضخم فى حالة الفراغ وغياب المعلومة. إن مهمة رجل الاتصال أن يعلم الناس بما يحدث. إن المفزع فى الأمر هو هذه الكوة السوداء».

وفى الوقت الذى يرتفع فيه عدد الضحايا، يتضاعف عدد الكوادر التى تهاجر إلى تونس وفرنسا وكندا. وبما أن فرنسا متهمة بدعم النظام الجزائرى، فقد انتقلت إليها عمليات الإرهاب عام ١٩٩٥ فيما بين شهرى يوليو وديسمبر. وفى ١٩٩٦ اتخذت فى الجزائر عمليات الإرهاب شكلاً جديدًا: سيارات مفخخة فى قلب المدن، هجومات منتظمة على القطارات، تخريب السكك الحديدية، تفجير القنابل فى المحلات العمومية والشواطئ التى يقصدها المصطافون وفى الأسواق.

ويستشهد بنيامين ستورا بما كتبه الصحافى سعيد زهراوى عن عام ١٩٩٦ فى يومياته التى صدرت عام ٢٠٠٠ تحت عنوان «بين الرعب والأمل» إذ يقول:

«فى براقى من ضواحى العاصمة أفاق الناس فى الصباح الباكر على انفجار هدَّم مسجدًا بفعل قنبلة قوية المفعول. قتل ستة مصلين وجرح ثلاثة عشر. ولم يخب الاستنكار والسخط والغضب، حتى حدث انفجار رهيب فى مستشفى بلدة «عين بسام» أسفر عن مقتل خمسة أشخاص واثنين وعشرين جريحًا بين المرضى والمستخدمين. إن الجنون الدموى أثار أحاسيس لم يسبق أن عرفها الإنسان، هى مزيج من الخوف والغثيان. كما يتسبب فى الحيرة وعدم الفهم إلى درجة فقدان العقل، ويثير السعار بفعل شعور بالعجز إلى درجة لا تحتمل بما يتسبب فيه من ألم بدنى.. إن كل أحد يشعر باستمرار أنه على اتصال حميم بالموت اللا مرئى».

برمجة اللا تاريخ

ثم يتعرض الكاتب للمجازر التى توالت عام ١٩٩٧، ليحاول إثر استعراضها، أن يقدم تفسيره لهذا العنف غير المفهوم الذى يلفه الضباب. تفسيره هو عملياً مجموعة تفاسير، تتصل كلها بالتاريخ، سواء كان تاريخاً حضورياً أو تاريخاً مغيباً. التفسير الأول هو الاحتلال الاستعمارى وما ارتبط به من انتزاع للأرض التى أخذت من أصحابها ومالكيها لتمنح للأوروبيين: أكثر من مليون هكتار فيما بين ١٨٦٠ و١٩١٨، إن اقتلاع الجزائرى من أرضه ودفعه إلى أراض جرداء أو جبال مجدبة «يتسبب فى عنف خارق يبعث النعرات القبلية من أجل أن يحتمى بها الفرد دفاعاً عن وجوده، ومحاولة لاسترجاع أرضه المغتصبة».

إن اغتصاب الأرض، ومحاربة اللغة العربية، تؤدى إلى تمزق فى الشخصية وضياع فى الهوية وصعوبة فى التعبير عن ذلك كله، إن الترنح تحت كل تلك الضربات ينتقل من جيل لآخر حاملاً معه الطابع القديم للعنف الفلاحى. وفى الوقت الذى تفقد فيه القبيلة أراضيها، تفقد فيه الزوايا نظامها التربوى، فينفجر المجتمع، ويتعرض الفرد لجاذبية العنف ورغبة الأخذ بالثار.

وإذ حاول الاستعمار فرنسة الجزائر، كان حتماً عليه أن ينقل للمتعلمين من أبنائها فى مدارسها قيماً إنسانية مثل العدالة والحرية والمساواة، فتفاعلت هذه مع ما تبقى من ثقافة التراث لتصهر مجتمعاً جديداً يتنفس عبق الوطنية وينظم صفوفه استعداداً لساعة الصفر.

ومن المفارقات العجيبة، أنه فى الوقت الذى اطمأن فيه الاستعمار إلى أبدية وجوده بالجزائر، كما تدل على ذلك الاحتفالات بمرور قرن على الاحتلال يتحرك المارد خارجاً من القمقم الذى أغلقوه عليه ليقول: هاأنذا، متسلحاً بإرادة حياة، ساعياً إلى عقلنة ما يشعر به من رغبة فى عنف يرد له الاعتبار عبر البعد السياسى الذى يعطيه لتحركه وحركاته.

ويعتبر المؤلف أن هناك رجالاً ثلاثة، هم المؤسسون للحركة الوطنية الجزائرية المعاصرة: مصالى الحاج مسئول أولى الحركات المنادية بالاستقلال: نجم شمال أفريقيا فى ١٩٢٦، وحزب الشعب فى ١٩٣٧. وفرحات عباس الذى سعى إلى التوفيق بين مبادئ العلمانية وقيم الإسلام، وعبدالحميد بن باديس مؤسس حركة العلماء. «إلا أن الأهداف التى سعى إلى تحقيقها هؤلاء قُذف بها خارج التاريخ فى مجتمع ما بعد الاستقلال. وهكذا يولد التيار الإسلامى سنوات التسعينيات وسط الكوة المظلمة التى تمثل انعدام الذاكرة.. وبذلك يصبح التاريخ الحقيقى غير مرئى.. إن غياب التاريخ الذى رفضوا التكفل به يعزز إحساس العنف المتجدد باستمرار.. إن معركة سنوات التسعينيات بين الإسلاميين والنظام تدور دون أية خلفية تاريخية، مع تغييب كامل لصور ودور الآباء المؤسسين للأمة».

لكن تغييب الآباء المؤسسين لم يتم فى الاستقلال فقط: إذ أن بنيامين ستورا يرى أن «ثورة» ١٩٥٤ انطلقت فعلاً بإبعاد آباء الوطنية الجزائرية. وهنا يتطور العنف كمحرك أساسى للنشاط الثورى على حساب الفكر السياسى، الذى تراكم خلال سنوات وسنوات من العمل الدءوب والجهد الصبور والتثقيف العميق. وبذلك يبدو العمل السياسى وكأن الأحداث قد تجاوزته، ويبدو العمل المسلح كما لو كان هو الأسلوب الوحيد الأنجح لتحقيق الهدف المنشود.

فى مواجهة هذا النسيان المبرمج للآباء المؤسسين انصهرت فكرة تمجيد تقاليد الحرب التى انتصرت بالعنف ضد الدولة الاستعمارية.

فلا غرابة إذن أن يبعث النزاع الحالى الذكريات المتصلة ببطولات حرب التحرير ضد فرنسا وردود الفعل التى تسببت فيها. وبما أن الدين لعب دور الملجأ والملاذ خلال الاستعمار حتى صار حاضراً فى كل مظاهر التحدى للدولة الاستعمارية، فقد استعمل من جديد ليتحدى نظاماً يعتبر فى نظرهم معادياً للدين ومنحرفاً عن مبادئ نوفمبر.

يمكن القول، والحالة هذه أن عامل قطيعة مزدوجا مع النظام القائم قد تحقق: المرجعية الدينية التى كانت وراء تحريك أصناف المقاومة كلها المسلحة والسياسية من عهد الأمير عبدالقادر إلى أن تبلور الشعور بالانتماء إلى أمة ليست فرنسية ولا تستطيع أن تكون فرنسية، من جهة أولى، ومرجعية أول نوفمبر الذى يمثل بدوره، كما أشار المؤلف لذلك حسبما أوردناه آنفاً، قطيعة مع الماضى السابق إلى درجة التنكر لآباء الوطنية الجزائرية.

وقد كان من المفروض أن تصمد الدولة الجزائرية الحديثة والمجتمع الذى تشكل بعد الاستقلال فى وجه تلك الهجمات التى تريد أن تبنى دولة «إسلامية» انطلاقاً من الصفر، أو بعد تقويض الدولة الحديثة.

إلا أن ذلك لم يكن ممكناً لأن جيل الثورة والاستقلال لم يَعدْ الجيل



الموالى ليخلفه من جهة، ولأن مظاهر العجز والقصور فى تسيير الدولة مضافة إلى ما شاع من أخبار الفساد قد قضى على مصداقية النظام من جهة أخرى.

إن الملاحظة التى قدمها «بنيامين ستورا» عن التنكر للماضى وتغييب التاريخ الوطنى لا تخلو من وجاهة: فثورة نوفمبر زيادة عن كونها انطلقت من قطيعة مع أحد الأباء المؤسسين للوطنية الجزائرية الحديثة، أسفرت فى جملة ما أسفرت عنه من نتائج عن تمجيد للعنف الثورى الذى تطور إلى تمجيد لقوة السلاح مبطن بتحقير للعمل الفكرى وللسياسة بمفهومها النبيل.

وعندما استقلت الجزائر، ظهر للعلن الصراع بين الزعامات التاريخية لجبهة التحرير حتى حسم الجيش الأمر لفائدة أحدهم. وقد ارتفع آنذاك شعار يقول «لا تاريخ»، بمعنى أن المشاركة فى التخطيط للثورة لا ينبغى أن تكون هى المرجعية لمن يحكم. وقد ثار أحد المسئولين فى جيش التحرير آنذاك على هذا الشعار، وأراد أن يجسم سخطه ذاك، فأطلق على مولود ولد له فى تلك الفترة اسم «لا تاريخ». (وهو لايزال حيًا يرزق - أى الابن الذى اسمه لا تاريخ - وصار من رجال المال المعروفين فى أحد بلدان الخليج).

ويجب أن نسجل بأن تمجيد العنف لم يكن مقصوراً على الذين حملوا السلاح من الأميين وأنصاف المتعلمين، بل شارك فيه مثقفون، بعضهم عن حسن نية وبعضهم عن انتهازية.

فى هذا الصدد يمكن أن نشير إلى أن مفكراً ثوريًا كبيراً مثل فرانز فانون غذى هذا التيار، عن حسن نية، عندما أشاد بالعفوية الثورية للجماهير الفلاحية، وقد رددنا كلنا أو بعضنا، مقولته بشىء غير قليل من الإعجاب. إلا أن فرانز فانون كان معذوراً عندما صاغ فكرته تلك، لأنه استخلصها من مشاهداته فى الميدان بعد أن التحق بصفوف جبهة التحرير الوطنى، دون أن يكون قد اطلع على تاريخ الحركة الوطنية التى انطلقت، بكل تياراتها من المدن.

فما شاهده «فانون» من ثورية لدى سكان الأرياف، لم يكن نتيجة تلقائية ثورية، بل كان نتيجة عمل قام به مناضلون فى المدن ثم انطلقوا منها إلى الأرياف يبشرون بضرورة تقويض النظام الاستعمارى.

إن التعتيم على الماضى وعدم العناية بتاريخ الحركة الوطنية بعد الاستقلال قد حوّل حركة نوفمبر والتطورات السياسية التى سبقتها إلى صور مجردة، سرعان ما اختفت من ذاكرة الجيل الجديد، لأنها لم تكن مثبتة بوجود تاريخية معروفة، ولا بتدريس التاريخ بصورة حية. وقد سبق لى أن سجلت هذه الظاهرة فى مقال نشرته بصحيفة «المجاهد» فى الذكرى العاشرة للاستقلال، أى عام ١٩٧٢. وقد اعتمدت فى تحليل هذه الظاهرة على بعض ردود الفعل التى شاهدتها عام ١٩٦٦ عندما نزل إلى السوق فيلم «ريح الأوراس» للمخرج الجزائرى المعروف الأخضر حامينة.. الفيلم يروى قصة أم فقدت ابنها، اختطفه الفرنسيون ولم تعد تعرف عنه شيئاً. وقد تخللت مشاهد الفيلم وقائع حربية بسيطة، تتمثل فى ضرب طائرات عمودية فرنسية لبعض المعاشر الريفية وإطلاقها الرصاص على سكانها. وهى مشهد جد عادى لمن عاش حرب التحرير، خال من أى مبالغة. وقد لفت انتباهى آنذاك ملاحظة صدرت عن طلبة جامعيين كانوا يجلسون خلفى فى قاعة العرض، إذ قال أحدهم لزملائه: «كم نبالغ نحن الجزائريين، ما أظن أن فرنسا كانت تمارس مثل هذه العمليات» إذا كان مثل هذا التعليق يصدر فى السنة الرابعة بعد الاستقلال فما بالك فى سنوات التسعين؟

الريف

بين التهجير والهجرة

لقد عرفت الجزائر، خلال الحرب تهجير مئات الآلاف من الجزائريين واقتلاعهم من مواطنهم الريفية، وتجميعهم فيما كانت تسميها السلطات الفرنسية «مراكز التجمع»، تنفيذاً لخطة ساذجة. لأن بعض ضباط الجيش الفرنسى الذين كانوا فى حرب فيتنام، وأصبحوا يعملون فى جزائر الخمسينيات وبداية الستينيات كانوا موتورين من هزيمتهم فى فيتنام واضطرارهم للتفاوض بعد معركة «ديان بيان فو» الشهيرة التى وقعت يوم ٨ مايو ١٩٥٤، وكان هاجسهم وخوفهم الكبير أن يصابوا بهزيمة مماثلة فى الجزائر.

هذا ما يفسر تشكيل فريق من الضباط الفرنسيين اشتغلوا بفيتنام، تخصصوا فى «الحرب النفسية»، وبنوا نظريات «مخبرية»، تتلخص فى محاولة قلب النظرية المعروفة التى كان قد صاغها «ماوتسى تونج» عندما قال أثناء حربه الشعبية ضد «شان كاى شيك»: «جيش التحرير يجب أن يكون وسط الشعب مثل السمك فى الماء» فضباط الحرب النفسية قالوا: فى هذه الحالة يجب إفراغ الماء وتصريفه حتى يمكن أن نمسك بالسمكة. ومن هنا ظهرت فكرة «مراكز التجمع» التى تهدف إلى تجفيف الماء المحيط بسمكة جيش التحرير. وقد صدرت دراسات فرنسية آنذاك عن مراكز التجمع هذه، قدّر بعضها عدد المشمولين بالتهجير، خلال حرب ١٩٥٤ - ١٩٦٢ بها تقديرات مختلفة تتراوح بين مليونين وستة ملايين نسمة. عندما تحقق الاستقلال، كان عدد سكان المدن محدوداً بالنسبة لسكان الأرياف. ونظراً لانعدام برنامج اجتماعى وإعمارى من جهة، ولمباهج المدينة من جهة أخرى، فقد راح سكان الأرياف يهاجرون من مواطنهم تدريجياً ويتمركزون حول المدن الكبرى، خاصة العاصمة، فى أحياء تصديرية، أو فى بنايات شعبية ترفع بسرعة، بحيث ظهرت قرى ريفية كاملة حول العاصمة، تمركزت فيها أسر هاجرت من مواطنها وصارت تعيش اغتراباً مزدوجاً: بعدها عن موطنها، ومناخ المدينة التى ترى يوميًا مباهج الحياة فيها، ومظاهر ترفها الباذخ، دون أن تصيب من ذلك نصيبها.

وبذلك ظهر شعور حرمان بلغ أقصاه فى سنوات الثمانين.

هذه الجماهير المهمشة والمحرومة من أبناء الريف الذين اضطرتهم ظروف قاسية إلى الهجرة للمدينة، كانوا يجدون شيئاً غير قليل من المتعة عندما يستمعون إلى خطيب الجمعة، يهاجم النظام، ويندد بفساد رجاله، ويؤكد أن «الإسلام هو الحل».

أصبح المسجد مكان تثوير، استغلته جبهة الإنقاذ، أى رجالها حتى قبل الإعلان عن تأسيسها، إلى أقصى حد.

يضاف لذلك أن أدبيات النظام فى السبعينيات التى كانت تركز على دور «الريف» و«الفلاحين» فى نجاح الثورة وانتزاع الاستقلال، قد ساعدت فى الثمانينيات على تأجيج شعور الحرمان وتغذية السخط، فى نفس الوقت الذى ألهبت فيه خيال شباب لا عمل له ولا مستقبل، كى يتقمص شخصية جندى التحرير بالأمس، ويصبح اليوم بطلاً هو الآخر، عندما يخوض غمار حرب ضد النظام القائم.

إن هذا الوضع ساعد على تضامن المحرومين، فسقطت بذلك التصنيفات الماضية التى تقسم الناس إلى مناضلين ضد الاستعمار، وعاملين معه، ومتفرجين محايدين. لم يعد هناك ما يفصل بين ابن جندى جيش التحرير وابن العميل الذى رفع السلاح ضمن الجيش الفرنسى. اتحد الجميع فى ظل رغبة مشتركة لتحسين أوضاعهم، وطموح مشترك لبناء مجد جديد تكون نتيجته أحد أمرين أو كلاهما معاً: إحياء ماضى جيش التحرير، وسحق الذين تنكروا لمبادئه وأصبحوا من أركان نظام ممقوت.

تلك بعض من مظاهر المناخ الذى ظهرت فيه الفرق الإسلامية المسلحة. وهى نفسها التى اعتمدها مؤلف كتاب «الحرب غير المرئية» فى تعداد أوجه شبه (سطحية) بين حرب الأمس وحرب اليوم. وقد أشار الكاتب إلى ظهور مصطلح «الجهاد» فى حرب اليوم وحرب الأمس.

لكن قيادة جبهة التحرير فى الخمسينيات كانت تعتبر أن الفصل بين الدين والدولة ضرورى. وتلك القيادة نفسها هى التى قررت، منذ ١٩٥٦، إعطاء اسم «المجاهد» إلى الصحيفة الناطقة باسم الثورة المسلحة أو باسم جبهة التحرير الوطنى. وقد دافع آنذاك عن هذه التسمية، عبان رمضان، أحد الوجوه البارزة فى القيادة.

ولا يستبعد أن يكون المقصود باختيار هذا الاسم هو تيسير تعبئة الشعب والتحاق أبنائه بصفوف الثورة، على أساس أن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائرى من سكان الأرياف، وهم متدينون عادة، ومازالوا يذكرون ويتداولون حكايات أجدادهم الذين حاربوا الفرنسيين الذين جردوهم من أراضيهم تحت راية الجهاد.

إن الحرص على تشبه الفرق المسلحة فى التسعينيات بكفاح الأمس بلغ ببعضها حد المحاكاة السخيفة: فقد أعلنت «الجماعة الإسلامية المسلحة» فى ٦ أغسطس ١٩٩٤ تحرير الدراسة ومنع التلاميذ والأساتذة من التردد على المدارس. وعلى أساس هذا المنع أحرقت مدارس وخربت معاهد وقُتل معلمون ومعلمات. لأن هذه الجماعة المسلحة فى ١٩٩٤، أرادت أن تحاكى جبهة التحرير. ففى مارس ١٩٥٦ أصدرت قيادة جبهة التحرير أمراً إلى طلبة الجامعات بأن يضربوا عن الدراسة ويلتحقوا بصفوفها، لأنها كانت فى حاجة إلى الإطارات المتعلمة. أما الجماعات المسلحة فقد منعت الدراسة حتى فى المدارس الابتدائية.

مطبات التدخين والحجاب

لكن المؤلف يخطئ فى مسألة أساسية وذلك عندما يقول: «إن تصريحات بعض الزعماء الجزائريين التى تتسم بالاشتراكية وبأفكار عن العالم الثالث، لا يجوز أن تنسينا بأن جبهة التحرير الوطنى قد بسطت نفوذها من عام ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢، على السكان المسلمين، بمنع استهلاك التبغ وتحريم شرب الخمر باسم الإسلام، وكانت تعاقب المخالفين بتشويه خلقتهم».

يشير المؤلف بذلك إلى تعليمة، مجهولة المصدر، صدرت فعلاً عام ١٩٥٥ فى بعض ولايات الكفاح، بمنطقة قسنطينة تنص على تحريم تدخين السجائر ومعاقبة المخالف بجدع أنفه، وهى عقوبة سلطت بالفعل على بعض المخالفين.

إن هذا الأمر غير مفهوم. وقد نجد له بعض التفسير - وليس التبرير - فى الظروف التى شهدتها بعض ولايات الكفاح عن الأشهر العشرة الأولى من عمر الثورة المسلحة. فقد استشهد عدد من قادة نوفمبر فى الأشهر الأولى: باجى مختار، ابن مالك، ديدوش مراد، زيادة عن إلقاء القبض على رابح بيطاط ومصطفى بن بولعيد.

يضاف إلى ذلك أن إعلان حالة الطوارئ واعتبار الجهات التى ينشط بها الثوار «مناطق محرمة» تطلق فيها الطائرات النار على كل شىء يتحرك، فأصبحت الاتصالات بين عناصر الثورة صعبة جداً، وبالتالى لم يكن من السهل انتقال المعلومات بين القيادات والقواعد. فى ظل هذا الوضع برزت قيادات محلية تتصرف محليًا، وأصبح من الأمور العادية أن يصدر مسئول محلى تعليمات دون أن يرجع فيها إلى قياداته السياسية. هذا هو الإطار الذى صدرت فيه تعليمات غريبة، غير مفهومة، مثل منع التدخين - وكذلك النشوق - ومعاقبة المخالف بجدع أنفه، ومثل مقاطعة التجار اليهود، وكذلك التجار الذين ينتمون إلى المذهب الأباضى (وهو أقرب المذاهب الخارجية إلى السنة). وقد كان قرار منع التبغ صادراً عن تصور ساذج بأن يؤدى إلى انهيار الاقتصاد الفرنسى نظراً للدخول التى يوفرها للدولة! ومقاطعة التجار الأباضيين واليهود غير مفهومة أيضاً مادامت التجارة - مثل كل الاقتصاد - مرتبطة بفرنسا. ولا يستبعد أن قرار مقاطعة التجار يهدف إلى إنعاش تجارة غير اليهود وغير الإباضيين، من المسلمين الآخرين الذين يستفيدون حتماً من هذه المقاطعة.

وقد تصدى بعض الوطنيين فى المنطقة التى ظهرت بها دعوة المقاطعة هذه، فحاربوها خاصة ما يتصل بمقاطعة الأباضيين. كما حارب

إن ثنايا الحرب بين العسكريين والإسلاميين
تخفى حروباً أخرى حاسمة وغامضة فى الوقت نفسه..
إنها لغز له زنادان، إنها حروب يختفى بعضها
داخل بعض، مثل الدمى الروسية

بعض المشايخ الوطنيين عقوبة جدع الأنف على أساس أنها تشويه لخلقة الله.

وأتذكر أن مؤتمر «الصومام» اتخذ قراراً رسمياً، فى ١٩٥٦ بأنه لا معنى لتحريم التدخين، وأنه مسموح به. لذلك أعجب كيف لم يطلع باحث مثل «بنيامين ستورا» على هذه الحقائق، فنسب منع التدخين وجدع الأنف إلى جبهة التحرير من ١٩٥٤ـ١٩٦٢.

ويبدو أن ما كان يهمه هو العثور على مواطن الشبه بين الحربين. يؤكد ذلك محاولته أن ينسب مظاهر العنف إلى طبيعة الجزائرى، طبيعة تشكلت لديه منذ العهد الاستعمارى. من هنا يكون السعى لتسجيل أوجه الشبه قد حال دون أن يتأكد من بعض الوقائع. فى حين أن وثائق الصومام واضحة فى تحريم منع التدخين.

ونفس الحرص على تسجيل مواطن الشبه هو الذى جعله يوحى بوجود شبه بين الحربين فيما يتصل بالحجاب. فهو يقول إثر الفقرة المتعلقة بمنع التدخين ما يلى: «إنهم (أى رجال الحركات الإسلامية المسلحة) أصدروا نفس التعليمات ـ أى منع التدخين ـ مع إضافة تتمثل فى فرض الحجاب على النساء». ثم يضيف فى نوع من الإيحاء بوجود شبه مع حرب التحرير فيما يتصل بالحجاب فيقول: «إن مسألة الحجاب هذه بوصفها تأكيداً للذات ومقاومة للنظام، ليست جديدة، ويكفى أن نقرأ الفصل الأول من كتاب فرانز فانون «سوسيولوجية ثورة» (عنوان الطبعة الأولى كان هو الثورة الجزائرية فى عامها الخامس) وهو ـ أى فانون ـ أحد صانعى أيديولوجية جبهة التحرير، فقد كتب ما يلى: «بعد ١٣ مارس ١٩٥٨، استأنفت النساء ارتداء الحجاب، لكن بعد أن تجرّد من معناه التقليدى الصرف. فهناك إذن ديناميكية تاريخية للحجاب نلمسها بوضوح فى تطور الاستيطان الفرنسى بالجزائر. إن الحجاب ميكانيزم للمقاومة».. ذلك ما قاله فانون عن الحجاب، كما نقله المؤلف.

وهنا أيضاً نلمس فى استشهاد «بنيامين ستورا» بهذا النص لفانون عن الحجاب، أنه لم يكن محيطاً بأهم جوانب المسألة.

لأن ما كتبه فانون عن الحجاب، بعد ١٩٥٨، مرتبط بسياق تاريخى محدد، وملابسات ظرفية خاصة.

وأصل الحكاية التى يشير إليها فانون واعتمدها فى تحليله لمفهوم الحجاب هى التجمع الذى نظم فى مدينة قسنطينة لاستقبال الجنرال ديجول الذى ألقى بها خطابه الشهير بخطاب قسنطينة، الذى أعلن فيه برنامجه لتصنيع الجزائر. وفى هذا الخطاب دعا الجنرال أو أحد مرافقيه ـ فتيات الجزائر إلى نبذ الحجاب وكان ذلك فى أكتوبر ١٩٥٨.

ويبدو أن السلطات الفرنسية كانت قد طلبت من بنت أحد الموظفين فى إدارتها أن ترتدى الحجاب، وتقف فى صفوف المشاهدين الجزائريين، حتى إذا صدر طلب التخلص من الحجاب، ترمى هى بحجابها على أنه استجابة للطلب الفرنسى، وهذه البنت معروفة فى قسنطينة، ولم تكن قد ارتدت الحجاب فى حياتها أصلاً قبل ذلك اليوم.

وتجدر الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من الفتيات الجزائريات كن سافرات آنئذ، وأن عددهن كان فى تزايد.

لكن «مسرحية» نزع الحجاب هذه، جعلت عدداً من الفتيات السافرات، يرجعن إلى الحجاب، حتى لا يتصور الناس أن سفورهن استجابة لطلب الزعيم الفرنسى.

ذلك هو السياق التاريخى الذى احتلت فيه مسألة الحجاب عام ١٩٥٨ هذه المكانة التى لاحظها «فانون».

ربع الساعة الأخير

لقد استحوذ على المؤلف هاجس التشابه بين الحربين إلى درجة جعلته يسوق أوجه شبه، تحتاج إلى شىء من التدقيق والتمييز.

فهو يقول بعد النص الذى استشهد به من «فانون» عن الحجاب ما يلى:

«هناك أوجه شبه ومقارنات أخرى يمكن العثور عليها خاصة فيما يتصل بالعنف. فهناك عدة أشكال من العنف مورست فى هذه الحرب الأهلية تشبه ما حدث فى الحرب ضد الفرنسيين، مثل إرهاب المدن، وعمليات التمشيط العسكرية، والإعدامات بدون محاكمة، وممارسات التعذيب، والتصعيد فى الإرهاب، و«ربع الساعة الأخير».. فبعد أربع وعشرين ساعة بعد الهجوم على الحى المسمى «عين الله» بالعاصمة الذى أسفر عن مقتل خمسة فرنسيين، أكد الرسميون الجزائريون أن هذه العملية هى دليل على أن الإرهابيين الإسلاميين أصبحوا فى حالة عجز.. فهو يشير بربع الساعة الأخير، إلى التصريح الذى كان أدلى به الوزير المقيم بالجزائر والمسئول عن تسييرها مدنيًا، وهو «روبير لاكوست»: فقد أكد خلال نوفمبر ١٩٥٦ ـ أى بعد اختطاف الطائرة التى كانت تقل ابن بله ورفاقه ـ «إنه ربع الساعة الأخير» للثورة الجزائرية وأن هذه فى حالة احتضار. وشبّه ذلك بما قيل بعد الاتجاه إلى الاعتداء على الأجانب من طرف الإسلاميين، وأن هؤلاء أصبحوا فى حالة عجز فى حين أن الحالتين تختلفان اختلافاً كليًا.

ففى عام ١٩٥٦ كانت الحرب قائمة على أشدها. وقد انزعجت السلطات الفرنسية للتطور الذى سجله الكفاح المسلح إلى درجة جعلتها تتصور ـ وقد صدرت تصريحات بذلك ـ أنه لولا القاهرة لما تمكنت الثورة الجزائرية من الاستمرار. وبناء على ذلك كانت فرنسا أحد الأطراف الأساسية فى التخطيط لضرب مصر بعد تأميم القناة، لأنها تصورت أن العدوان الثلاثى، سوف ينهى الثورة الجزائرية. كان ذلك التصور قائماً على أساس أن عصب الحرب يوجد فى القاهرة. فإذا احتلت هذه تقطع الإمدادات عند جبهة التحرير بالسلاح والمال وإعداد الإطارات. فكيف إذا أضيف لذلك اختطاف الطائرة المقلة لأبرز قادة جبهة التحرير الموجودين فى الخارج.

إن «ربع الساعة الأخير» فى حسابات لاكوست يقوم على منطق واضح من وجهة النظر الفرنسية: فإذا ضربت القاهرة ونجح العدوان الثلاثى من جهة، واختطف قادتها فى الخارج من جهة أخرى، فذلك يعنى أن الرأس الجزائرى المدبر للثورة قد ضُرب، وأن قاعدتها الخلفية الأساسية قد انتهت، لأن كلا من اختطاف الطائرة وبدء هجمات العدوان الثلاثى على مصر، تم فى وقت واحد، فى ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦. فأى وجه للشبه بين «ربع الساعة الأخير» الذى اشتهر به لاكوست، وبين ما قاله مسئولون جزائريون فى أغسطس ١٩٩٤ تعليقاً على قتل مدنيين أوروبيين؟

والغريب أن نفس المؤلف يسجل ذلك بثلاث صفحات، أن الحركة الإسلامية المسلحة «خلافاً لجبهة التحرير فى حربها من أجل الاستقلال، لم تنجح فى أن تجر الأحزاب الجزائرية الأخرى لتأييدها، كما لم تنجح فى القضاء عليها. والإسلاميون المسلمون اليوم لم يتمكنوا على امتداد سنوات الحرب الأهلية من إقامة قواعد خلفية تزودهم «بجيش حدود» كما كان الأمر فى الماضى. كما أن الإسلاميين لم ينجحوا فى الحصول على دعم المثقفين الغربيين: كما لم ينجحوا فى إسماع صوتهم بالمحافل الدولية. فى حين أن السلاح الدبلوماسى كان أساسيًا فى معركة جبهة التحرير ضد الاستعمار».

وهو يسجل ويعترف بوجود فوارق أساسية بين الحربين، الحرب ضد الاستعمار ١٩٥٤ـ ١٩٦٢، والحرب الأهلية ١٩٩٢ـ١٩٩٩. لكنه يرى أن ما يجعل حرب اليوم شبيهة بحرب الأمس هو إلحاح الأحكام المسبقة والأفكار الجاهزة التى صنعت ذاكرة حرب الجزائر فى فرنسا. «إن حاجة التكرار من حرب لأخرى وبرمجة السوابق المَرَضية لم تسمح باكتشاف الأسرار الكبرى لحرب الجزائر. فقد كان التكرار بمثابة صدمات كهربائية متوالية لا تنجح فى الشفاء من اضطرابات الذاكرة». فهو هنا يتحدث عن صور الحرب الجزائرية كما تبدو فى المنظور الفرنسى.

إعادة تمثيل الأدوار

على أن هناك مسألة نجح فى الإلمام بها، تتلخص فى الكفاح الذى قادته المرأة الجزائرية ضد الاستعمار، والمعركة التى خاضتها ضد قانون الأسرة فى منتصف الثمانينيات، ووقوفها ضد العنف الذى يختفى وراء الإسلام. إن المقاومة المسلحة التى خاضتها المرأة بجانب الرجل، ضد الاستعمار حطمت الصورة التقليدية النمطية للمرأة الخنوعة بين جدران أربع. لكن ما إن تحقق الاستقلال حتى تناسى كفاحها. صحيح لقد احتلت مناصب فى القضاء وفى مختلف أجهزة الإدارة، لكن وضعها ما لبث أن عرف انتكاسة أخلّت بما جاء فى الدستور عن المساواة بين الرجل والمرأة. ففى عام ١٩٨٤ صادف المجلس الوطنى على قانون الأسرة الذى يجعل من المرأة كائناً قاصراً. ومازال هذا القانون معمولاً به حتى الآن.

لم يعارض الرجال هذا القانون علانية ولا تظاهروا ضده، لكن عدداً من النساء تظاهرن أمام المجلس الوطنى الذى كان يرأسه أحد رجال نوفمبر، المرحوم رابح بيطاط؛ وكان فى طليعة المتظاهرات، الزهرة ظريف، التى كانت سجنت خلال الثورة، لأنها كانت فدائية. والزهرة ظريف هى زوجة رابح بيطاط!

وفى عنفوان «الحرب غير المرئية»، لم تستسلم المرأة «بل قاومت ونظمت المعركة للتخلص منه ـ حسب تعبير عالمة اجتماع فرنسية ـ تعتبر أن «هذه الحرب ليست حرباً أهلية لكنها ضد المدنيين».

ويعلق المؤلف على ذلك قائلاً: «إن إعادة تمثيل أدوار الأمس، والحكايات التى تجتر ذكريات الحرب الأولى، لا تساعدنا فى التقدم على طريق فهم هذا التاريخ الحى.

كذلك الأمر بالنسبة للصور المستعادة. إن الحرب الراهنة تحدث أصداء تعيد ذكرى سابقتها بإيحاءاتها المتعددة واجتراراتها المنبعثة: كل مشهد يصبح موضوع تفكير، ومقاربة، وعودة وانبعاث. لكن تلك الأشكال لا تتوالى إلا لكى تتغير، والصور المستعادة المتكررة لا معنى لها إلا إذا اعتبرناها مبعث طاقات بصدد أن تحيا فى الحاضر. وإلا فإن التذكير دوماً بالماضى يبنى لوحة للتأويل تحول دون أن نتبين تقاطع التجارب الحاسمة».

وهذا ما يدفع الكاتب إلى التأكيد على أن الاتجاه العام يتمثل فى السير نحو «انعدام الرؤية» لأن الاختفاء عن أنظار الناس «يشكل سلاحاً مطلقاً فى يد الرائى الذى وحده يستطيع أن يرى الناس دون أن يراه الناس. إن الاختفاء عن الأنظار يسبب العجز عن إعطاء معنى للعالم الذى تجرى فى فضائه هذه الحرب. إن ذلك يجعلنا نتخيل مجالات هجرتها الحياة. هى عبارة فقط، عن موت وشمس، مما ينسينا هذا المجتمع الذى يعيش ويتحرك ويقاوم ويتساءل: «ما هى الجزائر بعد مرور أربعين عاماً على استقلالها؟».

ومهما يكن من شىء فالمؤلف يسجل فى النهاية أن هناك أمة، وإن تكن بعيدة عن أنظار الكاميرات «تعيد تحديد كيانها وتصلح ذاتها». «.. والمؤرخ من جهته يتساءل: إذا لم تكن هناك آثار مرئية، كيف يمكن لنا أن نمسك بما يهرب منا، وكيف نهتدى وسط المتاهات الدائرية للانغلاق والرعب التى تسحق جزءاً من المجتمع، وكيف يمكن لنا أن نتكهن بالمتغيرات الجارية؟».

ثم يجيب عن هذا التساؤل بالفقرة التالية:

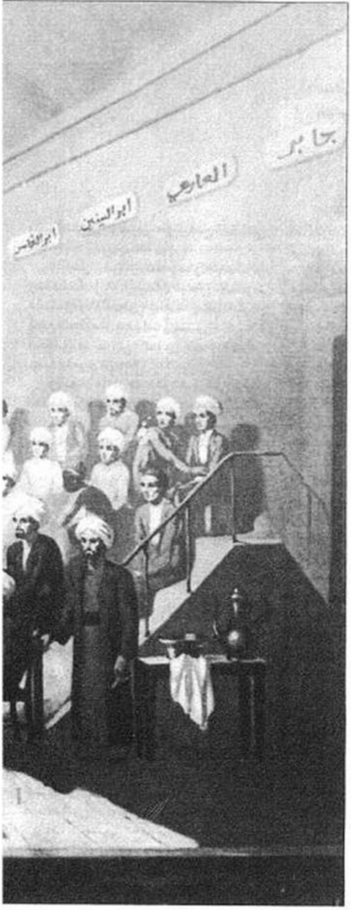
«تبقى أمام المؤرخ دائماً إمكانيات عديدة، كى يجتاز حواجز الرقابة الخارجية والرقابة الذاتية، وينطلق رأساً إلى الواقع. سوف يلجأ إلى شهادات الناس وما يقوله المشاركون فى الصراع؛ كما يلجأ إلى القراءة المتمعنة فى الصحافة اليومية، ومطالعة روايات الخيال، قصة مكتوبة كانت أو فيلماً، ويا لها من مفارقة عجيبة، فى فترة الانتقال هذه إلى القرن الحادى والعشرين: فى الوقت الذى يتميز بطوفان الصور خاصة التليفزيون، يجد المؤرخ نفسه مُجبراً على أن يعود إلى المناهج التقليدية القديمة ليحاول كتابة التاريخ الذى هو بصدد التكوين.

لكن يبدو أن «بنيامين ستورا» ـ وهو مؤرخ ممتاز ـ لم يطبق هذا النهج عندما كتب بعض مقاطع كتابه هذا، خاصة ما يتصل منها بمنع التدخين، وفرض الحجاب، و«ربع الساعة الأخير». ■

الأزهر والطب

«قواعد التنوير فى قواعد التحضير»

خالد فهمى





محمد الشباسى مؤلف الكتاب

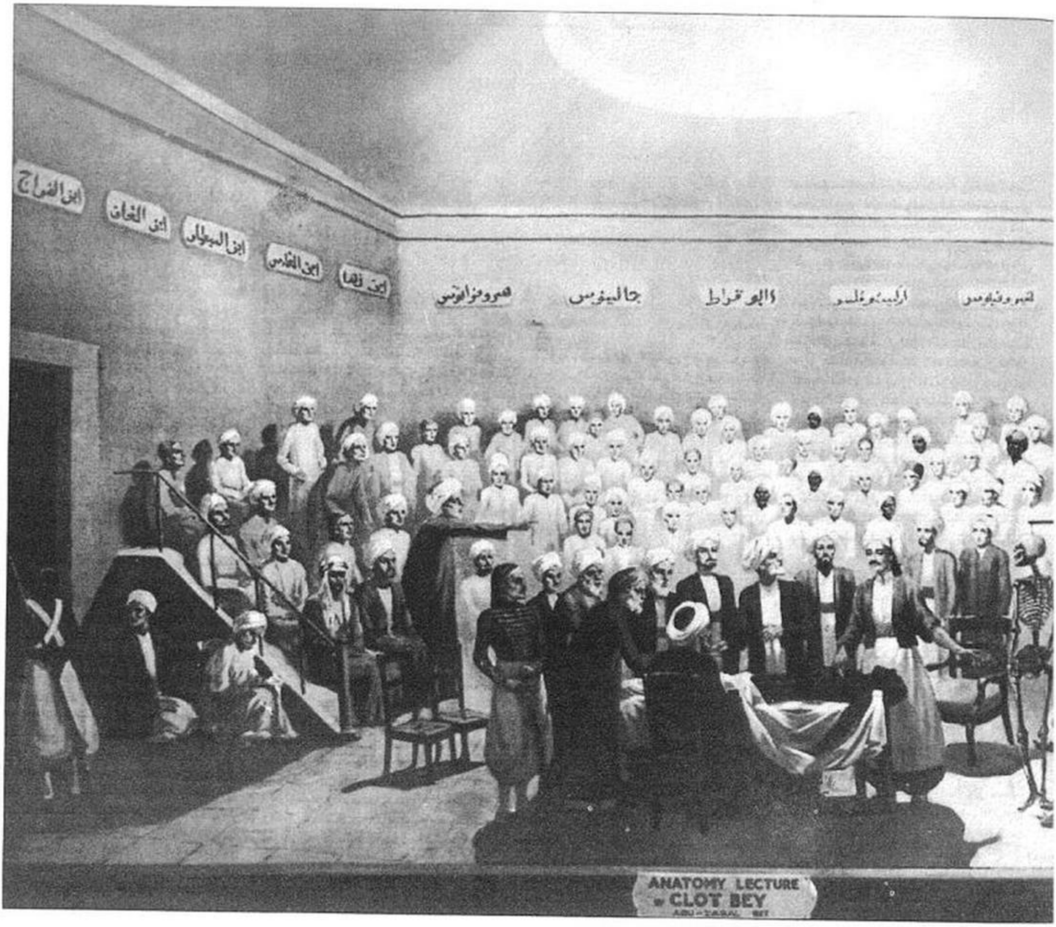
تاريخ المؤسسة الطبية المصرية الحديثة يكاد يكون مجهولاً. فباستثناء حدث قيام الفرنسى كلوت بيك بتأسيس مدرسة ومستشفى قصر العينى عام ١٨٢٧ لا يلم المرء بالكثير عن تاريخ هذه المؤسسة المهمة والحيوية، ولاسيما المشاكل والمعوقات العديدة التى واجهتها فى نموها

«إن للعلم انواعا لا تحصى، وافرادا لا تستقصى، وانفعها ما دل على وحدانية الصانع جل وعلا، ولم يورث المطلع عليه فسادا فى دينه ولا خللا. هذا ومن انفع العلوم واسناها، وارفعها واعلاها، علم الطب الذى به قوام البنية الحيوية، والقيام بالواجبات الشرعية. لكن لما كان لا يصل إلى المهارة فيه الطبيب، ولا يكون له فيه اوفر نصيب، إلا إذا مارس فن التشريح، وعرف جميع اجزاء البدن على الصحيح، وكانت المهارة فيه، ومعرفة ظاهره وخافيه، موقوفة على معرفة علم التحضير، إذ به يصير التشريح غير عسير، انتدب لكل من هذين الفنين الشاب الأمجد، والذكى اللوذعىّ الأوحد، الطبيب النطاسى، والماهر الأسى، محمد افندى الشهير بالشباسى، معلم التشريح والتحضير فى المدرسة الطبية، فى الديار المصرية، وهو احد من كمل تلقى علم الطب بباريز قاعدة المملكة الفرنساوية، وقد انتخبه لهذين العلمين من منح من العلوم الطبية باكمل منحة، معلمه الأول كلوت بيك مير اللواء كشاف عموم الصحة، وذلك لما يعلم من براعة الأفندى المذكور ومهارته، وحذاقته وفطانته، وقوّة قلبه وجسارته، ودراءته بجميع العلوم الطبية لاسيما هذان العلمان فإنه لكثرة ممارسته لهما، والاطلاع على دقائقهما و حقائقهما، كان أولى بتعليمهما والتاليف فيهما...»

رسالة التنوير فى قواعد التحضير
محمد الشباسى
بولاق. دار الطباعة. القاهرة. ١٨٤٨

بهذه الديباجة المسجوعة استهل كتاب رسالة التنوير فى قواعد التحضير الذى ألّفه محمد الشباسى، معلم أول التشريح والفسيولوجيا فى مدرسة الطب البشرى الملحقة باسبتالية قصر العينى والذى طُبع بدار الطباعة العامرة الكائنة ببولاق مصر القاهرة فى شهر رمضان من شهور عام ١٢٦٤، الموافق اغسطس ١٨٤٨ فمن هو هذا «الطبيب النطاسى، والماهر الأسى، محمد افندى الشهير بـالشباسى»؟ وماذا دفعه لتاليف هذا الكتاب؟ ومن الذى طلبه وقرأه؟ وكيف قرأه جمهوره واستقبله؟ تلك هى بعض الأسئلة التى يتناولها هذا المقال، بهدف التعرف، ليس فقط على الكتاب ومؤلفه، ولكن أيضاً على موضوعه. ذلك أن تاريخ المؤسسة الطبية المصرية الحديثة يكاد يكون مجهولاً. فباستثناء حدث قيام الفرنسى كلوت بيك بتأسيس مدرسة ومستشفى قصر العينى عام ١٨٢٧ لا يلم المرء بالكثير عن تاريخ هذه المؤسسة المهمة والحيوية، ولاسيما المشاكل والمعوقات العديدة التى واجهتها فى نموها. ويحاول هذا المقال من خلال عرض بعض المواضيع التى يتناولها هذا الكتاب الشيق أن يفحص مشكلة قلما تناولها المؤرخون المصريون فى دراستهم لتاريخ إدخال الطب الحديث فى مصر وتدريسه، وهى موقف الدين من التشريح. فمن المعروف أن الطب الحديث مبنى على علم وظائف الأعضاء وأن هذا العلم يعتمد على التشريح. كما يشاع (على عكس ما تثبته الوقائع التاريخية كما سيتضح فيما بعد) أن الكنيسة فى الغرب كان لها موقف معاد للتشريح بحجة أن العبث بالجسم من شانه أن يمنع القيامة والبعث بعد الموت. فهل وقع تناحر بين الإسلام والطب الحديث عندما بدأ تدريس الطب اعتمادا على التشريح وفتح الجثث، بدلا من الاعتماد على كتب ابن سينا وجالينوس وأبوقراط؟ لن يحاول هذا المقال أن يجيب عن هذا السؤال بالبحث فى موقف الفقه من التشريح، ولكن بمحاولة التعرف على موقف العلماء ورجال الدين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر من مؤسسة قصر العينى الجديدة ومن القائمين عليها ومما كان يجرى فيها.

وهنا تكمن أهمية الكتاب الذى بين أيدينا، إذ أن الشباسى، شانه شان أغلب زملائه الذين تخرجوا فى الدفعات الأولى من مدرسة أبى زعبل (قبل أن تنتقل إلى مقرها الجديد، قصر



محاضرة في التشريح

العيني، عام ١٨٣٧ وتُعرف به). كان في الأصل طالباً أزهريًا اختاره الأزهر لإلمامه بالقراءة والكتابة. وبالتالي تمكننا قراءة رسالته في قواعد التحضير (والمقصود بالتحضير هنا هو تحضير الجثة للتشريح) من الوقوف على أهمية خلفية الشباسي الأزهرية لعمله كمعلم أول التشريح والفسيولوجيا في مدرسة قصر العيني.

المؤلف

كان مؤلفنا هذا طالبا بالأزهر والتحق بمدرسة الطب فور تأسيسها بأبي زعبل في ١٨٢٧، ويبدو أنه كان متفوقاً على أقرانه، لأنه اختير للسفر إلى فرنسا في بعثة عام ١٨٣٢ الطبية التي سافر معها كلوت بيك بنفسه والتي قامت الجمعية الطبية الفرنسية بامتحان أعضائها الاثنى عشر. أما تاريخ عودته إلى مصر فمُختلف عليه: فالشيّال يقول إن عودته كانت في عام ١٨٣٨، أما الدكتور نجيب محفوظ فيقول، اعتمادا على الوثائق التاريخية التي كانت محفوظة آنذاك في قصر عابدين، إنه لم يعد إلا بعد ذلك بعامين، أي في عام ١٨٤٠ وفور عودته مُنح رتبة بكباشي وحُددت أجرته بعشرة جنيهات شهريًا. وكما يقول الشباسي نفسه في فاتحة كتابه فإن أول تعيينه كان كمدرس في مدرسة الطب «أعلم التشريح والفسيولوجيا...وأعطاني (كلوت بيك) بالاسبتالية الكبرى (أي قصر العيني) عيادة الأمراض الزهرية (أي التناسلية)».

وكان على خريجي قصر العيني عند تخرجهم، وقبل تسلمهم لمهام وظائفهم الميرية الجديدة، أن يحلفوا «يمين أبوقراط» (The Hippocratic Oath)، المنسوب إلى الطبيب الإغريقي أبوقراط المعروف بأبي الطب (٤٧٠-٣٦٦ ق.م.)، والذي يردده طلبة الطب في العديد من جامعات العالم حتى يومنا هذا عند استلامهم لإجازاتهم العلمية. وإليك الترجمة العربية (عن الفرنسية) للقسم الذي أمر كلوت بيك بتحريره حتى يتسنى لتلامذته «أولاد العرب» (أي المصريين) أن يقسموا به:

هذا عهد الأطبا

اقسم بالله العظيم ونبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم على انى اكون اميناً حريصاً على شروط الشرف والبر والصلاح في تعاطى صناعة الطب وان اسعف الفقرا مجاناً ولا اطلب اجرة تزيد علي اجرة عملى وانى إذا دخلت بيتاً فلا تنظر عيناى ماذا يحصل فيه ولا ينطق لسانى بالأسرار التى يامنونى عليها ولا استعمل صناعتى في إفساد الخصال الحميدة ولا اغويها على الذنوب ولا اعطى سُمّاً البتة ولا ادل عليه ولا اشين به ولا اعطى دوا فيه ضرر على الحوامل ولا إسقاط لهن واكون موقراً وحافظاً المعروف مع الذين علّمونى ومكافئاً لأولادهم بتعليمى إياهم ما تعلمته من آبائهم ما دمت حريصاً على عهدى واميناً على يمينى فجميع الناس يعتبرونى ويوقرونى، وإن خالفت ذلك فاكون المرذول المحتقر، والله شهيد على ما اقول.

ويبدو من كلام الشباسي عن نفسه أنه كان أميناً في مهنته محافظاً علي عهده إذ يذكر في فاتحة كتابه أنه «(نجح) في المداواة بكل طريقة مرضية، فادنى شيء فعلته أني اجتهدت في معالجة الفقراء والمساكين من أهالي المحروسة وما يليها، حتى شفى بمعالجتي الكثير من أهاليها...» إلا أن سجلات قصر العيني المحفوظة في دار الوثائق القومية تعطي لنا انطباعاً مختلفاً بعض الشيء عن تلك الصورة المثالية التي يقدمها الشباسي عن نفسه، إذ تسجل لنا واقعة يمكن اعتبارها حالة إهمال طبي كان صاحبنا مسئولاً عنها. فقد مرت عليه حالة تورم في «كيس» (أي صَفَن) مريض يدعى إبراهيم أغا الخزرجي، فأجرى له الشباسي

عملية جراحية بغير إذن منه أو من أقاربه. وفى ذلك الوقت لم تكن موافقة المريض شرطا لإجراء العمليات الجراحية. ولكن شاء حظ الشباسى العاثر أن يموت المريض بعد أربعة أيام من إجراء العملية وأن يقيم أهل المتوفى دعوى شرعية عليه اتهموه فيها بالتسبب فى وفاة مورِّثهم وطالبوه بما تقتضيه الشريعة: الدية أو القصاص. نُظرت الدعوى، كما جرت العادة آنذاك، فى كل من المحكمة الشرعية و«شورى الأطباء»، وكانت تلك بمثابة وزارة الصحة، وكان من ضمن اختصاصاتها التحقيق فى المخالفات المالية والإدارية والمهنية للأطباء. وبالرغم من أنه «اتضح من أوراق التحقيق... أنه حصل حسن شهادة فى حق الحكيم المذكور وصار صرف النظر عن الدعوى من الأقارب» إلا أن خبر الواقعة وصل إلى الخديو عباس، فأمر «بوضع قانون فى حق الحكما لأجل عدم وقوع مثل ذلك من الأمور غير المرضية». وقد نص البند الأول من هذا القانون على «أنه لا يجوز بوجه من الوجوه التجربة وإجراء عملية التشريح جبراً من (أى على) الأشخاص الذى على قيد الحياة وبالاقتضى (أى وإذا لزم) تجربة وإجراء التشريح وتحصيل التقوية للصناعة فإنه من (أى على) الأشخاص الذى توفوا...» ويتضح من هذا النص أن الخديو عباس لم يقتنع بالحجج التى كان الأطباء يقدِّمونها (والتى ما زلنا نسمعها منهم إلى الآن) بأنهم أدرى بجسم المريض منه وأنهم وحدهم القادرون على تحديد مصلحته، بالإضافة إلى الرأى الآخر الشائع فى كل المستشفيات التعليمية والذى يذهب إلى القول بأن العمليات الجراحية مهمة لتعليم الأطباء المبتدئين واكتساب الخبرة، وأنه بذلك «تحصل التقوية للصناعة». فكان رد عباس على تلك الحجة الواهية ألا يكون ذلك على حساب حياة المريض. وأضاف فى البند الثالث من القانون أن من ينتهك حرمة المريض على هذا النحو يُعاقب بالنفى إلى فيزاوغلى فى السودان «بقيد الحياة بشرط لا يشتغل فى شغل حتى يصير عبرة للغير وموجباً لانتباه غيره...».

ولا نسمع عن الشباسى بعد تلك الواقعة كثيراً ولكن من المعروف أنه كُلف بعيادة المستشفيات العسكرية والملكية (أى المدنية) وأن شركة قناة السويس اختارته طبيباً لموظفيها، وقد عمّر الشباسى طويلاً وكانت وفاته فى ١٨٩٤ عن عمر يناهز التسعين.

الكتـــــــاب

وكان الشباسى قبل تأليفه للتنوير قد قام بترجمة مرجع فرنسى مهم عن التشريح هو كتاب جان كروفيلييه Jean Cruveillier الذى كان قد صدر فى عام ١٨٢٩ بعنوان: Anatomie pathologique du corps humain، فصدر بالعربية بعنوان: التنقيح الوحيد فى التشريح الخاص الجديد فى عام ١٨٥٠ فى ثلاثة مجلدات ضخمة بلغ مجموع صفحاتها ١٣٢٠ صفحة. وبذل كل من الشيخ سالم عوض القنواتى الذى عُرف «بالمصحح الأول» والشيخ محمد عمر التونسى، «الباشمصحح»، مجهوداً ضخماً فى تصحيح لغته وتهذيبها حتى صارت سلسة سهلة الفهم. ولكن يبدو أن مطبعة بولاق لم تتمكن من طباعة الرسوم والأشكال التوضيحية التى تميّز بها الأصل الفرنسى والتى لا تُضارع فى تاريخ الرسوم التوضيحية الطبية.

وبعد فراغه من ترجمة نص كروفيلييه قال إنه استشعر الحاجة الماسة لتأليف كتاب فى التحضير «والذى أحوجنى إلى تعب التأليف، وترك ترجمة بعض التصانيف، أنه لا يوجد فى كتب الفرنساوية كتاب فى التحضير مفيد، يستغنى به عن غيره مع أن ذلك آكد من أكيد (أى: مؤكد تماما)، لأن أغلب كتب التشريح عندهم خالية عن ذكر كيفيات التحاضير، ولو كانت مؤلفة من المشاهير... فلذلك ألفت هذا الكتاب الجليل.... فعلى تلامذة التشريح أن يبدأوا قبله بعلم التحضير، وأن يتعلموا أسماء الأعضاء ويعرفوها معرفة خبير، كما يجب أن يعرفوا الاحتراسات اللازمة لتحضيرها، ومعرفة سهلها من عسيرها، فبذلك يسهل عليهم معرفة أجزاء الأشلاء والمطالعة فى كتب التشريح.... ولا يرغب التلميذ فى التشريح إلا إذا مارس التحضير، ومتى اجتهد فى ذلك كان الأمر غير عسير، وبالجملة فالتشريح روح العلوم الطبية، وبدونه لا يعرف الطبيب حقيقة الأعضاء الآلية.»

تاريخ التـــشـــريح فى قـــصـــر العـــينى

لم يكن التنوير فى قواعد التحضير الكتاب الوحيد عن التشريح الذى طُبع فى مطبعة بولاق فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. فالشيّال يذكر ستة كتب أخرى تُرجمت كلها عن الفرنسية وطُبعت فيما بين عامى ١٨٣٣ و ١٨٥٠ هذا بخلاف الكتب التى تتناول موضوعات طبية أخرى، والتى بلغت فى إحصاء الشيّال ٥٤ كتاباً. وكان أول كتاب فى التشريح يُطبع فى مصر هو «القول الصريح فى علم التشريح» الذى وضعه بالفرنسية الدكتور بايل Bayle والذى طُبع فى بولاق عام ١٨٣٣، وكان أيضا أول ما تُرجم وطُبع من كتب الطب فى مدرسة الطب، مما يدل على المكانة المهمة التى احتلها علم التشريح فى مناهج التعليم فى المدرسة، الأمر الذى نجد له صدًى فى كتابات وترجمات الكثير من الأطباء. فعيسوى النحراوى مثلاً يقول فى مقدمة كتاب الدكتور كلار الذى ترجمه بعنوان التشريح العام: إن التشريح «عليه مدار أصل الطب والأحكام»، كما يقول الشباسى فى مقدمة رسالة التنوير إنه «من المعلوم عند الأمم المتمدنة أنه لا يتقدّم الإنسان فى الطب إلا بممارسة فن التشريح».

وعند حديثه عن التشريح يذكر كلوت بك فى مذكراته الأهمية التى كان يعلقها على تدريس التشريح فى مؤسسته الطبية الحديثة، ومما يلفت النظر أنه بدأ هذا الحديث بالإشارة إلى المعارضة الشديدة التى يزعم أنه واجهها من قبل رجال الدين وأوضح كيف حاول جاهداً أن يستميل علماء الأزهر لرأيه ويبيّن لهم الفائدة المرجوة من هذا العمل غير المسبوق فى مصر: «لقد عملت جاهداً حتى أحوز ثقة شيخ الإسلام (كذا) الشيخ العروسى وهو رجل ورع ومهم له شهرة واسعة فى البلاد... وعندما تطرقت إلى موضوع التشريح لم يفهم أن النظرية [أى الاعتماد على النصوص النظرية فى تدريس الطب] لا تقدم سوى مفاهيم مبهمة غير مكتملة. فقلت له ألا ترى أن على صانع الساعات لكى يُصلح ساعاته المعطوبة أن يفهم نظامها الميكانيكى؟ أولا تدرك أن عليه أن يقوم بجمع أجزائها ثم تفكيكها مرة أخرى حتى يتسنى له أن يفهم كيف تعمل؟ ويبدو أن هذه الصورة قد استوقفته... [فى النهاية] استطعت أن أحصل على موافقته ولكن بعد أن تعهدت أن أكون حريصاً وأن أقوم بتدريس التشريح فى السر».

ويبدو للوهلة الأولى أن حرص دكتور كلوت كان فى محله فالدكتور نجيب محفوظ يخبرنا اعتماداً على مذكرات كلوت بيك أن «ممارسة التشريح أثارت الكثير من الاعتراضات ليس اعتراض العلماء فقط ولكن اعتراض التلامذة أنفسهم. وبالإصرار والعزيمة حصلنا على موافقة العلماء... ولكن حدث ذات يوم أن استشاط أحد الطلبة غضباً عندما رأى الجثث تُشرّح فهمّ بطعن كلوت بيك فى جبهته وصدره، ولكن لحسن الحظ تمكن كلوت بيك من تحاشى الطعنة بحركة صغيرة من ذراعه، واستأنف الدرس وكأن شيئاً لم يحدث، فحاز بذلك على إعجاب الطلبة».

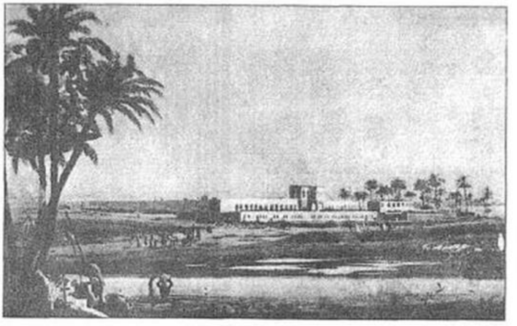
ومن غير المؤكد أن تكون هذه الواقعة صحيحة تماماً إذ أنها تشبه وبشكل غريب حادثة أخرى كانت قد وقعت قبل ذلك بخمس أو ست سنوات لا لكلوت بيك ولكن للفرنسى الآخر الذى كان يعمل مثله لمحمد على والذى ضاهت شهرته شهرة كلوت بيك والقصد به كولونيل سيف المعروف بسليمان باشا. ذلك أنه أثناء تدريب مماليك محمد على لكى يكوّنوا نواة هيئة ضباط جيشه الحديث، وحسب رواية كلوت بيك نفسه، دبر هؤلاء الشبان «المؤامرات مراراً ضد المسيو سيف لاغتياله، وبلغ من أمرهم معه أنه كان ذات يوم يدبر تمرينات ضرب النار، فإذا بأحدهم أطلق عليه رصاصة مرت بجوار أذنه وسمع صفيرها. فلم يفقد شيئاً من ثبات جأشه بل استأنف التمرين النارى نفسه وأمر التلاميذ بإطلاق النار من جديد... فلم يسع الثائرين إزاء هذا التسامح الغريب والبسالة النادرة إلا أن كسروا من شدة حدتهم وبعد أن كانوا ناقمين عليه صاروا أولياء له يخصونه بالحب الشديد والاحترام». وبالإضافة إلى التشابهات المريبة بين الواقعتين والتى توحى بأن إحداهما قد تكون منقولة عن الأخرى يؤكد لنا كلوت بيك أن الإسلام مرة أخرى كان وراء تلك المقاومة للتقدم والتحديث فى المجال العسكرى شأنها شأن مقاومة التحديث فى المجال الطبى. فيقول إن «ما فطر المسلمون عليه من الشمم وإباء الضيم والصفات النفسية التى تحول دون رضوخهم للمعلمين المسيحيين» كان الدافع وراء محاولة الاغتيال تلك.

وهناك لوحة فنية لفنان مجهول أوردها الدكتور نجيب محفوظ فى كتابه عن تاريخ التعليم الطبى فى مصر (والغالب أن أصلها كان محفوظاً فى مبنى قصر العينى القديم) توثق وتسجل بشكل درامى المواجهة بين العلم والدين التى يسوقها كلوت بيك عند الحديث عن أول درس للتشريح أُجرى فى مصر، وكان ذلك يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧. تقدم اللوحة مشهدا فى قاعة محاضرات أُعدت خصيصاً لغرض تدريس التشريح، فبالإضافة إلى المنضدة التى وُضعت عليها الجثة والتى تتوسط القاعة، زُينت جدران القاعة بأسماء المشاهير من رجال الطب العرب مثل أبو موسى جابر وابن زهر وابن البيطار وغيرهم، فى محاولة لإقناع الطلبة بأن ما يحدث أمامهم فى هذه القاعة امتداد لتراث العرب الطبى وليس بدعة مذمومة. والأهم من ذلك هو ظهور طالب واقف يشير بذراعه لما يحدث فى منتصف القاعة، وكان اللوحة تحيلنا إلى ذلك الموضع فى مذكرات كلوت بيك الذى يوضح فيها اعتراض أحد التلاميذ على عملية التشريح. وتظهر لنا اللوحة كلوت بيك وهو يتابع الدرس لامساً بيده اليمنى صدر الجثة ومشيراً بيده اليسرى إلى هيكل عظمى معلق فى تركيبة لغرض الشرح والتوضيح. وكان كلوت بيك يشرح العلاقة بين شكل الجثة الخارجى والهيكل العظمى الذى تحتويه (أو كأنه يشير إلى حتمية الموت).

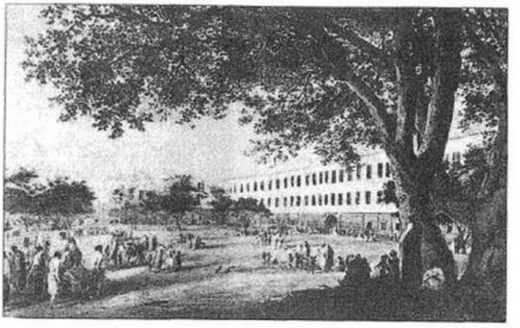
على أن أهم ما يميّز اللوحة هو ثلاثة عناصر أو رموز، اثنان منها واضحان والثالث غائب، أما العنصر الغائب فهو كتاب التشريح الذى جرت العادة على إدراجه فى لوحات دروس التشريح ولو بشكل هامشى، للإشارة فيما يبدو إلى أن التشريح إنما يؤكد مقولات الأقدمين وعلى رأسهم جالينوس. فحتى القرن

الخديو عباس لم يقتنع بالحجج التى كان الأطباء يقدمونها (والتى ما زلنا نسمعها منهم إلى الآن) بأنهم أدرى بجسم المريض منه وأنهم وحدهم القادرون على تحديد مصلحته، بالإضافة إلى الرأى الآخر الشائع فى كل المستشفيات التعليمية والذى يذهب إلى القول بأن العمليات الجراحية مهمة لتعليم الأطباء المبتدئين واكتساب الخبرة

السابع عشر عندما أصبح التشريح معترفاً به فى كليات الطب فى بلدان أوروبا الغربية كانت اللوحات الفنية التى تسجل هذه الممارسات الغربية دائما تُظهر كتاب التشريح الذى كان يُفترض أن درس التشريح يؤكد صحة مقولاته. وقد تكون لوحة الفنان الهولندى الشهير رمراندت «درس تشريح دكتور تالب» خير مثال على ذلك. فبالرغم من احتلال الجثة المشرحة لمنتصف اللوحة إلا أن نظرات أغلب الحاضرين موجهة ليست للجثة وإنما لكتاب التشريح المفتوح والموضوع فى الركن الأيمن السفلى للوحة فى إشارة واضحة للمكانة التى كانت النصوص الطبية القديمة ما زالت تحتلها فى تدريس الطب. أما فى لوحة قصر العينى فقد اختفت هذه الإشارة تماماً، وكأن اللوحة تقول إن معرفة الجسم البشرى لا تتم إلا بفتحه ورؤيته بالعين، بغير حاجة لمعرفة ما قاله جالينوس أو ابن سينا أو غيرهما فى هذا الصدد.



مستشفى أبو زعبل العسكرى



مستشفى قصر العينى العسكرى

أما العنصران الآخران الحاضران فى اللوحة فيتعلقان بموقف الدين من الطب وتحديداً بمقاومة الإسلام المزعومة للتشريح. فاللوحة تظهر لنا جنديين بملابس عسكرية، أحدهما يقف بجانب الجثة والآخر عند مدخل القاعة، فى إشارة واضحة للتدابير الأمنية التى اتخذها كلوت بيك لمقاومة الطلبة الأزهريين الجدد أو لمواجهة علماء الأزهر الذين دعاهم لحضور هذا الحدث الجلل. وتُظهر اللوحة اثنين من هؤلاء العلماء عند الجثة منكبّين على متابعة ما يقوله كلوت بيك بثقة واضحة. وموقع هذين العالمين فى اللوحة، وهذا هو العنصر الثالث المهم، له دلالة بالغة الأهمية، فقد اختار الفنان (الذى كان بالتأكيد يعتمد على رواية كلوت بيك عن هذا الحدث المهم) أن يكون وضعهما بين الجثة التى هى مصدر العلم فى تقدير كلوت بيك وبيننا نحن المتفرجين، وكأنه يقول بذلك إن محاولاته الدءوبة لنشر العلم والمعرفة يعترضها دائما الدين ورجال الدين.

التشريح فى الغرب بين الطب والسياسة

غير أنه من المستبعد جداً أن فهم الطبيب الفرنسى للعلماء المسلمين ومواقفهم كان سليماً آنذاك، فلم يكن قد مضى على إقامته فى مصر سوى سنتين، وهى فترة غير كافية ليتعلم العربية (التى لم يتحدث أو يكتب بها قط برغم طول مدة إقامته فى مصر) أو لمعرفته بمبادئ الإسلام، فما بالك بموقف الفقه من قضية شائكة كالتشريح. فقد كان يعتقد مثلاً «أن الدين الإسلامى يقضى باحترام الموتى ويسلم ببقاء الشعور فيهم كما لو كانوا على قيد الحياة، فهم يحسون بما تصاب به أجسامهم من الجراح أو الأذى أياً كان». وأغلب الظن أن رؤية كلوت بيك للإسلام كانت متأثرة بالأفكار الاستشراقية السائدة فى وقته والتى اعتبرت الإسلام سبب تخلف المجتمعات الإسلامية الشرقية، ولكن يبدو أن حنق كلوت بيك على رجال الدين (وهو واضح تماما فى كتاباته برغم احتجابه خلف ستارٍ واهٍ من الاحترام المصطنع)، كان مرده موقفه من الكنيسة ومن المسيحية لا من الإسلام ومن علمائه، نظرا لأن هذا الموقف المعادى للدين، المبنى على اعتباره عائقا فى وجه العقلانية والتقدم، كان موقفاً تقليدياً للفلاسفة التنويريين، وتبعهم فيه الكثير من المؤرخين وأهمهم مؤرخو الطب فى أوروبا فى العصر الحديث. فكثيراً ما نقرأ أن محاولات الأطباء الدءوبة لتطوير الطب واستحداث نظريات جديدة تشرح كيفية انتشار الأمراض والأوبئة أو التوصل إلى وسائل جديدة للعلاج كانت تصطدم دائماً بمعارضة الكنيسة. ويرى مؤرخو الطب التقليديون أن معارضة الكنيسة كانت عقبة مهمة أمام الكثير من هذه الممارسات وخاصة تشريح الجسم البشرى. كما يرون أن معارضة الكنيسة كانت نابعة من اعتبار التشريح عملاً يتحدى قدرة الخالق أو يعبث بمخلوقاته، فضلا عن شكهم فى أن هذا العبث بأجسام الموتى يمنع القيامة والبعث بعد الموت. وحسب الروايات التقليدية فقد تمكن العلم الحديث من التغلب على هذه «الأوهام الدينية» (كما يسميها كلوت بيك عند حديثه عن جهوده فى هذا المجال فى مصر) بالإصرار على نشر المعرفة واستخدام الحجة والمنطق وعدم الرضوخ لمخاوف العامة من كل ما هو جديد وغير مألوف. وما استخدام كلوت بيك لتشبيه الجسم الإنسانى بالساعة إلا محاولة منه لمقارعة الحجة بالحجة سبقه فيها الكثير من الأطباء عند تاريخهم لمهنتهم: فتشبيه الخالق بصانع الساعات الذى تتضح قدرته وتتجلى حكمته عند التأمل فى عظمة وروعة مخلوقاته كان قولاً مألوفاً دأب الأطباء وفلاسفة عصر التنوير على ترديده للتذكير بأهمية استخدام الحجة والمنطق للتغلب على الشعوذة والسحر و«الأوهام الدينية». (على أنه ربما غاب عن كلوت بيك الخطورة الكامنة فى هذا التشبيه، إذ كثيراً ما قيل إن هذه التشبيهات «الميكانيكية» ـ الكون كآلة والجسم كساعة والخالق كصانع ماهر ـ ربما تذكرنا بعظمة الخالق ولكنها فى نفس الوقت كانت الأساس الذى بنى عليه الفيزيائى لابلاس (١٧٤٩ ـ ١٨٢٧) تصوره للكون بغير حاجة لافتراض خالق، فالآلة ليست فى حاجة إلى صانعها بعد أن يفرغ من ابتكارها والساعة تستطيع أن تعمل بدقة متناهية بدون تدخل لاحق من الساعاتى الذى جمّع أجزاءها).

وفى مواجهة هذه النظرة التقليدية الشائعة للعلاقة بين الدين والطب الحديث، ظهرت فى الآونة الأخيرة دراسات جادة تشكك فى افتراضاتها. فحاولت أن تفسر المقاومة التى واجهتها محاولات تدريس الطب بالاعتماد على التشريح بالتناقضات الكامنة داخل المؤسسة الطبية ذاتها. وبوضع تلك المؤسسة داخل إطارها التاريخى. وتوصلت من ذلك إلى أن دور الكنيسة فى مقاومة التشريح لم يكن مهما، وأن المقاومة الأساسية أتت من مصادر أخرى. منها مثلاً جمود المؤسسة الأكاديمية الطبية فى القرون الوسطى وما قبل الحديثة (القرون ١٣ ـ ١٧)، حيث كانت تفصل الطب والحكمة عن الجراحة. فالطبيب (أو الحكيم) عندما هو من يستقى علمه من كتب الأولين والذى لم يدنس يده بعمليات الجراحة والحجامة وجبر العظام وخلع الأسنان، التى كان يقوم بها حلاقو الصحة أو الجرّاحون، الذين كان يُنظر إليهم كنوع من الجزارين يختص عملهم بالأجسام الآدمية بدلا من الحيوانية. لذلك ظلت الجامعات التى كانت تدرس الطب كجامعات بولونيا وبادوا وباريس تعتمد على كتب جالينوس لا على درس التشريح. وحتى عندما كان يُستعان بالجسم البشرى للتدريس كان ذلك يتم لتأكيد صحة آراء جالينوس وأرسطو وليس لتصويب هذه الآراء أو الإضافة إليها. وفى هذه الحالات كان الطبيب يُلقى محاضرته مستعينا بالنص الكلاسيكى، واقفاً خلف منصة عالية، بعيدا عن الجثة التى كان يتولى تشريحها مشرِّح (sector)، وهو منصب يعتبر من أدنى وأحقر المناصب فى المؤسسة الأكاديمية الطبية.

بالإضافة إلى جمود الجامعات والمؤسسات الأكاديمية كانت الصعوبات التى واجهها التشريح لكى يتبوأ مكانته المركزية فى تدريس الطب نابعة من معارضة المجتمع ككل ـ لا المؤسسة الدينية وحدها ـ لتلك الممارسات المقلقة. فالمجتمعات البشرية تكاد تجمع على إجلال الموت واحترامه وعلى التعبير عن هذا الإجلال وذلك الاحترام بسرعة دفن الميت (إكرام الميت دفنه). وبالتالى فإنها تستنكر تأخير الدفن أو العبث بجسم الميت بغض النظر عن أية حجج لاهوتية أو فقهية. هذا بالإضافة إلى أن التشريح اقترن فى أذهان العامة فى أغلب مجتمعات أوروبا الغربية فى العصر ما قبل الحديث بالقانون وبالعقوبات الجسدية الاستعراضية التى كثيراً ما شوهدت فى الميادين العامة أو فى مداخل القرى. إذ كان الحصول على جثث سليمة لأناس حديثى الوفاة لاستخدامها لأغراض تعليمية شيئاً بالغ الصعوبة، فمن ذا الذى كان يرضى بأن تؤخذ جثة ذويه لمسرح التشريح فى الجامعة حيث يمثل بها بعض الطلبة مدعو العلم؟ لذلك اضطر أساتذة التشريح للتقدم للسلطات القضائية والسياسية بطلب الحصول على جثث من يُنفّذ فيهم حكم الإعدام، ويا حبذا إذا لم تكن العقوبة هى ضرب العنق (وهو عقاب كان مقصوراً على الطبقة الأرستقراطية) وإنما الشنق (وفى أغلب المجتمعات الأوروبية كان الشنق يُنفذ فى «سوقة» الناس و«أسافلهم») حتى يتوافر تحت مشرط المشرِّح جسم كامل يستطيع به أن يشرح لتلاميذه آراء جالينوس. وبذلك أضحى التشريح مقترنا فى أعين الناس بالإعدام، وصار بمثابة مرحلة أخيرة ومهينة للعقاب الجسدى تلاحق المجرم حتى بعد خمود أنفاسه.

على هذا النحو دحضت هذه الدراسات الجديدة الآراء التقليدية التى كانت ترى فى الدين العائق الوحيد أمام

كتاب الزاوية

عبقرية المسيح

وضع المفكر والكاتب الكبير عباس محمود العقاد سلسلة من العبقريات لشخصيات إسلامية بارزة فى مقدمتها النبى صلى الله عليه وسلم وعدد آخر من الصحابة الكرام ولم ينس العقاد برؤيته الشاملة والعميقة أن يقدِّم عبقرية المسيح تأكيداً للدور الذى لعبته الديانة المسيحية فى التاريخ الإنسانى، وكذلك دور السيد المسيح عليه السلام. وقد صدرت طبعات من هذا الكتاب تحت عنوان «حياة المسيح». يقول العقاد فى المقدمة إن هذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية فى صورة عصرية نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها.

الإيمان بظهور المسيح

الإيمان بظهور رسول إلهى يسمى «المسيح» لم يعرف قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها، فى التلمود والهجادا وما إليها. ومرجع التسمية نفسها إلى الشعائر التى وردت فى سفر التكوين وسفر الخروج وما يليها من أسفار الأنبياء. فإن المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم، وأول ما ورد ذلك فى الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روى عن يعقوب أنه «بكر فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتًا على رأسه ودعا ذلك المكان بيت إيل - أى بيت الله». وقد كان الإيمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الأول، فردد الشعب الإسرائيلى وعود أنبيائه بعودة الملك إلى أمير من ذرية داود تخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه.

تقدم الطب وقدمت أسباباً تاريخية أخرى أراها أكثر إقناعاً. فإذا عدنا إلى قراءة مقولات كلوت بيك فى هذا الصدد، ينبغى أن نلاحظ أنه كان متأثراً بأفكار التنويريين بشكل غير نقدى وأنه كان يرى فى نفسه وفى عمله فى الشرق تنويرا للبشرية التعيسة فى مصر.

وقبل أن نعود إلى مؤلفنا محمد الشباسى لكى نعرف (وقد كان أصلاً طالباً أزهريًا) رأيه فى موقف الشرع من التشريح، نطرح بعض التساؤلات عن الأسباب التى دفعت البعض فى مصر إلى الاعتراض على دروس التشريح التى استحدثها كلوت بيك فى مؤسسته التعليمية الجديدة. فهل نستطيع القول - مثل المؤرخين المحدثين للطب فى أوروبا - بأن هذه الاعتراضات لم تكن نابعة من العلماء ورجال الدين أو منطلقة من موقف فقهى بقدر ما كانت معبرة عن نفور طبيعى وإنسانى من انتهاك حرمة الموتى؟ وهل اقترن التشريح بمشاهد العقاب البدنى الفظيعة فى أعين الناس فى مصر كما كان الحال فى بلدان أوروبا الغربية؟ هل من الممكن أن نفترض أن مقاومة التشريح كان لها أسباب أخرى لم تكن لها علاقة بالشرع أو الدين أو الفقه؟ وما هو مصدر إمداد قصر العينى بالجثث التى كان الشباسى وغيره من أساتذة التشريح يشرحونها؟ تلك بعض التساؤلات التى تلح على الباحث فى تاريخ مصر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر وتطالبه بأن يحاول الإجابة عنها.

التشريح بين العلم والشرع

وبالرجوع إلى السجلات والمحافظ المحفوظة فى دار الوثائق القومية (والتى تُعد بحق كنزاً قومياً يجب العناية به والحفاظ عليه) يمكن للباحث أن يجيب ولو بشكل مبدئى عن بعض هذه الأسئلة. ذلك أن سجلات ضبطية مصر (أى شرطة القاهرة) وديوان تفتيش صحة المحروسة ومجلس الخصوصى (وكان ذلك المجلس بمثابة مجلس استشارى تضاهى سلطاته سلطات مجلس الوزراء الآن) كلها تشير إلى أن أهم سبب للاعتراض على عمليات التشريح كان تأخير الدفن وليست أية حجج أخرى مثل تلك التى يوردها كلوت بيك فى كتبه من قبيل شعور جثث المسلمين بالألم أو تقويض فرص البعث بعد الموت. وكان الاهتمام بعدم تأخير الدفن بالأهمية بمكان حتى صدرت تعليمات صارمة بأن تكون مهمة الكشف على الأموات أول ما يقوم به حكماء الأثمان فى المحروسة (أى أطباء الأحياء فى القاهرة) فى عملهم اليومى وتنبه عليهم بأن يقوموا بتلك المهمة يومياً من الساعة الواحدة حتى الحادية عشرة صباحاً (حسب التوقيت «العربى» أى بعد ساعة واحدة من شروق الشمس إلى ما قبل غروبها بساعة واحدة). وكانت عقوبة الحكماء الذين يتأخرون فى تأدية تلك المهمة الحساسة تتراوح بين الحبس عشرة أيام والطرد من الخدمة الميرية كلية. فى مواجهة اعتراض بعض الأهالى ورجال الدين من تأخير الدفن وخاصة أثناء فترات الوباء عندما زادت أعداد المتوفين يومياً شددت السلطات الطبية من تنبيهاتها للحكماء بعدم التأخير. ولكنها أكدت فى نفس الوقت على أهمية عدم التسرع فى الدفن خوفاً من تشخيص بعض حالات الإغماء على أنها حالة وفاة مما يعنى دفن الناس أحياء والموت «أشنع ميتة» كما عبر عن ذلك رشيد رضا فى فتوى مهمة أصدرها عام ١٩١٠ أجاز فيها عملية الكشف الدورى على الأموات حتى وإن استدعى ذلك كشف الطبيب على المرأة.

وإذا كانت هذه السجلات المحفوظة فى دار الوثائق القومية توحى لنا بأن تأخير الدفن كان من أهم أسباب الاعتراض على عمليات التشريح . فإن فى مؤلفات وترجمات الجيل الأول من أطباء قصر العينى (المحفوظة فى دار الكتب التى تعد أيضاً كنزاً قوميًا) ما يمكننا من الوقوف على رأيهم هم من بعض جوانب هذا الموضوع الشائك. ففى أكثر من موضع من الكتاب الذى بين أيدينا - مثلاً - يوضح الشباسى رأيه فى موقف الإسلام من الطب الحديث ومن التشريح تحديداً. فكما رأينا لا يرى الشباسى أى تعارض بين الطب والدين، بل يؤكد فى أكثر من موضع أن «علم الطب... به قوام البنية الحيوية، والقيام بالواجبات الشرعية». وعلى خلاف رواية كلوت بيك التى تركز على اعتراض الطلبة الشديد على التشريح يؤكد لنا الشباسى أن هذه المعارضة زالت سريعا: فيقول إن «من العجائب أن حب التشريح استولى على تلامذتى بعدما كانوا له كارهين، فطالما شوهد أحدهم يترك غذاءه والخروج إلى (التفسح) النزهة (ويعكف على قراءة) كتاب التنقيح الوحيد ليكون فيه من المتمكنين، ويأخذ العضو المحضر فى محل نومه، وإذا لامه أحد لا يبالى بلومه».

أما بخصوص ممارسة التشريح فكان الشباسى بالطبع مؤمناً بأهميتها أشد الإيمان ولم يكن يتصور وجود للطب كما فهمه ومارسه بدونها: «فلفتح الجثث» كما يقول «فوائد كثيرة منها معرفة الأعضاء وهى فى حالتها الصحية التى كانت عليها زمن الحياة،... ومنها معرفة أنواع التغيرات المرضية التى تصيب كل عضو على حدته أو كل مجموع من المجاميع ومقابلتها بالأعراض التى تشاهد قبل الموت ليستنتج من هذه المقابلة معالجة ناجحة للغاية، ومنها حل المشكلات التى تخص الطب السياسى أو الشرعى كما فى أنواع الحرق أو التسمم أو القتل أو الغرق أو السقوط أو الجروح الخطرة، ومنها تجنب ما يوقع فى الأخطار وقت الأعمال الجراحية الصغيرة أو الكبيرة ومعرفة سبب حصول النجاح أو عدم حصوله فى هذه العمليات...». وبالإضافة إلى كل هذه الفوائد العلمية التى تعود على الطب من جراء ممارسة التشريح لا يجد مؤلفنا غضاضة من أن يضيف فائدة مهمة أخرى وهى «معرفة أفعال ووظائف الأعضاء البديعة التركيب والتأمل فى صنع المولى جل جلاله وهذا مما يقوى الإيمان ويزيده». بل إنه يستشهد بجالينوس الذى قال إن «قراءة كتب التشريح

أعظم العبادات الإلهية وتحمل على الإقرار بوحدانية الله».

وفى خاتمة كتابه يعود الشباسى ويؤكد على أهمية التشريح ليس فقط للعلوم الطبية ولكن أيضاً لتنفيذ أحكام الشرع. فيوضح قائلاً: «فمما شرحناه على حالة الأعضاء فى أنواع الموت الفجائى يمكن أن يكون الطبيب السياسى (أى الطبيب الشرعى) صاحب فطنة بما اكتسبه من العلوم بحيث يمكنه الحكم بحياة الشخص الذى عاش بعد الموت الظاهرى دون من مات معه موتاً حقيقيّاً. فمثلاً ثلاثة أشخاص غرقوا فى آن واحد بعارض فنشأ من ذلك مسألة الوراثة التى لا يمكن حلها بطريقة قطعية إلا بتعيين من الذى عاش بعد الآخرين وصورتها أن أحد الثلاثة كان معرضاً للاحتقانات الدموية المخية فمات بالسكتة والثانى مات بالإغماء والثالث عانى الغرق مدة طويلة ثم مات بالإسفكسيا فالطبيب السياسى يستنتج حينئذ من حالة المجموع الوريدى والشريانى والقلب والرئتين والمخ استنتاجات قريبة للعقل مؤسسة على مشاهدات لا على ظن وتخمين. ومثل ذلك يقال فيما إذا خسفت أرض أو انهدم بيت أو احترق أو حدث سبب من أسباب أخر فمات به عدة أشخاص فى آن واحد». وفى موضع آخر يشرح الشباسى باستفاضة أن التشريح يستطيع أن يعين على إقامة أحكام الشرع، وفى نفس الوقت تستطيع السلطات السياسية أن تستخدمه لأغراضها الخاصة، وتحديداً لكى تضبط إحصائياتها الحيوية: «كثيراً ما يُسأل الطبيب عمن يوجد فى الطريق ميتاً فيقال له هل مات حقيقة وما سبب موته وهل موته ناشئ من قتل الشخص لنفسه أو قتل الغير له. فحينئذ لا يجب على الطبيب الإجابة على الحالتين الأخيرتين بمجرد النظر فى الهيئة الظاهرة بل يجب عليه أن يقول إنى لا أستدل على شىء من الهيئة الظاهرة، ولا أعرف لكم جواباً إلا بعد فتح الجثة لأنى منه أستدل على سبب الموت. وقد يحصل الغلط فى ذلك كما إذا وُجد شخص ميت فى الطريق وقال الطبيب بمجرد البحث عن الوجه والصدر واليدين والملابس إنه مات عقب سكتة مخية وكان الواقع بخلافه. فقد نتج من ذلك مفسدتان: الأولى هدر دمه بعدم القصاص من قاتله والثانية عدم ضبط قوائم الموتى.

المركز، فغالباً ما ينصب الاهتمام على دور أوروبا فى إحداث النهضة التى شهدتها مصر فى ذلك القرن، وكثيراً ما كانت كتابة تاريخ الطب، وخاصة تاريخ مستشفى قصر العينى، تعتمد على مصادر أوروبية، كشهادات بعض الرحالة الأوروبيين الذين سُنحت لهم فرصة زيارة المستشفى، أو كتابات كلوت بيك ذاته. على أن الوثائق المعاصرة البالغة الغنى والأهمية المتعلقة بتاريخ الطب والصحة العامة والمحفوظة فى دار الوثائق القومية تؤهلنا الآن لأن نصحح الصورة وأن نعتمد على مصادر أخرى تقدم لنا تفاصيل أكثر دقة عن الممارسات اليومية فى مستشفى قصر العينى وفى مدرسة الطب التابعة لها. كما من شأنها أن تقدّم لنا صورة - ولو غير واضحة تماماً - عن رد فعل المجتمع تجاه بعض الممارسات غير المألوفة التى كانت تحدث هناك.

وهنا تكمن أهمية الكتاب الذى بين أيدينا وغيره من الكتب الطبية التى كانت من أوائل مطبوعات مطبعة بولاق والمحفوظة الآن فى دار الكتب. فالشباسى كان من الدفعة الأولى من خريجى مدرسة الطب المصرية ومن أوائل من درّس فيها. ويُعد كتابه هذا من الكتب الطبية القليلة التى أُلفت فى مصر، ولذلك تمكننا قراءته من التعرف على آراء مؤلفه فى موضوع مهم وشيق ألا وهو الموقف من التشريح. وكما رأينا فالشباسى على عكس الرواية الشائعة التى يقدمها كلوت بيك - والتى نقلها عنه كل من أرّخ للطب فى مصر فى القرن التاسع عشر - يقدم لنا صورة يبدو فيها التشريح والشرع أو الطب الحديث والدين غير متعارضين، بل ويؤكد أن التشريح من شأنه أن يعلى كلمة الشرع بالمساعدة على إقامة الواجبات الشرعية.



كلوت بك

واللافت للنظر فى كتاب الشباسى أنه لم ينتهج لهجة اعتذارية عند الكلام عن التشريح، فالحجج التى يسوقها للتدليل على أهمية التشريح للطب والدين معاً لم يقصد منها إقناع حفنة من رجال الدين المتعصبين أو «مكافحة بعض الأوهام الدينية» كما كان كلوت بيك يرى، وإنما كانت نابعة من عقلية لم تر أصلا أى تعارض بين التشريح والشرع أو بين الإسلام والعلم. وبذلك يقدم لنا كتاب الشباسى عن التشريح صورة لطالب أزهرى أصبح طبيباً ماهراً لم ير يوماً تعارضاً بين إيمانه ومهنته أو بين الإسلام والحداثة، ذلك التعارض الذى بذل جيل لاحق من المفكرين المسلمين فى أواخر القرن التاسع عشر جهداً كبيراً لمواجهته. أما متى ولماذا ظهر هذا التعارض وكيف تمت مواجهته فتلك قصة أخرى. ■

حتى عهد قريب كانت كتابة تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر تتبع مناهج أوروبية

كتاب الزاوية

عبقرية المسيح

تاريخ الميلاد

يفهم رقم التقويم الميلادى أن السيد المسيح ولد فى السنة الأولى للميلاد، وعلى هذا الحساب يجرى العمل بين الأمم الأوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهى السنة التى دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير (Exigus) إلى تأريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد.

أما القول الراجح فى تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات، وأنه على أصح التقديرات لم يولد فى السنة الأولى للميلاد.

ففى إنجيل «متى» أنه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات. وقد جاء فى إنجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة فى السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبرويوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ فى تأسيس مدينة رومة، ومعنى هذا أن السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالى سنة ٧٧٩ رومانية، وأنه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أى قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات. يذكر إنجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب - أى بالإحصاء - فى كل المسكونة، وأن هذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرنيوس واليًا على سورية «فذهب الجميع ليكتتبوا كل من مدينته، وصعد يوسف . . من مدينة الناصرة إلى اليهودية . . ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر».

الناس والتلوث

نحن هنا بصدد خطاب يتسم بالسطحية وبنبرة متعالية تلقى باللوم فى تلوث البيئة على الطبقات الأدنى فى المجتمع ولا تكف عن الوعظ والإرشاد فى إطار مفهوم ضيق عن الرقى والتحضر. وهذه النظرة التى تساوى بين تراب مداخن مصانع الأسمنت وبين سيدة ريفية تغسل أوانى الطهى بالقرب من شاطئ النيل لا تفتقر فقط إلى السند العلمى، وإنما هى أيضا تضر بقضية البيئة ضررا كبيرا

ريم سعد

People and Pollution: Culture Constructions and Social Action in Egypt

(الناس والتلوث: البناء الثقافى والفعل الاجتماعى فى مصر)

Michellass. Hopkins, Sohair R.Mehanna, and Salah El-Haggar
American University in Cairo Press, 2001, 192 PP.

ارتبطت قضية البيئة مؤخرا ارتباطا وثيقا بقضية العولمة وازداد التأكيد على كونية المشكلة وبالتالى على ضرورة توحيد النظر إليها ومواجهتها على مستوى العالم إلا أن الخطاب البيئى - كخطاب العولمة ذاته - يختلف اختلافا كبيرا من مكان إلى آخر. كما أن الاهتمام بالبيئة وأنواع الأنشطة المصاحبة لهذا الاهتمام تختلف أيضا من بلد إلى آخر. ويعزى هذا الاختلاف إلى عدة عوامل منها مثلا نوع الخطر البيئى الذى يتهدد منطقة معينة ومدى وعى السكان بهذا الخطر ووضع قضية البيئة على الساحة السياسية ومدى شعبيتها وقوة جذبها كأداة انتخابية مثلا - كما تتنوع استجابات الناس فى البلدان المختلفة وردود فعلهم تجاه ما يعتبرونه خطرا بيئيا تبعا لدرجة الحرية السياسية المتاحة فى بلد معين وإلى درجة قبول المجتمع بشكل عام لأشكال الاحتجاج المختلفة، خاصة تلك التى قد تتسم بالعنف أو التى قد تتعارض مع المصلحة الاقتصادية لبعض قطاعات تلك المجتمعات. والكتاب الذى بين أيدينا يهتم بشكل خاص بالبنية الثقافية كعامل حاسم فى أسلوب فهم الناس للأخطار البيئية وبالتالى فى تشكيل أنواع الفعل التى يقومون بها لمواجهة تلك الأخطار.

و كالوضع فى بقية دول العالم تزايد الاهتمام بالقضايا البيئية فى مصر واحتلت مناقشة المشكلات البيئية مكانا بارزا فى وسائل الإعلام، و كان لتبنى الدولة لهذه القضية دور حاسم فى تعزيز وضعها فى الأجندة السياسية ونقلها من قضية هامشية إلى قضية محورية مسموحة التداول. ففى السنوات الأخيرة ازداد اعتراف الدولة بوجود العديد من المشاكل البيئية واتخاذ خطوات إيجابية لمحاولة مواجهتها كان من أهمها صدور قانون البيئة (قانون ٤ لسنة ١٩٩٤) وإنشاء وزارة دولة لشئون البيئة سنة ١٩٩٩.

ولا يمكننا بأى حال الحديث عن أى نقص فى عدد الكتابات والإسهامات التى تتناول قضايا البيئة والتلوث. فالصحف اليومية والمجلات لا تكاد تخلو من أخبار وموضوعات تتعلق بالبيئة كما أن خبراء البيئة أو المهتمين بها هم ضيوف دائمون على برامج الإذاعة والتليفزيون. فليست المشكلة فى كم الاهتمام بالموضوع وإنما فى بعض خصائص الخطاب السائد حول البيئة والتلوث. ويعنينا هنا الحديث عن سمة أساسية لهذا الخطاب وهى أوضح ما تكون فى تناول وسائل الإعلام لقضايا التلوث، وبالتالى فهى الأكثر رواجا وسيادة. وكلمة السر هنا هى «نقص الوعى». ونحن هنا بصدد خطاب يتسم بالسطحية وبنبرة متعالية تلقى باللوم فى تلوث البيئة على الطبقات الأدنى فى المجتمع ولا تكف عن الوعظ والإرشاد فى إطار مفهوم ضيق عن الرقى والتحضر. وهذه النظرة التى تساوى بين تراب مداخن مصانع الأسمنت وبين سيدة ريفية تغسل أوانى الطهى بالقرب من شاطئ النيل لا تفتقر فقط إلى السند العلمى، وإنما هى أيضا تضر بقضية البيئة ضررا كبيرا، إذ تزج بها فى صراع آخر لتجعل منها محددا طبقيا بميز الصفوة وتساهم فى تصوير الاهتمام بالبيئة على أنه نشاط أنيق يضفى الوجاهة على من يقوم به. والبيئة النظيفة وفق هذه النظرة تقتصر على النواحى التجميلية، والقيمة الأساسية هنا هى ما يسمى بـ«المظهر الحضارى». وكرد فعل لهذا الخطاب قد ينظر الكثيرون إلى الاهتمام بالبيئة على أنه نوع من الرفاهية لا يتناسب إلا مع من هم على درجة عالية من خلو البال وبهذا تحرم القضية من أنصار عديدين ويتم استبعاد الغالبية العظمى من الشعب الذين يعانون فى أغلب الأحيان أكثر من غيرهم من الآثار الوخيمة للتلوث.

إزاء خلفية كهذه يبرز كتاب «الناس والتلوث: البنية الثقافية والفعل الاجتماعى فى مصر» كعمل متميز ومتوازن فى تناوله لقضية البيئة والتلوث فى مصر. والكتاب يتناول رؤية المصريين العاديين للبيئة والتلوث وينطلق من فرضية بسيطة وهامة فى نفس الوقت وهى أن «أعضاء الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من ريف وحضر مصر مهتمون بقضايا البيئة والتلوث وأن لديهم وعيا بالعوامل التى تساهم فى فهم هذه المشاكل والتصرف حيالها». ولا يقتصر هدف المؤلفين على التعرف على أنواع الوعى الموجودة لدى الناس وفهم مصادرها وخصائصها، وإنما يتعدى ذلك إلى استكشاف وإظهار الطرق العديدة التى يلجأ إليها الناس لمواجهة هذه المشاكل والتعامل معها. وتقوم أطروحتهم على أهمية التعرف على البناء الثقافى السائد والذى يفهم الناس من خلاله الواقع من حولهم - بما فى ذلك التدهور البيئى - إذ إن هذه البنى الثقافية هى التى توفر الأطر التى تتبلور داخلها تصورات الناس عن مشاكلهم وأيضا - بالتالى - تصوراتهم لما يمكن عمله من أجل مواجهة تلك المشاكل.

و الكتاب من تأليف نيكولاس هوبكنز أستاذ الأنثروبولوجى وعميد كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وسهير مهنا الباحثة المشاركة بمركز البحوث الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وصلاح الحجار أستاذ الهندسة بنفس الجامعة . وقد كتبت التصدير الدكتورة نادية مكرم عبيد وزيرة الدولة لشئون البيئة حينئذ فى بادرة طيبة تشير إلى جدية فى التعامل مع قضية البيئة عن طريق التعرف على كافة وجهات النظر والاستفادة من البحث العلمى النقدى والموضوعى. والكتاب نتاج مشروع بحثى لمركز البحوث الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بتمويل من مركز بحوث التنمية الدولية (كندا).

اعتمد البحث على عدة طرق ومناهج بحثية منها المسح والمقابلات والجماعات البؤرية (focus groups) والقياس العلمى لمعدلات تلوث المياه والهواء ومستويات التلوث السمعى، بالإضافة إلى وجود ٤ باحثين مقيمين كان كل منهم مسئولا عن إحدى مناطق البحث الأربعة والتى اختيرت لتمثل ملامح مختلفة للطبقة العاملة والمتوسطة فى الريف والحضر، كما تمثل المناطق المختارة أيضا تباينا فى درجة ونوع المشاكل البيئية السائدة. والمناطق المختارة هى:

١ - كفر العلو: وهى منطقة صناعية تقع بالقرب من حلوان، و رغم وجودها داخل القاهرة الكبرى إلا أنها لا تزال تحتفظ ببعض خصائص المجتمع الريفى ومن الناحية البيئية فهى منطقة محاطة بالعديد من المصانع وتعانى من التلوث الناتج عن المخلفات الصناعية وبخاصة تراب الأسمنت المتساقط على السكان من مصنع أسمنت بورتلاند حلوان.

٢ - دار السلام: وهى منطقة حضرية صناعية يسودها الإسكان غير الرسمى (أو ما يسمى بالإسكان العشوائى) وهى أكثر مناطق البحث تلوثا بسبب مشاكل المجارى والقمامة وتلوث الهواء والتلوث السمعى نتيجة لحركة المرور الكثيفة على الشوارع الرئيسية والغبار من الشوارع غير المرصوفة والمخلفات والضوضاء من الورش والشوارع والازدحام بصفة عامة.

٣ - السيدة زينب: وهى حى قاهرى عريق يمثل الطبقة الوسطى وهى كغيرها من الأحياء المماثلة تعانى من مشاكل تلوث الهواء والضوضاء الناتج عن الازدحام وانتشار الورش وبعض المصانع الصغيرة.

٤ - أبخاص: وهى قرية تقليدية اختيرت لتمثل الريف وتتمثل مشاكلها البيئية فى استخدام المواد الكيماوية فى الزراعة إلا أن المشكلة الأكبر هى أن جميع مصادر المياه فى القرية غير صالحة للشرب.

و رغم تنوع اختيار المناطق المبحوثة والقيام بمسحين فى ١٩٩٥ و١٩٩٧ شمل كل منها أكثر من ألفى مبحوث بالإضافة إلى طرق الاستقصاء الأخرى التى استخدموها إلا أن المؤلفين يتحفظون فى اعتبار بحثهم ممثلا للمجتمع المصرى بشكل كامل وإنما هو - حسب رأيهم - يغطى قطاعا كبيرا منه على أية حال. وجدير بالذكر أن نية الباحثين كانت قد اتجهت فى البداية إلى إدراج حى المعادى المتميز طبقيا فى بحثهم وقد بدأوا بالفعل فى تنظيم بعض الجماعات البؤرية هناك إلا أنهم لم يستطيعوا المواصلة وذلك لعدم تعاون المبحوثين هناك معهم. على أنه قد تمت تغطية هذه الفجوة إلى حد كبير باعتماد المؤلفين على مصادر أخرى عبرت عن رأى هذه الفئة أوردوا من خلالها الرؤى السائدة لدى أعضاء الطبقات العليا من المجتمع وقد أدرجوا أمثلة من تلك الرؤى من خلال اقتباسات لبعض الدراسات الأخرى وبخاصة رسالة الماجستير غير المنشورة للباحثة إيمان الرملى حول رؤية المرأة للتغير البيئى فى القاهرة.

وقد تضافرت البيانات الناتجة من طرق البحث المختلفة وخدمت بعضها البعض فتكاملت البيانات الإحصائية والكمية مع البيانات النوعية والوصفية وتم عرضها بطريقة اتسمت بالبساطة والحيوية والتى زاد منها الاقتباسات العديدة التى جاءت على لسان المبحوثين أنفسهم. وقد وضع المؤلفون مادتهم العلمية الناتجة من بحثهم الميدانى فى سياق نظرى مقارن، واختاروا لقراءة مادتهم أربعة اتجاهات نظرية أولها - وهو الأقرب إلى الأطروحة العامة للكتاب - يركز على التصورات الثقافية كعامل أساسى فى ترجمة الواقع البيئى وفهمه. ويركز الاتجاه الثانى على مفهوم تحليل المخاطر ويتناول هذا الاتجاه دور الإحساس بالخطر فى التحفيز على الفعل، أما الاتجاه الثالث فيعتبر البيئة النظيفة كملكية

عامة، والرابع يعتمد على نموذج العدالة البيئية وهو ينظر إلى المشاكل البيئية باعتبارها علاقات بين الناس وبعضهم أكثر من كونها علاقة بين الناس والبيئة وينظر إلى تفاوت أثر التغيرات البيئية على الجماعات المختلفة ويجد مفهوم الطبقة مكانا فى هذا الاتجاه التحليلى. وقد اختيرت هذه المقاربات بدقة وعرضت باقتصاد ووفرت إطارا مفاهيميا يسمح بقراءة البيانات الخاصة بمصر بالمقارنة مع دول وثقافات أخرى.

يظهر التكامل فى تصميم البحث وعرض نتائجه بصفة خاصة فى إدراج فصل خاص بـ«قياس التلوث» وهو يتناول التقويم العلمى للحالة البيئية فى مناطق البحث الأربعة. ومن المؤكد أن إدراج هذه البيانات العلمية التى قام بجمعها الفريق العلمى المشارك فى البحث قد أفاد بدرجة أو أخرى فى دحض نظرية «قلة الوعى»: إذ جاء تقويم الناس لأحوالهم المعيشية بما فى ذلك الأحوال البيئية فى مناطقهم مطابقا إلى حد كبير مع القياسات العلمية، غير اننى لا أعتقد أن قياس وعى الناس بمشاكل التلوث أو اختبار قدراتهم العلمية أو مقارنة علم الخبراء بعلم العامة كان هدفا فى حد ذاته، وإنما الهدف الرئيسى هو استكشاف التصورات الثقافية الخاصة بالبيئة والتلوث، و أحيانا ما تفيد قراءة آراء الناس على خلفية الحقائق العلمية فى التعرف على هذه التصورات أو لفت النظر إليها. ومثال على ذلك هو رأى الناس فى مدى نقاء أو تلوث مياه الشرب فى مناطقهم حيث تشير القياسات العلمية أن جميع مصادر المياه فى قرية أبخاص غير صالحة للشرب ومع ذلك يقول ٩٠,٧٪ من سكان القرية أنهم راضون عن مستوى نقاء المياه وهى أعلى نسبة بين المناطق الأربعة. والمياه الملوثة كما يرى الناس هى التى تكون لديها رائحة أو طعم غير مستحب أو التى تبدو قذرة، وتظهر هنا أهمية المعطيات الملموسة فى تحديد ماهية التلوث كما يراه الناس وبنفس المنطق فهم غير مدركين تماما للأخطار التى يسببها الرصاص مثلا، ويلاحظ المؤلفون أن تعريف الناس للتلوث يقترب كثيرا من تعريف القذارة حيث تأتى مشكلة تراكم القمامة ومشكلة المجارى (وهى المشاكل التى ينتج عنها قذارة الشارع) على رأس مصادر تلوث البيئة كما يرى سكان المناطق الأربعة. هذا بالإضافة إلى أن التركيز على هذه النواحى يتفق مع وصف المؤلفين لطبيعة بحثهم التى تهتم أساسا بما أسموه بالأجندة البنية والتى تعنى بتنظيف البيئة الملوثة مقارنة بالأجندة الخضراء والتى تهتم بالحفاظ على الطبيعة. فالبيئة فى الثقافة المصرية ترتبط ارتباطا شديدا بمفهوم النظافة وبقضية الصحة فى حين يأتى الاهتمام بالطبيعة فى مرتبة تالية. بعكس مثلا مفهوم البيئة فى الولايات المتحدة حيث تحتل الطبيعة مكانا مركزيا.

.. والحكومة!



ورغم الدور الكبير الذى تلعبه وسائل الإعلام فى تشكيل وعى الناس بقضايا البيئة إلا أن الكتاب يؤكد على أن رؤية السكان للأخطار البيئية بصفة عامة تتأثر كثيرا بمشاكلهم المباشرة فنجد أن أكثر الإجابات ركزت على تلوث الهواء والماء ومشكلة القمامة بينما أتت أشياء مثل الإشعاع النووى ومشكلة طبقة الأوزون والاحتباس الحرارى فى ذيل الاهتمامات. وكانت إجابات كل منطقة على حدة تعكس المشكلة الأكثر إلحاحا فيها، فقد رأى مثلا ٧٧,٢٪ من سكان كفر العلو أن مشكلة تلوث الهواء هى أكبر مشكلة بيئية وليس هذا بمستغرب فى تلك المنطقة التى يغمرها التراب الأسمنتى المنبعث من مداخن مصنع الأسمنت بحلوان. وكذلك انعكست المشاكل الخاصة بكل منطقة فى إجابات الناس حول مصادر التلوث. ففيما يخص تلوث الهواء مثلا نزع سكان كفر العلو إلى ذكر المصانع كسبب رئيسى فى حين رأى سكان السيدة زينب ودار السلام أن السيارات هى السبب الرئيسى بينما ذكر سكان قرية أبخاص الغبار.

وبشكل عام فإن مفهوم التلوث هو أكثر تحديدا بالنسبة للسكان من مفهوم البيئة، فالأخيرة لا تعنى لهم البيئة الطبيعية والمادية فقط وإنما أيضا وربما بشكل أكبر البيئة الاجتماعية وهى التى تعنى بأصل الإنسان وخلفيته الاجتماعية وبالتالى أخلاقه وسلوكه. وحسب مفهوم البيئة هذا يدرج السكان نوعا مهما من المشاكل البيئية فى منطقتهم وهى ما يمكن أن يطلق عليه «التلوث الأخلاقى» والذى يتضمن ظواهر مثل معاكسة الفتيات وانتشار المخدرات والبانجو والمقاهى التى تعرض أفلاما جنسية - إذن فللتلوث أيضا، كالبيئة تضمينات أخلاقية واجتماعية.

التلوث والطبقة والفقر

يركز الكتاب بشكل واضح على أهمية النظر إلى الطبقة كجزء لا يتجزأ من قضية البيئة. فمن ناحية يشير المؤلفون إلى أن الصفوة وأعضاء الطبقات العليا فى المجتمع هم الذين يتخذون معظم القرارات الخاصة بالبيئة وأن الطبقات الوسطى والدنيا هم الذين يتحملون آثار هذه القرارات. كما يلاحظون أن بعض المشاكل البيئية «ديمقراطية» نسبيا بمعنى أن آثارها تطال الجميع كتلوث الهواء نتيجة عادم السيارات مثلا فى حين أن هناك العديد من تلك المشاكل المرتبطة بالفقر ويتأثر بها الفقراء أكثر من الأغنياء: مثل وجود مساكن محدودى الدخل بجوار المناطق الصناعية والمشاكل البيئية الناتجة عن شدة الزحام ومشاكل التخلص من القمامة والصرف الصحى وانتشار الحشرات والقوارض وانتشار أمراض مثل البلهارسيا.

ونرى بوضوح كيف تتقاطع قضايا البيئة مع المشاكل الناتجة عن الفقر وتدنى مستوى المعيشة وبالتالى يساهم الكتاب فى طرح قضية البيئة بصفتها



كتاب الزاوية

عبقرية المسيح

صورة وصفية

من أقدم الصور الوصفية التى حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون فى القرن الرابع وزعم رواتها أنها كتبت بقلم بيليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية، رفعها إلى مجلس الشيوخ الرومانى فى عصر الميلاد، وجاء فيها: «إنه فى هذا الزمن ظهر رجل له قوة خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلامذته بابن الله، وكان للرجل سمت نبيل وقوام بيِّن الاعتدال، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معًا، فيحبه من يراه ويخشاه. شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول، ولكنه فى جانب الأذن أجعد لماع، وجبينه صلت ناعم، وليس فى وجهه شية، غير أنه مشرب بنضرة متوردة، وسيماه كلها صدق ورحمة، وليس فى فمه ولا أنفه ما يعاب، وعيناه زرقاوان تلمعان، مخيف إذا لام أو أنب، وديع محبب إذا دعا وعلم، لم يره أحد يضحك، ورآه الكثيرون يبكى، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان، وكلامه متزن رصين لا يميل إلى الإطناب، وملاحته فى مرآه تفوق المعهود فى أكثر الرجال».

إلا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفى إسنادها التاريخى، ومثلها جميع الروايات التى تداولها الناس فى ذلك العصر أو بعده، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به إلا أنه مدسوس من أعداء المسيحية فى العصور الأولى، كقول بعضهم إنه كان قميئًا أحدب دميم الصورة، فإن الشريعة الموسوية كانت تشترط فى الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معًا.

قضية تنموية حاسمة. ويظهر هذا من خلال الوصف الدقيق للوضع البيئى فى مناطق البحث وبالذات فى تسليط الضوء على الظروف المادية والموضوعية التى تفسر إلى حد كبير ارتباط الظروف المعيشية للفقراء والمشاكل الناتجة عن الفقر بمشكلة التلوث. ومثال على ذلك مشكلة القمامة والتى يجمع خبراء التنمية والمراقبون وسكان المناطق على وجودها كمشكلة بيئية ضخمة. سنجد أن عملية جمع القمامة من تلك المناطق إما غير موجودة (كما فى أبخاص وكفر العلو) أو هى غير منتظمة. وحتى فى دار السلام والسيدة زينب فإن جامعى القمامة لا يأتون بشكل منتظم وحين يأتون فإن عرباتهم لا تستطيع الدخول فى الشوارع الضيقة والأزقة التى تظل بذلك محرومة من تلك الخدمة. هذا فضلا عن أن جامعى القمامة والذين يعتمد نشاطهم الاقتصادى الأساسى على المخلفات القابلة للتدوير لا يجدون الحافز الكافى للعمل فى المناطق الفقيرة والتى لا قيمة تذكر لقمامتها، وتحت هذه الظروف يلجأ السكان إلى التخلص من قمامتهم عن طريق إلقائها فى الخرابات ثم إحراقها بعد ذلك أو إلقائها فى الترع بالنسبة لسكان القرى. وتؤدى مشكلة القمامة إلى تفاقم مشكلة أخرى وهى انتشار الذباب والبعوض والصراصير والفئران والتى لا يقتصر ضررها البيئى على الأمراض التى تنقلها، وإنما يشمل أيضا محاولات السكان مكافحتها بالاستخدام المفرط للمبيدات الحشرية، حيث يذكر أكثر من ٦٥٪ من أفراد العينة أنهم يستخدمون المبيدات بانتظام داخل منازلهم للقضاء على الحشرات. ولنتخيل معا نوعية الهواء الذى يستنشقه سكان كفر العلو داخل منازلهم حيث يضطرون إلى إغلاق نوافذها باستمرار مع تغطيتها بالبلاستيك لمنع غبار الأسمنت من النفاذ إلى الداخل مما ينتج عنه انعدام التهوية وتفاقم مشكلة تلوث الهواء وفوق كل ذلك يضطرون إلى استخدام المبيدات للقضاء على الحشرات. هذا فضلا عما يمثله ثمن المبيد من إرهاق لميزانية السكان الفقراء أصلا.

ورغم أن موضوع الكتاب هو «المصريون العاديون» إلا أننا لسنا أمام مقابلة بسيطة ما بين «الصفوة» و«الشعب». فهناك فروق كبيرة بين مناطق البحث الأربعة ويلعب الموقع دورا كبيرا فى تفسير الاختلافات فى الرؤى والأفكار الخاصة بالبيئة والتلوث. ويظهر هذا العامل مثلا فى إجابة السكان على سؤال: كيف تفسر سلوك الناس الذين يلقون بالمياه (القذرة) والقمامة فى الشارع؟ والإجابتان الرئيسيتان هنا هما:

١ـ الناس ليس لديها حل آخر وقد أعطى هذه الإجابة ٥٥,٣٪.

٢ ـ الناس أميون وجهلة وليس لديهم وعى وقد أعطى هذه الإجابة ٣١,٣٪.

وهذه النسب هى بالنسبة للعدد الإجمالى لأفراد العينة. أما إذا نظرنا إلى إجابات كل موقع على حدة فإن فارقا ضخما يظهر بين إجابات الموقع الريفى (أبخاص) وشبه الريفى (كفر العلو) من جهة وبين الموقعين الحضريين (دار السلام والسيدة زينب) من جهة أخرى. فنسبة من رأوا أن الناس ليس لديها بديل آخر فى المواقع الريفية تزيد على أربعة أضعاف نسبتها فى الموقعين الحضريين (كفر العلو ٩٣,٧٪ وأبخاص ٩٢,٩٪، دار السلام ٢٣٪، السيدة زينب ١٧,٤٪) كذلك فالفارق أيضا ضخم بين المواقع الريفية والحضرية فيما يخص الإجابة الثانية فقد عزى أكثر من نصف المبحوثين فى الموقعين الحضريين هذا التصرف إلى الجهل وقلة الوعى فى حين أعطى هذه الإجابة ٤,٥٪ فقط فى أبخاص و٣,٢٪ فى كفر العلو، ويرى المؤلفون فى الفرق بين المجموعتين نوعا من التقسيم الطبقى بين من هم فى أدنى السلم الاجتماعى من ناحية ومن هم أعلى منهم بقليل، حيث يستخدم سكان الحضر وضعهم الأعلى نسبيا لإقرار أفضليتهم الأخلاقية، وإن كان من الممكن أيضا الطرح بأن سكان المواقع الحضرية هم الأكثر تعرضا لتفسيرات خطاب الصفوة المهيمن والذى يرى دائما فى جهل وقلة وعى الطبقات الأدنى السبب الرئيسى لتلوث البيئة ولمشاكل أخرى عديدة، فتصبح تلك هى «الإجابة النموذجية» والتى تميز صاحبها وتشبهه بالجماعة الأفضل.

ورغم الدور الكبير الذى تلعبه الطبقة والوضع الطبقى فى التحكم فى أشكال «العدالة البيئية» بالإضافة إلى تأثير رؤية الطبقات لبعضها البعض فى تشكيل المفاهيم الخاصة بالتلوث وفى بلورة التصورات الثقافية لدى المجموعات الاجتماعية المختلفة حول أسباب تلوث البيئة إلا أن هذه الزاوية هى فقط واحدة من عدة اتجاهات تحليلية يستخدمها المؤلفون، كما أن الطبقة هى فقط واحدة من عدة أشكال للتمايز الاجتماعى التى يتناولها الكتاب، فالبحث تعامل مع تقسيمات ومتغيرات عدة مثل النوع والسن ودرجة التعليم، بالإضافة إلى بعض التقسيمات الاجتماعية الأخرى داخل مناطق البحث كقولهم مثلا: إن العوامل التى تعرقل جهود التعاون بين السكان هى وجود انقسامات بين السكان القدامى والجدد كما فى كفر العلو ودار السلام والسيدة زينب أو التنافس بين العائلات الكبيرة فى أبخاص وكفر العلو وكذلك الانقسامات بين عمال مصنع الأسمنت والآخرين فى كفر العلو. و للمثال الأخير اهمية خاصة إذ يشير إلى عامل مهم فى إحجام البعض عن المشاركة الفعالة فى مكافحة عوامل التلوث حيث إنه فى كثير من الأحيان تتعارض الرغبة فى العيش فى بيئة نظيفة مع المصلحة الاقتصادية والحاجة المادية ونرى هنا كيف تستخدم إدارة مصنع الأسمنت حاجة العمال إلى الوظيفة فى إقناعهم بعدم المشاركة فى الاحتجاج على التلوث الذى تخلفه تلك الصناعة حيث أقنعت الإدارة العمال أن زيادة الإنتاج وبالتالى زيادة دخلهم من الحوافز تتوقف على عدم استخدام الفلتر على مداخن المصانع.



وهكذا نعود إلى الارتباط بين الفقر والتلوث والذى يظهر أيضا فى عدم قدرة السكان الذين يعانون مشاكل عدة من جراء التلوث واضرارة الصحية على المفاضلة بشكل حاسم بين وجود المصانع وبين البيئة النظيفة، فالحاجة إلى العمل قد تفوق الحاجة إلى الهواء النظيف، كذلك الأمر بالنسبة للموقع الريفى أبخاص حيث يعلم الناس أضرار المواد الكيماوية ولكنهم اختاروا - بتعبير المؤلفين - صفقة فاوستية أى استخدام الكيماويات الضارة فى الزراعة فى مقابل محصول أوفر يدر دخلا أكبر.

البيئة والناس والحكومة

ومن أكثر إسهامات الكتاب أهمية وجدة هى الخاصة بتحديد المسئولية عن التلوث من وجهة نظر السكان ورؤيتهم لدور الحكومة ومعوقات النشاط البيئى ومكافحة التلوث وبالتأكيد فإن طرح الكتاب لهذه القضايا وتحليل المؤلفين لنتائج البحث لا يفيد فقط فى فهم علاقة الناس بالبيئة وإنما يتعداه إلى إلقاء الضوء على جوانب مهمة من المجتمع المصرى المعاصر تتعلق برؤية الناس لأنفسهم ولحكامهم.

وأكثر نتيجة مدهشة هى أن الغالبية العظمى ترى أن المتسبب الرئيسى للتلوث هم الناس أنفسهم وممارساتهم الخاطئة والحل يكون بأن يقوم الناس من سلوكهم، ويفسر المؤلفون هذه الإجابة والتى يصفونها بأنها «غير متوقعة» بأن وعى الناس بالمشاكل البيئية حولهم يوازيه الوعى «بقلة حيلتهم» وبأن احتجاجاتهم على الأسباب الجذرية للمشاكل سوف تقابل إما بالقهر أو التجاهل مما يدفعهم إلى حصر اللوم داخل المجال الوحيد الذى يتمتعون فيه بأى سلطة وهى فقط سلطتهم على أنفسهم وعلى سلوكهم وتصرفاتهم، فينتهى الأمر بأن يتشابه تشخيص الفقراء إلى حد كبير مع تشخيص الطبقات العليا للمشكلة البيئية وهو أن الفقراء - بسبب سلوكهم الخاطئ - هم المتسبب الرئيسى فى القذارة والتلوث، على أن هذا الرأى تجب قراءته على خلفية رؤية السكان لدور الحكومة وواجباتها نحو المواطنين، فالناس وإن لم يلوموا الحكومة بشكل مباشر فى التسبب فى التلوث إلا أنهم يرون أن حلول الكثير من المشاكل لابد أن تأتى على يد الحكومة. فهم وإن رأوا مثلا أن سبب قذارة الشارع هو أن الناس تلقى بقمامتها فيه إلا أنهم يرون أن دور الحكومة - أولا - أن توفر نظاما فعالا لجمع القمامة والتخلص منها، وثانيا: أن تقوم بدورها فى تنظيم العلاقات بين المواطنين وبعضهم ووضع قواعد واضحة يتم تطبيقها على الجميع دون استثناء، فالناس مثلا يجدون أنه من الصعوبة أن يقوم الجار بتأنيب جاره على إلقاء القمامة وأن ذلك هو دور القانون والقائمين على تطبيقه، هذا فضلا عن أن سكان مناطق البحث لديهم شعور قوى بأن الحكومة تحابى الأقوياء والأغنياء وتستثنيهم من تطبيق القوانين.

وهكذا فإن لدى السكان رؤية واضحة لتقسيم الأدوار والمسئوليات بين الشعب والحكومة ولديهم أيضا فكرة واضحة عن حقوقهم التى يعتقدون - عن حق - أنهم لا ينالون منها النصيب الكافى بسبب ضعفهم وقلة نفوذهم، وتوجد فى الكتاب أكثر من إشارة إلى ما ذكره السكان فى أكثر من منطقة حول تذمرهم لأنهم مواطنون يدفعون الضرائب مثلهم مثل الأخرين وبالتالى من حقهم على الدولة أن توفر لهم الخدمات الأساسية إلا أن أحياءهم الفقيرة تظل مهملة ولا تحظى بالاهتمام الذى تناله الأحياء الأرقى والتى يقطنها المواطنون الموسرون. وهى مفارقة فعلا أن نجد أن على سكان دار السلام تحمل نفقة توصيلات الصرف الصحى من الماسورة الرئيسية إلى منازلهم بينما مثل هذه التكلفة ليست واردة بالنسبة لسكان مصر الجديدة أو الزمالك مثلا.

نحن هنا إذن أمام شعور سائد وقوى بالتهميش وهو شعور له بالتأكيد ما يبرره. فالمواطن المصرى ليس سلبيا بقدر ما هو مستبعد ولا يقتصر هذا الوضع فقط على تجاهل مطالبه وإنما يمتد إلى المعوقات العديدة التى تواجه محاولات السكان لتنظيم أنفسهم فى عمل مشترك، وليس أقلها خوفهم من البطش بهم مما يتسبب فى إجهاض العديد من التجارب كمثل تفكير بعض السكان فى دار السلام فى تكوين جمعية للحى تعنى بنظافته إلا أنهم أحجموا عن ذلك خوفا من أن تعتبرها الحكومة تنظيما معارضا، وبنفس المنطق ينظر السكان إلى التعاون مع أحزاب المعارضة على أنه عمل يكتنفه الكثير من المخاطر.

ومع هذا فإن الكتاب يسلط الضوء على الكثير من الأعمال الإيجابية التى قام بها الناس فعلا من أجل تحسين أوضاعهم البيئية.

هذا الكتاب ذو الإخراج الجميل والمضمون المهم لا يقدم فقط إسهاما نظريا وعلميا بعرضه لنتائج مشروع بحثى جاد، وإنما يسعى إلى إرساء مبدأ أن تكون الناس العادية وثقافتها وآراؤها جزءا لا يتجزأ من عملية رسم السياسات وسن القوانين. والكتاب يستحق أن يقرأ بعناية ليس فقط لأهميته بالنسبة لقضية البيئة وإنما لأنه يقدم منهجا يجب أن يحتذى فى الدراسات التنموية التى ستظل قاصرة وعاجزة عن إرشاد السياسات إذا لم تؤخذ آراء الناس ورغباتهم فى الاعتبار. يبقى فقط أن نستحث المؤلفين على الإسراع بتوفير ترجمة عربية للكتاب حتى تتسع الفائدة منه وحتى يتسنى لسكان مناطق البحث الاطلاع على نتائج مشاركتهم والشعور بمردود إسهاماتهم.

كتاب الزاوية

عبقرية المسيح

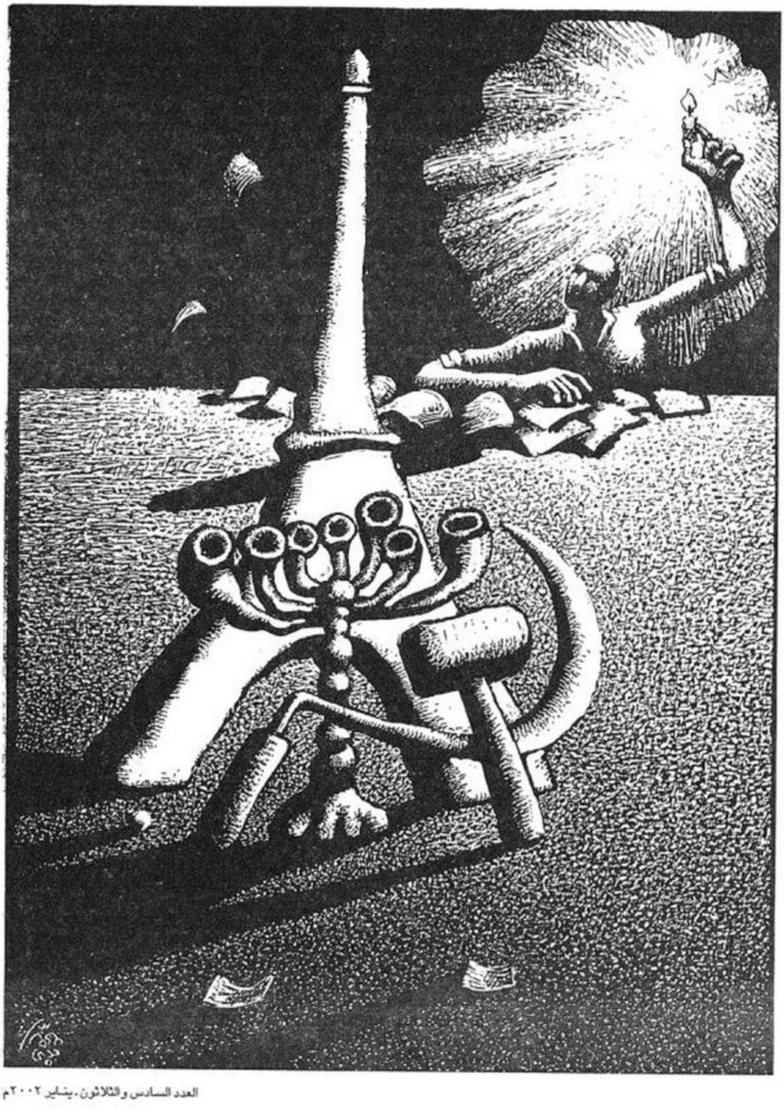
تجارب الدعوة

منذ الخطوة الأولى التى خطاها السيد المسيح فى التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل «السلطة» ويتنحى لها عن ميدانها، فلا يتصدى لها بإبطال أو إنفاذ: لا يبدلها ولا يدعى لنفسه ولايتها، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة فى زمنه، فإنه - كما تقدم - قد نشأ فى دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهى والحكام والمتحكمين: ما فاض من رومة الشرائع تملأه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه وأذنابه وتابعيه، ولا حاجة إلى مزيد من الأحكام مع فساد الحكام، فإذا وجب إصلاح بعضها فالخير من إصلاحه لا يساوى جهد الحرب التى تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الأدومية اليهودية التى تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين، ومن الحق أن الشر الذى ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذى يتأتى من ورائه، إن تأتى، وقد يدرك بإصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الإنسانية وتعليم الآحاد أمثلة من الأخلاق تهدى أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين.

إلا أنه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه، وسرعان ما أقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة - سلطة الدين قبل كل شىء - بالخير المقبل من ذلك الداعية المحبوب، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والجمود جاءوه فى ميدانه بعد أن ترك ميدانهم.

تاريخ العلاقات السرية بين يهود مصر

فى العشرينيات من القرن العشرين وحتى الأربعينيات تزعم يهود منظمات نقابية، وكان منهم داود ناحوم، كما لعبوا دوراً مهمًا فى الصحافة مثل يعقوب صنوع، ولم يجد المصريون العاديون غضاضة فى التعامل أو حتى التعاون مع اليهودى مثله مثل القبطى



توفى فى منتصف مارس ٢٠٠١ شحاتة هارون وهو أحد الشخصيات البارزة فى التاريخ المعاصر لليسار المصرى بشكل عام، والحركة الشيوعية المصرية بشكل خاص. ومن اللافت للنظر أن شحاتة هارون اليهودى المصرى المنتمى تاريخيّاً للتيار الشيوعى قد طلب فى وصيته استقدام حاخام من فرنسا للصلاة عليه، وطلب أن ينشر فى نعيه جميع هوياته: المصرية واليهودية والانحياز للمضطهدين بمن فيهم الفلسطينيون.

وقد أثار غياب شحاتة هارون من جديد ليس فقط مسألة العلاقة بين اليهود المصريين والحركة الشيوعية، حيث لاشك أن هناك الكثير من الكتابات التى تناولت هذه الزاوية سواء من داخل معسكر الحركة الشيوعية المصرية أو من خندق المعارضين لها، ولكنه أثار العلاقة الثلاثية الأبعاد بين يهود مصر والحركة الشيوعية وفرنسا، وهى علاقة تعرض لها عرضاً عدد من الكتّاب فى معرض تناولهم لتاريخ يهود مصر أو لتاريخ الحركة الشيوعية فى مصر أو الحزب الشيوعى الفرنسى، ولكن ربما لم يتم تناولها بشكل مترابط فى مقال بحثى واحد من قبل.

ويرتبط الموضوع أيضاً بمناسبة صدور الجزء الأول من مذكرات الأستاذ محمد يوسف الجندى الذى حمل عنوان مسيرة حياتى حتى ١٩٦٤ «والصادر عن دار الثقافة الجديدة» مؤخراً، وهو كتاب مهم من حيث تناوله لدور اليهود فى الحركة الشيوعية المصرية، وأنماط تطور هذه الحركة، وعلاقة ذلك بفرنسا وحزبها الشيوعى، وذلك كله من منظور رواية السيرة الذاتية لكاتبه.

ويقر محمد يوسف الجندى فى سيرته الذاتية (ص٣٥) أن مؤسسى أكبر أربع منظمات شيوعية فى مصر كانوا يهوداً، إلا أنه يوضح بجلاء أن ذلك لم يثر تحفظاً لديه. ففى ذلك الوقت، وقبل حرب فلسطين كان المجتمع المصرى يتقبل اليهود ودورهم فى المجالات السياسية والاقتصادية والنقابية والاجتماعية. ففى العشرينيات من القرن العشرين وحتى الأربعينيات تزعم يهود منظمات نقابية، وكان منهم داود ناحوم، كما لعبوا دوراً مهما فى الصحافة مثل يعقوب صنوع، ولم يجد المصريون العاديون غضاضة فى التعامل أو حتى التعاون مع اليهودى مثله مثل القبطى.

وبالإضافة إلى اليهود ذوى الجذور المصرية، يشير محمد الجندى إلى أن جالية كبيرة من الأجانب كانت تعيش فى مصر،

مسيرة حياتى حتى ١٩٦٤
محمد يوسف الجندى
القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ٢٠٠١.

والحركة الشيوعية .. وفرنسا

وليد عبدالناصر

خاصة قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية طبقاً لاتفاقية مونتريه لعام ١٩٣٧، وكان من هؤلاء الأجانب نسبة مهمة من اليهود من جنسيات مختلفة (الفرنسية/ الإيطالية/ اليونانية/ الأرمنية) أو حتى بلا جنسية. وكانت فرصة هؤلاء فى الانفتاح على أوروبا وعلى الثقافة والفكر هناك أكثر من المصريين، ولذا كان من الطبيعى أن يكون لهم ريادة فى مختلف المجالات، بما فى ذلك الحركات الثورية والتعرف على الفكر الماركسى.

وخلال الحرب العالمية الثانية، وأثناء التحالف ضد ألمانيا النازية والذى ضم الاتحاد السوفيتى السابق، أصبح هناك تساؤل فى تقبل دخول الكتب عن الاتحاد السوفيتى وعن النظرية الماركسية، وافتتح «هنرى كورييل» - اليهودى ذو الجنسية الإيطالية الذى قدم أبواه أصلاً من فرنسا للإقامة والعمل فى مصر - مكتبة فى ميدان مصطفى كامل سماها «مكتبة الميدان»، كانت تعرض الكتب التى تعكس الفكر الشيوعى، وبالرغم من أن أغلبها كان باللغات الأجنبية، فقد اعتاد الشباب اليسارى فى مصر على ارتيادها، ويوضح محمد الجندى أن أبا كورييل كان مليونيراً وأنه فى بعض الروايات كانت المكتبة ملك والده ولكن كان يديرها هو.

ويرى محمد يوسف الجندى فى سيرته الذاتية أن اليسار المصرى كان يعارض الدعوة الصهيونية والدعوة لهجرة اليهود إلى فلسطين، وذلك بالرغم من أن المنظمات الشيوعية فى مصر كانت تضم عدداً من اليهود. بل إن هؤلاء اليهود شكلوا ما سمى بـ«رابطة اليهود للنضال ضد الصهيونية»، كما أنه يؤكد أن النضال ضد المنظمات الشيوعية أيد نضال الشعوب العربية ضد الاستعمار ودعا للتضامن معها، وفى ضوء وجود غالبية ضمن قادة وأعضاء المنظمات الشيوعية فى مصر من الأجانب خلال الأربعينيات (ص٤٢)، فإن محمد يوسف الجندى يرى أنه كان من الطبيعى أن تساند هذه المنظمات الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، وأن تؤيد مجىء الحكومة الوفدية للحكم فى ٤ فبراير ١٩٤٢، وذلك بالرغم من اتهام قوى وطنية أخرى لهذه الحكومة بأنها جاءت على أسنة الحراب البريطانية.

ونلاحظ من قراءة السيرة الذاتية للأستاذ محمد الجندى أنه عندما يسرد أسماء من شملتهم اعتقالات ١١ يوليو ١٩٤٦ التالية للدور النشيط للحركة الوطنية العليا للطلبة والعمال التى لعب الشيوعيون دوراً مهما فى إطارها، يبرز عدد لا بأس به من الأسماء اليهودية مثل هنرى كورييل وداود ناحوم ونحوم منشه وإيمى ستون وغيرهم (ص٥٥-٥٦).

ويتعرض محمد الجندى للخلافات التى جرت عند توحيد تنظيمى «ايسكرا» و«الحركة المصرية للتحرر الوطنى» فى تنظيم واحد هو «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو)» أو ما سمِّى تاريخياً بوفد الشيوعيين، وجاء ذلك عقب أحداث ١٩٤٦ (ص٥٩). فقد كان حجم الأجانب فى قيادة «ايسكرا» يمثل الأغلبية، بينما كانت القيادة فى «الحركة المصرية» من المصريين عدا هنرى كورييل، وتركز الخلاف حول تمصير القيادة، وكان كورييل من أبرز الداعمين للتمصير، مما حسم الخلاف لصالح التمصير مع بقاء كورييل مسئولاً سياسياً و«هليل شفارتز» مسئولاً تنظيمياً.

وبحلول هذا الوقت، كان مكتب والد هنرى كورييل قد تحول إلى مكان للقاءات التنظيمية للشيوعيين المصريين، وكان كورييل يتحدث العربية بلكنة أجنبية، فلغته الأولى كانت الفرنسية، مثله مثل معظم اليهود الأجانب المقيمين فى مصر حينذاك، ولكنه كان يقرأ العربية بسهولة (ص٦٠). وكانت الحركة الشيوعية - فى رأى محمد يوسف الجندى - مدخلاً لربط كورييل وغيره من اليهود ذوى الأصول الأجنبية مع المصريين من عمال وموظفين ومثقفين، بل وأزهريين، وغيرهم.

ومن المحطات المهمة فى مذكرات محمد الجندى تعرضه لحرب فلسطين، فهو يقر بمعارضة «حدتو» للحرب التى كانت كوادر الحركة ترى فيها مؤامرة مشتركة بين الاستعمار البريطانى والسراى والرجعية المصرية لصرف الأنظار عن الوجود البريطانى فى مصر (ص٦٧ - ٦٨). وبالرغم من ذلك يعيد تأكيد أن الحركة كانت ترفض هجرة اليهود إلى فلسطين، وأنها دعت أصلاً لإقامة دولة ديمقراطية ومستقلة واحدة تضم جميع سكان فلسطين من العرب واليهود، وهو ما رفضه الطرفان العربى واليهودى. ويعترف محمد الجندى بتأييد «حدتو» لقرار تقسيم فلسطين، ولكنه يوضح أن ذلك لم يجىء باعتبار التقسيم حلاً جيداً، ولكن باعتباره الحل الوحيد الممكن الذى يضمن جلاء الجيوش البريطانية عن فلسطين (ونلاحظ هنا عدم تعرض الكاتب لما يضمن حقوق عرب فلسطين)، ويرى أن البديل كان حرباً لم تكن مصر مستعدة لها، وأن الهدف المتفق عليه من وراء هذه الحرب بين الملك عبدالله والوكالة اليهودية والاستعمار البريطانى هو منع قيام دولة فلسطين. ويخلص الجندى إلى أن الزمن أثبت صحة وجهة نظر «حدتو»، فقد لحقت الهزيمة بالعرب، واستولى اليهود على مساحة أكبر مما قررته الأمم المتحدة لهم، وتم القضاء على فرصة إقامة دولة فلسطينية، فى حين أنه كان يجب التمسك بالحدود التى حددتها الأمم المتحدة للدولة الفلسطينية، حتى لو كان ذلك كحد أدنى.

ويتضح من تحليل الأستاذ محمد الجندى لأحداث حرب فلسطين التزامه بالتفسير التآمرى لتلك الأحداث، وهو تفسير تبنته قوى سياسية عديدة لها توجهات فكرية متباينة تجاه نفس تلك الأحداث، وتراوحت مواقعها ما بين التيارات الدينية والقومية العربية والوطنية المصرية واليسارية.

وينتقل الكاتب من تناول أحداث حرب فلسطين إلى إفرازاتها على الساحة المصرية، خاصة ما أسماه بحالة «الهستيريا» التى سادت مصر وتميزت بالعداء لليهود، بالرغم مما يؤكده الأستاذ الجندى من أن اليهود المصريين كانوا يحملون نفس ملامح المسلمين والأقباط المصريين، ويتهم الجندى جماعة الإخوان المسلمين وجماعات أخرى باستغلال حرب فلسطين لإذكاء مشاعر التعصب ضد اليهود، ويوضح أنه عقب اغتيال النقراشى باشا عام ١٩٤٩، فإن قائمة الاعتقالات لم تقتصر على الإخوان المسلمين المتهمين بعملية الاغتيال، بل شملت أيضاً الشيوعيين واليهود، بمن فيهم كورييل.

ويفرق محمد يوسف الجندى بين الصهيونية التى يعتبرها حركة رجعية وبين اليهود الذين يجب كسبهم للنضال مع العرب فى المعركة ضد الاستعمار والصهيونية (ص٧٢)، منطلقاً مما تمليه عليه انتماءاته الفكرية لمفاهيم الأممية والاشتراكية، وعلى أساس الفرضية الماركسية القائمة على اعتبار أن مصالح الشعوب الكادحة فى كل مكان واحدة رافضة لما تعتبره مظاهر التعصب القومى والتوجهات العنصرية.

ويواصل الكاتب تركيزه على شخصية كورييل المحورية فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، حيث يوضح أنه تولى لاحقاً قيادة تيار سمِّى بـ«خط القوات الوطنية الديمقراطية» وكان يدعو إلى عدم اقتصار الدعوة والتنظيم على العمال، بل شموله الفلاحين والمثقفين والطلبة أيضاً. بينما كان اتجاه آخر بقيادة د. عبدالمعبود الجبيلى يدفع إلى اقتصار العمل على صفوف العمال فقط، ثم تولى كورييل لاحقاً ما سمى بقيادة الداخل للحركة.

وإذا كان ما سبق قد تناول فى معظمه العلاقة بين اليهود والحركة الشيوعية المصرية، مع إشارات هنا وهناك إلى العنصر الثالث فى هذا المقال أى «فرنسا»، فإن التركيز على فرنسا يزداد فى مذكرات محمد الجندى عندما يشير إلى عودة د. إسماعيل صبرى عبدالله عام ١٩٤٩ من فرنسا بعد حصوله على شهادة الدكتوراه، وما ذكره عن الاتصال بالحزب الشيوعى الفرنسى أثناء إقامته هناك ومجيئه بتوجيه بتكوين الحزب الشيوعى المصرى، خاصة أن الحزب الشيوعى الفرنسى لم يكن يمنع انضمام الأجانب لعضويته مما دفع عدداً من المصريين - غالبيتهم من اليهود الذين طردوا من مصر عام ١٩٤٨ بعد اعتقالهم، حيث كان يطرد اليهود الذين لا يحملون الجنسية المصرية بينما كان يخيِّر اليهود المصريين بين مغادرة البلاد أو البقاء رهن الاعتقال، وكان عدد كبير منهم قد اختار الذهاب إلى فرنسا، سواء للبقاء فيها، أو للانتقال من هناك إلى إسرائيل للانضمام إلى صفوف الحزب الشيوعى الفرنسى، وهو ما تبلور لاحقاً فى تشكيل ما سمى بـ«المجموعة المصرية» داخل الحزب واختير إسماعيل صبرى عبدالله مسئولاً لها.

ولم يقتصر التواجد اليهودى المؤثر فى «حدتو» أو الحزب الشيوعى المصرى، بل شمل منظمات أخرى، فكان «مارسيل إسرائيل» هو أحد مؤسسى منظمة تحرير الشعب الشيوعية، كما أن سيدة أجنبية يهودية هى «أوديت حزان» هى التى أنشأت المنظمة الشيوعية المصرية.. ومن المفارقات أيضاً، أن محمد الجندى يوضح أنه التقى بهذه السيدة لأول مرة بعد ذلك فى عقد الثمانينيات من القرن العشرين، وكان اللقاء فى باريس (ص٧٦).

وتأتى مرحلة أخرى ليست أقل إمتاعاً مما سبق فى مذكرات محمد يوسف الجندى، وذلك عندما يتحدث عن خروجه من مصر هارباً واتجاهه إلى باريس، بتنظيم من الحركة الشيوعية المصرية، وذهب إلى عنوان محدد له سلفاً وكان لعائلة مصرية يهودية طردت من مصر عام ١٩٤٨ (ص٩١). ونلاحظ هنا تكرار الأستاذ محمد الجندى لمقولة طرد اليهود من مصر عام ١٩٤٨، وهى مقولة يختلف معه فيها الكثيرون بمن فيهم كاتب هذا المقال، حيث إن استخدام تعبير الطرد يوحى بالمساواة بين خروج بعض اليهود من مصر خوفاً من حالة العداء الشعبى لليهود عقب حرب ١٩٤٨ وبين الطرد المخطط والمنظم للفلسطينيين من أراضيهم بواسطة الجماعات الصهيونية فى فلسطين.

وخلال وجوده فى باريس، التقى محمد الجندى مع العديد من اليهود الشيوعيين الذين كانوا فى مصر وذهبوا إلى فرنسا دون أن يقطعوا صلاتهم التنظيمية مع الحركة الشيوعية المصرية، بل إنه يوضح أن أعضاء «حدتو» الذين انضموا فى البداية للحزب الشيوعى الفرنسى استقالوا بعد ذلك بتوجيه من هنرى كورييل

ليحافظوا على ارتباطهم العضوى بـ «حدتو» فى مصر. حيث رأى كوربيل أن جهودهم يجب أن توجه إلى داخل مصر وقام بتشكيل لجنة قيادية للعمل فى الخارج بقيادته لجمع الشتات الشيوعى المصرى فى الخارج، خاصة من اليهود، وكان كوربيل قد طرد فى منتصف عام ١٩٥٠ من مصر إلى إيطاليا باعتباره يحمل الجنسية الإيطالية، ولكن إيطاليا لم تعترف بهذه الجنسية، مما دفعه لترتيب حضوره إلى باريس بشكل غير شرعى فى أوائل عام ١٩٥١، حيث استمر فى الإقامة فيها حتى اغتياله فى ٤ مايو ١٩٧٨. وحدثت أزمة بين كوربيل وبين المجموعة اليهودية الشيوعية ذات الأصول المصرية فى باريس من جهة والحزب الشيوعى الفرنسى من جهة أخرى حين اتهم بعض قادة الحزب «أندريه مارتى» بأنه على علاقة بزوجين مصريين مشكوك فيهما»، وكان المقصود كوربيل وزوجته (ص٩٢).

ويستمر الجندى فى سرد لقاءاته باليهود المصريين المنتمين للحركة الشيوعية خلال وجوده فى فرنسا، حيث يشير إلى لقائه مع يوسف حزان الذى رتب له الإقامة مع أسرة يهودية أخرى كانت قد التحقت بعضوية الحزب الشيوعى الفرنسى (ص٩٢).

ويتناول الجندى بقدر مهم من التفصيل الخلاف بين «حدتو» ومعها الشيوعيون اليهود المصريون المقيمون فى فرنسا من جهة والحزب الشيوعى الفرنسى من جهة أخرى، ويرجعه لدعم «حدتو» - بخلاف بقية الأحزاب الشيوعية خارج مصر - لثورة ٢٣ يوليو، وجاء هذا الخلاف بين حدوث انفراج نسبى فى علاقة الحركة مع الحزب بعد الدور البارز الذى لعبته «حدتو» فى الحركة الوطنية المصرية فى مطلع الخمسينيات، وعندما تحول موقف «حدتو» عام ١٩٥٣ من تأييد الثورة إلى الدعوة للإطاحة بما أسمته بـ «الديكتاتورية العسكرية»، جاء مشروع دمج «حدتو» مع ست منظمات شيوعية صغيرة أخرى عام ١٩٥٥، إلا أن المنظمات الصغيرة التى اشترطت استبعاد كوربيل من التنظيم الموحد حتى يغير الحزب الشيوعى الفرنسى موقفه منه، وهو ما قبلته «حدتو» مرحليًا، إلى أن سمحت قيادة التنظيم الجديد الذى حمل اسم الحزب الشيوعى المصرى الموحد بإعادة كوربيل لاحقاً إلى قيادته، إلا أنه حتى فى مرحلة إبعاده، فقد أحيل إلى كوربيل موضوع تحقيق السلام بين العرب وإسرائيل، وقام بالفعل بالاتصال باليسار الإسرائيلى على أساس الدعوة لقيام دولة فلسطينية بجانب الدولة الإسرائيلية. ويشير الجندى إلى أن كوربيل كان له دور فى الكشف عن الإعداد للعدوان الثلاثى على مصر قبل حدوثه، وأنه وغيره أرسلوا المعلومات الخاصة بذلك للرئيس الراحل جمال عبدالناصر عن طريق د. ثروت عكاشة الملحق العسكرى المصرى فى باريس حينذاك الذين كانوا على اتصال به، وجاء ذلك بعد فترة كان كوربيل فيها مستمراً فى رفع شعار معارضة ما أسماه بـ «الديكتاتورية العسكرية فى مصر»، بالرغم من ظهور أصوات مصرية غير يهودية داخل «حدتو» تطالب بتغيير موقف الشيوعيين نحو تأييد عبدالناصر بعد مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥، وهو تغيير تم لاحقاً (ص٩٣).

ولا ينكر الجندى أن الشيوعيين المصريين كانوا على علم بأن قطاعات من الشيوعيين العرب الآخرين كانت تنظر إلى كوربيل باعتباره جاسوساً صهيونيًا، ولكنه ينفى عنه هذه التهمة ويؤكد دفاعهم عن كوربيل، بل ويعرب عن التقدير لدور الأخير فى التثقيف السياسى ورفع معنويات الشيوعيين المصريين المقيمين فى فرنسا وربطهم برفاقهم فى مصر (ص١٠٥ - ١٠٦). بل ويشير الجندى إلى أن العناصر اليهودية الشيوعية المصرية فى باريس مثل كوربيل ويوسف حزان كان لهم دور فى دعم القضية الفلسطينية مما دعا عرفات إلى منح كوربيل وحزان أوسمة، كما يشير إلى أن تلك العناصر ساعدت الحركات الشيوعية فى دول عربية أخرى مثل السودان.

وبالإضافة إلى «حدتو»، فإن فصائل شيوعية أخرى مثل حركة السلام المصرية دعت لتحقيق السلام بين مصر وإسرائيل منذ مرحلة مبكرة من منطلق أن من شأن ذلك أن يحقق التفرغ للتضامن من أجل مواجهة الاستعمار وتحقيق التنمية، ودعت الحركة إلى مؤتمر دولى لهذا الغرض تحضره مصر والدول العربية والدول الخمس الكبرى، ورحبت الصحف الإسرائيلية فى حينه بهذه الدعوة.

ومع هذا العرض الذى قدمناه لما تضمنته السيرة الذاتية للأستاذ محمد يوسف الجندى فيما يتعلق بتلك العلاقة ثلاثية الأبعاد بين يهود مصر والحركة الشيوعية وفرنسا، فمن المهم المقارنة مع الإشارة إلى مراجع أخرى تناولت بشكل أو بآخر نفس تلك العلاقة.

ونذكر هنا بشكل خاص كتاب «جيل بيرو» عن حياة هنرى كوربيل والذى صدر باللغة الفرنسية وترجم إلى عدة لغات أخرى، ففى هذا الكتاب يتعرض المؤلف بالتفصيل لأصول اليهود الأجانب الذين قدموا إلى مصر منذ عهد محمد على بحثاً عن مورد للرزق ومكان للاستقرار والأمان، متتبعاً سيرة هؤلاء وأبنائهم فى مصر، ومؤكداً على استمرار ارتباطهم الوجدانى والشعورى والثقافى بأوروبا والغرب وهامشية اتصالاتهم وتعاملهم مع المجتمع المصرى الذى كانوا يعيشون فيه، ثم منتقلاً إلى دائرة أضيق تضم من انضم منهم إلى الحركة الشيوعية المصرية، وفى مقدمتهم هنرى كوربيل، وبعد التعرض لدور هؤلاء فى الحركة السياسية والفكرية فى مصر حتى خروجهم منها، يعود المؤلف مرة أخرى إلى تتبع سيرة هؤلاء واستمرار التواصل بينهم بعد وصولهم إلى فرنسا، ومدى ما بقى من صلات بينهم وبين الحركة الشيوعية المصرية حتى اغتيال كوربيل فى باريس عام ١٩٧٨.

كما يهمنا الإشارة إلى الجزء الوارد فى المجلد الثالث من كتاب د. رفعت السعيد «تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ١٩٤٠ - ١٩٥٠» والذى كرسه للرد على السؤال بشأن كثافة التواجد اليهودى والأجنبى فى صفوف الحركة الشيوعية المصرية. وجاءت إجابة د. رفعت السعيد بأن نسبة من هؤلاء الأجانب واليهود لم يكونوا من الرأسماليين، بل كانوا من الحرفيين والعمال والمهنيين والمثقفين الذين احتكوا بشكل مباشر بالمصريين وحياتهم الاجتماعية، والذين كان من الطبيعى أن يتخذوا منحى اشتراكيًا ويساريًا، وهو تحليل يتفق فيه د. رفعت السعيد مع مصطفى طيبة فى كتابه «الحركة الشيوعية المصرية ١٩٤٥ - ١٩٦٥: رؤية داخلية». ويوضح الكاتبان - وكلاهما انتمى إلى الحركة الشيوعية المصرية فى تلك المرحلة - دور شخصية مثل جوزيف روزنتال وهو يهودى روسى فى تأسيس أول نقابات عمالية فى مصر للفافى السجائر والخياطين وعمال المطابع.

ويتفق السعيد وطيبة على أن امتدادات الفاشية السياسية فى أوروبا داخل مصر، ونمو التيارات الدينية الإسلامية، والحرب العالمية الثانية، كانت كلها عوامل لها تأثير على توجهات اليهود والأجانب فى مصر فى تلك المرحلة. فعلى الصعيد السياسى ظهر تقارب لرجال القصر مع المحور، وبدأت أحزاب مثل مصر الفتاة والأحرار الدستوريين تدفع فى نفس الاتجاه، واتسمت الجالية الإيطالية فى مصر بالانقسام بين فاشيين ومعارضين للفاشية، وتزامن ذلك كله مع تعاظم دور الأزهر وجماعة الإخوان المسلمين والتوظيف السياسى للدين، مما دفع الأجانب واليهود (وكان عددهم حوالى ٦٣ ألفا فى مصر طبقاً لتعداد ١٩٣٧) إلى نزعة يسارية عكست مخاوفهم من هذه الظواهر، التى رأوا فيها جميعاً مظاهر لإفرازات الفاشية فى أوروبا، مما دفعهم إلى تبنى نقيض الفاشية.

وكما هو الحال مع محمد يوسف الجندى، فقد رأى السعيد وطيبة فى حرية الحياة الثقافية والفكرية التى تمتع بها الأجانب فى ظل الامتيازات الأجنبية سبباً إضافيًا لانضمامهم للحركات الشيوعية، حيث كان مسموحاً لهم بإدخال المطبوعات الشيوعية فى ظل الحماية التى وفرتها الامتيازات الأجنبية لنشاطهم السياسى، بالإضافة إلى مشكلة اللغة التى حالت دون اطلاعهم على الأدبيات السياسية المصرية، بينما كانت الأدبيات السياسية الماركسية متاحة بلغاتهم، كذلك فقد بدأت بريطانيا تتغاضى بعض الشىء عن النشاط الشيوعى خلال الحرب العالمية الثانية باعتباره يصب لصالح مناهضة المحور.

ويؤرخ السعيد وطيبة للدور اليسارى لليهود المصريين والأجانب إلى ما قبل المرحلة التى يؤرخ لها محمد يوسف الجندى، ويشيران بشكل خاص إلى «ليون كاسترو» الذى كان صديقاً لسعد زغلول و«زكى ليفى» ثم نشأة تيار يسارى بزعامة «إدوارد سوريانو» الذى أقام علاقات وطيدة مع الحزب الشيوعى الفرنسى، ثم ظهور «اتحاد أنصار السلام» عام ١٩٣٢ بغالبية يهودية ضمن أعضائه وبزعامة «جاكو دى كومب» وارتباطه بالتجمع العالمى للسلام. ويتفق السعيد وطيبة فى أنه نظراً



يعترف محمد الجندى بتأييد «حدتو» لقرار تقسيم فلسطين، ولكنه يوضح أن ذلك لم يجىء باعتبار التقسيم حلاً جيداً، ولكن باعتباره الحل الوحيد الممكن الذى يضمن جلاء الجيوش البريطانية عن فلسطين

لمطاردة عناصر الحزب الشيوعى القديم الذى تم حله عام ١٩٢٤ بواسطة حكومة الوفد، فقد بدا دور الأجانب - خاصة اليهود - متضخماً بالنظر إلى عددهم فى المجتمع المصرى عند تأسيس الحركات الشيوعية المصرية فى مطلع الأربعينيات، إلا أن الكاتبين لا يفسران لنا سبب تمتع اليهود والأجانب بنسبة مرتفعة أيضاً من مواقع القيادة والعضوية فى الحزب الشيوعى المصرى القديم الذى دام ما بين عامى ١٩٢٢ و١٩٢٤.

إلا أنه فى حالة «مصطفى طيبة»، فإنه يعبر فى بعض مواقع كتابه عما يسميه بتململ من المثقفين أنصاف الأجانب فى «ايسكرا» و«الحركة المصرية للتحرر الوطنى»، ولكنه يرفض الهجوم على هنرى كورييل باعتباره مدخلاً للهجوم على الحركة الشيوعية المصرية والتشكيك فيها بحجة أن بعض مؤسسى منظماتها يهود تحيط بهم الشكوك، معتبراً أن الحركة الشيوعية المصرية أكبر بكثير من كورييل وغيره، ويشيد بدور كورييل فى ترجمة وطبع الكتب الماركسية مما جعل الفكر الشيوعى فى متناول العامة الذين لا يعرفون لغة أجنبية، وإدماج النوبيين فى الحركة الشيوعية المصرية نظراً لاهتمامه بنشاطهم.

إلا أنه بخلاف محمد الجندى، فإن مصطفى طيبة يعترف بأن انحسار نشاط «حدتو» وانعزالها عن الجماهير كان بسبب موقفها من قضية فلسطين حيث أقرت بالحق القومى لليهود فى تكوين دولتهم فى أرض فلسطين، وهو موقف يذكر طيبة أن كورييل صاغه بنفسه فى محاضرة كانت تدرس للكوادر، وعندما طرح طيبة موقفاً مناهضاً لذلك الموقف فى اللجنة المركزية لـ«حدتو»، هاجمه كورييل واتهمه بالعداء للأممية ولمواقف الاتحاد السوفيتى السابق.

وتأكيداً للعلاقة بين الحركة الشيوعية المصرية وفرنسا، يشير مصطفى طيبة إلى أنه عند تكوين الحزب الشيوعى المصرى، اقترح د. فؤاد مرسى استشارة الحزب الشيوعى الفرنسى، وسافر بالفعل سعد زهران إلى باريس ومعه الوثائق الأساسية للحزب، وعاد بموافقة الحزب الشيوعى الفرنسى وتوصيته بجمع كل الشيوعيين المصريين فى الحزب الجديد.

واتفاقاً مع ما ذكره الجندى عن دعم بعض اليهود المصريين الشيوعيين لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، يوضح طيبة أن «مارسيل إسرائيل» من «منظمة تحرير الشعب» أيَّد حركة الجيش من معتقله.

ويقر مصطفى طيبة بعدم إدراك الحركة الشيوعية المصرية لدور مصر فى حركة التحرر العربى، وعجزها عن فهم العلاقة العضوية بين الوطنية المصرية والقومية العربية، وافتقاد الوعى بالأبعاد الخطيرة للحركة الصهيونية العالمية وتخطيطها لإقامة دولة إسرائيل الكبرى. ويرفض طيبة إشادة رفعت السعيد بموقف «حدتو» ضد حرب فلسطين، موضحاً أنها لم تستند فقط إلى الموقف السوفيتى المؤيد للتقسيم، وإنما إلى الحديث عن وجود قومية إسرائيلية تنطبق عليها شروط الأمة كما حددها استالين من لغة مشتركة وتكوين نفسى مشترك وأرض مشتركة يجب أن تكتسب مشروعيتها فى صورة دولة، وبذلك تصبح حرب ١٩٤٨ هى حرب تحرير فى مواجهة الرجعية العربية، بل ويتهم طيبة كورييل بالدفاع عن العدوان الإسرائيلى عام ١٩٦٧ باعتباره نضالاً حفاظاً على البقاء وفى مواجهة الإبادة والفناء دون تيقن بانكشاف الأهداف الاستعمارية الكامنة وراء زرع إسرائيل فى المنطقة.

ومن الأجزاء الممتعة فى كتاب مصطفى طيبة المشار إليه، رده على مقال المستشار طارق البشرى نشره فى مجلة الهلال عام ١٩٨٨ وتناول فيه دور هنرى كورييل، حيث رأى البشرى أن كورييل وجَّه التنظيم ضد الحركات الشعبية الإسلامية والوطنية والعربية بدعوى أنها فاشية، واتهمه بالتعاون مع الصهاينة فى فلسطين، مما أوحى بأن الحركة الشيوعية المصرية كانت فى مجملها أداة فى يد فئة من اليهود لتحقيق أهداف الصهيونية.

ويرد مصطفى طيبة بأن مظاهرات نوفمبر ١٩٤٥ فى مصر لم تكن تضامناً مع الشعب الفلسطينى بل هجوماً على منشآت ومحلات يهودية، ويتفق هنا طيبة مع محمد يوسف الجندى فى أن هذه المظاهرات أضرت بالقضية الوطنية وقدمت خدمة للاستعمار والصهيونية عبر تحويل الهجوم نحو اليهود المصريين مما حرضهم على الهجرة إلى إسرائيل، دون تمييز بين الصهاينة واليهود التقدميين، فكان المفترض أن الحرب هى ضد الصهيونية وليست ضد اليهودية. كما نفى مصطفى طيبة ما ذكره طارق البشرى من إرجاع جميع الصراعات داخل التنظيمات الشيوعية المصرية إلى كونها صراعات بين المصريين والأجانب - خاصة اليهود - ويؤكد - كما هو الحال بالنسبة لمحمد الجندى - أن كورييل على سبيل المثال كان من أبرز الدافعين فى اتجاه التمصير، كما أن أسباباً أخرى عديدة وأكثر أهمية كمنت وراء تلك الصراعات داخل وفيما بين التنظيمات الشيوعية المصرية.

وختاماً، نأمل أن يكون ما سبق قد ألقى بعض الضوء من حيث المعلومات والربط فيما بينها، أو من حيث التحليل والرؤية النقدية، لتلك العلاقة التى تبدو للوهلة الأولى مثيرة للغرابة والدهشة بين مثلث يهود مصر والحركة الشيوعية وفرنسا، وهى غرابة سرعان ما تنقشع عندما يتم تتبع مسيرة ارتباطها والعوامل والأسباب التى أدت إلى هذا الارتباط فى مراحل مختلفة من تاريخ يهود مصر والحركة الشيوعية بها وفرنسا ما بين مطلع الأربعينيات ومنتصف الخمسينيات من القرن العشرين. ■

كتاب الزاوية

عبقرية المسيح

شريعة الحب

شريعة الحب لا تبقى حرفًا من شريعة الأشكال والظواهر، ولكنها لا تنقص حرفًا واحدًا من شريعة الناموس بل تزيد عليه وينبغى هنا أن نصحح معنى الناموس فى الأذهان، فإن معناه هو «القوام» الذى يقوم به كل شىء، وناموس العقيدة هو الأصول الأبدية التى يقوم بها ضمير الإنسان ما دام للضمير وجود، فلن يزال قائمًا - كما قال السيد المسيح - ما قامت الأرض والسموات.

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس لاحقًا لأنه جاء بشريعة الحب، وهى زيادة عليه.

إن الناموس عهد على الإنسان بقضاء الواجب، أما الحب فيزيد على الواجب، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء.

الحب لا يحسب بالحروف والشروط، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه، وهو مستريح إلى العطاء غير متطلع إلى الجزاء.

بهذه الشريعة - شريعة الحب - نقض المسيح كل حرف فى شريعة الأشكال والظواهر.

وبهذه الشريعة - شريعة الحب - قضى على شريعة الكبرياء والرياء، وعلم الناس أن الوصايا الإلهية لم تجعل للزهو والدعاوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب.

عـــــروض مـــوجـــزة

كتب عربية

الإبداع فى حل المشكلات

حسين على
دمشق: دار الرضا للنشر، ٢٠٠١، ١٧٥ صفحة



اعتمد المؤلف فى كتابه على ما كتبه الأمريكيون حول الإبداع فى حل المشكلات، بهدف تقديم دليل عملى يحسّن قدرات الفرد على التعامل معها وانتقاله من العقلية الانفعالية إلى العقلية الفاعلة.

ويستند المؤلف فى كل فصول الكتاب إلى أمثلة عملية تقرِّب ما يهدف إليه، بدءًا من أهمية تعريف المشكلة والوقوف على جوهرها، وانتهاءً بتقييم الحلول، ومرورًا بعملية توليد الحلول وتطبيقها وإقرار سير العمل. ويعطى المؤلف أهمية كبيرة لعملية تعريف المشكلة وفى ضوء الوصول إلى التعريف الحقيقى للمشكلة، يسهل ابتكار حلول لها. ويعطى مثالين مهمين أحدهما لطالب وأستاذه يتعقبهما ذئب، سارع الطالب بخلع حذائه والعدو أسرع من أستاذه لأنه أدرك أن لحاق الذئب بهما مؤكد، لكنه حين يعثر على أحدهما فسيكتفى به بما يمنح الآخر فرصة للهرب، والمثال الثانى يشير إلى قدرات مدير فندق يشكو نزلاؤه من بطء المصعد، وحتى بعد إصلاح المصعد وتركيب مصعد آخر استمرت شكوى النزلاء، فما كان من المدير إلا أن وضع مرايا فى جميع الأدوار مجاورة للمصاعد، كى ينشغل النزلاء بها فلا يشعرون ببطء مرور الوقت.

كما يقدم نماذج لمشكلات كان التشخيص فيها خاطئًا ومن ثم جاءت الحلول خاطئة بالتبعية، ويشير إلى عادات سبعة للأشخاص ذوى الفاعلية العالية فى حل المشكلات وهى أن يكون الفرد فاعلاً لا منفعلاً، وأن يحدد هدفه منذ البداية، وأن يضع سلمًا للأولويات، وأن يفكر بالربح المشترك مع جميع المعنيين بالمشكلة، وأن يسعى أولاً للفهم ويحاول بعد فهمه لها أن يعبر عنها بطريقة مفهومة، وأن يستفيد من مشورة الآخرين، وأن يكون على استعداد لتجديد عناصر حياته بما يعينه على الابتكار.

ويقدم مجموعة من النصائح لصاحب المؤسسة بهدف تشجيع الإبداع وخلق بيئة إبداعية للعاملين، ومنها ألا يعطى الأفراد أهدافًا وإنما فقط توجهات، وأن يشجع التعدد والمعارضة، وألا تكون البيئة رسمية وتقليدية، وأن تدخل العاطفة فى نظام العمل، وأن يشعر الأفراد العاملون بالأمان، وأن يشجع المصداقية وليس فقط تعظيم الشعور بالمسئولية، وأن يمنح الفرصة للأناس العاديين أن يتجاوزوا إمكانياتهم ويؤدوا أعمالاً استثنائية كى تبرز قدراتهم الحقيقية.

ويقدم المؤلف نماذج تحليلية ورسومًا بيانية لعمليات تحليل المشكلة وتحليل القرار والإبداع فى الحلول مستعرضًا تجارب شركات أمريكية كبرى.

□ □ □

بنية المسلسل الدرامى التليفزيونى

قيس الزبيدى
دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ١٨٤ صفحة



تجتذب الدراما التليفزيونية ملايين المشاهدين، الذين - فى كثير من الأحيان - يتبادلون المواقع مع أبطالها، فيتمثلون أحزانهم ويتشيعون لبعضهم على حساب بعضهم الآخر وفق تصنيف «الأخيار والأشرار»، ويتواصل المشاهدون فيما بينهم سعيًا لفك ألغاز وعقد المسلسل كل حسب هواه.

بسبب هذه الأهمية وذلك التأثير، يسعى هذا الكتاب إلى تحليل البنية الدرامية للمسلسل التليفزيونى.

وحسب المؤلف، فقد وجدت الأشكال السردية التسلسلية فى كافة الأنواع الأدبية والفنية منذ القدم، وتقدم ألف ليلة وليلة دليلاً جليًا على صحة هذا الاستنتاج، حيث كان على شهريار أن ينتظر بلهفة الحريص على التبيان ما تجود به قريحة شهرزاد كل ليلة، وكان عليه أن يتفاعل مع شخصياتها التى تساهم فى الحكى إنقاذًا لشهرزاد من مصيرها المحتوم.

ويتناول المؤلف البنية التى تطور بها المسلسل التليفزيونى مواكبًا لتطور تقنيات التليفزيون ذاته، الذى تحول إلى آلة سرد كبيرة يحتل هدف التسلية موقعًا فريدًا على خريطتها، وتلبى الدراما التليفزيونية احتياجات هذا الهدف إلى حد بعيد.

ويحتاج المسلسل إلى جمالية خاصة به، سواء كان يسرد حكاية مفتوحة تتألف من قصص عديدة لأبطال عديدين، أو حكاية مغلقة تمت تجزئتها إلى حلقات متعددة.

ويشير المؤلف إلى ما انتهت إليه باحثة ألمانية ميزت ثلاثة عناصر فى بنية الخطاب عبر المسلسل: بنية التوتر وبنية الفضول وبنية المفاجأة.

وتؤكد دراسات الكتاب على تقليدية بنية الدراما العربية السائدة فى عموميتها، فقد اكتسبت سمات متشابهة تتكرر فى أغلب الأحوال ويضع المؤلف فى ختام دراسته وصفًا موجزًا لعناصر النص التليفزيونى الدرامى ووظائفه وهى: نمط الحكاية، زمن الحكاية، زمن سرد الحكاية، الحوار، بنية النص الفنية، طبيعة بنية السرد الفنية، أهمية نص الإخراج.

ويشير إلى أن العملية الفنية ترتكز إلى مرحلتين فى الكتابة، الأولى: هى مرحلة كتابة النص الأدبى «السيناريو»، والثانية: هى مرحلة كتابة المخرج نص التصوير «الديكوباج»، والأخيرة: هى القادرة على إعادة التوازن إلى بنية النص الفنى، والتخفيف من مظاهر الخلل التى تنشأ من اتساع بنية النص اللافنى.

□ □ □

التجريب فى الرواية العربية الأردنية

منى محمد محيلان
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ووزارة الثقافة الأردنية، ٢٠٠١، ٢٣٢ صفحة



تقف هذه الدراسة عند معظم الروايات التجريبية الأردنية فى الفترة ما بين ١٩٦٠ و١٩٩٤، وتقول المؤلفة إنها تبدأ دراستها منذ عام ١٩٦٠ على الرغم من أن التجريب فى الرواية الأردنية بدأ عام ١٩٦٨ بظهور روايات «الكابوس» لأمين شنار، و«أنت منذ اليوم» لتيسير سبول، و«أوراق عاقر» لسالم النحاس، وقد تزامنت حركة التجريب فى الرواية الأردنية مع بدء حركة التجريب فى كل من مصر والعراق وترسخت فى الثمانينيات والتسعينيات.

ويلاحظ أن معظم الروائيين الذين مارسوا التجريب فى الأردن كانوا على صلة بالصحافة إما كمحترفين أو كُتَّاب مقالات مثل غالب هلسا وإبراهيم نصرالله ورمضان الرواشدة ومؤنس الرزاز، كما أن بعضهم له تجارب شعرية مهمة مثل إبراهيم نصرالله وتيسير سبول وسليمان الطراونة وأمين شنار.

وأما مفهوم التجريب الذى تبنته المؤلفة مستفيدة من دراسات لنقاد آخرين فى الموضوع نفسه فقد تمثل فى الانقطاع عن مسايرة التقاليد السائدة للتراث الأدبى والتى تمثلت أساسًا فى الصور المختلفة للواقعية، وشمل الشكل والمضمون معًا.

وتشير إلى أن الخروج على أساليب السرد التقليدية فى الروايات التجريبية الأردنية انطلق من إحساس الروائى بالإحباط فى عالم تتسارع تحولاته مما أفقده اليقين بالثوابت، وقد اعتمدت الروايات فى معمارها العام على المنولوجات الداخلية والتداعيات والتكنيك الدرامى والقالب الشعرى، ووظفت أساليب اللاوعى وسرد الذكريات، وانفتح النص الروائى على الأساليب الأدبية المتنوعة كالاعترافات والمذكرات واليوميات والرسائل واستعان بالتقنيات المسرحية والسينمائية والفنون الجميلة.

واتسم زمان الروايات بالتقلب والحركة فامتزج الماضى والحاضر والمستقبل المتخيل.

ومن ناحية اللغة مزجت الروايات بين العامية والعربية المبسطة ولغة الصوفية واللغة الشعرية، واستلهم التراث على صعيد اللغة والأسلوب مستفيدًا من القرآن الكريم والسيرة النبوية والمقامات وألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والحكم والأقوال المأثورة.

ومن ناحية الشكل استفادت الروايات من المنجزات التقنية الحديثة فى الرواية الغربية واستلهم بعضها الأشكال التراثية ومزج بعضها بين الاتجاهين.

تقدم المؤلفة هذه الاستخلاصات عبر دراستها لعشرين رواية أنجزها عشرة روائيين من أجيال واتجاهات مختلفة.

□ □ □

طه حسين والمغرب العربى

أبو القاسم محمد كرو
تونس: مؤسسات بن عبد الله للنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ٢٦٣ صفحة



الفصل الأول علاقة طه حسين بتونس التى يرى المؤلف أنها بدأت فى العام ١٩٠٩ حين كان طه حسين مازال طالبًا متمردًا على التعاليم الأزهرية وقد

عـــروض موجـــزة

أخذ بيده عالمان جليلان هما أحمد لطفى السيد وعبد العزيز جاويش، والأخير تونسى الأب وإن كان ولد وعاش وتوفى بمصر، وكان للشيخ جاويش تأثير كبير على طه حسين فهو الذى وجّهه نحو دراسة الأدب والتعمق فى الدراسات النقدية، وهو الذى ألح عليه ليتعلم الفرنسية ثم ليسافر إلى فرنسا لينهل من علومها وآدابها، وهى المسالك التى سلكها الشيخ جاويش نفسه.

ومن يراجع صحف العشرينيات والثلاثينيات فى تونس وحتى اليوم - كما يقول المؤلف - لا بد انه سيلمس مكانة طه حسين وأثره وإشعاعه الذى يمتد جيلاً بعد جيل، وأما اهتمام طه حسين نفسه بتونس فبدأ باهتمامه بالتراث التونسى والأندلسى وعلاقته الحميمة بشيخ المؤرخين التونسيين حسن حسنى عبد الوهاب الذى منحته الجامعة المصرية الدكتوراه الفخرية وقت أن كان طه حسين وزيرًا للمعارف، ويشير المؤلف إلى مواقف طه حسين النضالية ضد الاستعمار الفرنسى وهجومه على ممارساته ضد المدنيين فى دول المغرب العربى وتأييده للمجاهدين وقد أبدى ابتهاجًا شديدًا بحصول الشعبين التونسى والمغربى على استقلالهما وتمنى أن يصيب الجزائر ما أصابهما وقد منحت تونس وسام الاستقلال لطه حسين فى العام ١٩٥٧، ويشير المؤلف إلى بعض أصحاب الفضل من التوانسة على طه حسين ومنهم عبد العزيز الثعالبى الذى كان أول من عرّف القراء التونسيين بطه حسين حين نشر نصًا أدبيًا له فى العام ١٩١١، وكان عبارة عن قصيدة طويلة بمناسبة العام الهجرى الجديد، والأديب التونسى الكبير محمود المسعدى الذى كتب طه حسين نقدًا لروايته «السد» عام ١٩٥٧، وكذلك علاقته بالأديب نور الدين محمود والرئيس التونسى الحبيب بورقيبة، ويورد المؤلف فى نهاية بحثه ثلاث وثائق لطه حسين عن تونس هى محاضرة بعنوان «رحلة فنية» وحوار أجرى معه فى الصحافة التونسية عام ١٩٥٧ ومقالة بعنوان «تونس» كتبها طه حسين.

أما الجزائر التى لم يزرها طه حسين قط، فقد كتب عنها أروع مقالاته وأكثرها جراة وحرارة دفاعًا عن حق الشعب الجزائرى فى الاستقلال وفى الحياة الكريمة، وقد حاول طه حسين أن ينشئ معهدًا لتعليم اللغة العربية فى الجزائر عام ١٩٥٠ ليقاوم عملية الفرنسة التى كانت تسير على قدم وساق هناك، غير أن الفرنسيين لم يمكنوه، وقد كتب طه حسين عن الأدباء الجزائريين وأشهر ما كتبه مقالته المطولة عن الأديب الجزائرى مولود معمرى بمناسبة صدور قصته «الربوة المنسية» باللغة الفرنسية.

وفى الملحق الخاص بالجزائر يورد المؤلف النقد الذى كتبه طه حسين عن «الربوة المنسية» ومقالة عنوانها «قضية الجزائر» ومقالة بقلم محمد الصالح صديق عنوانها «مع طه حسين».

أما المغرب فقد زارها طه حسين عام ١٩٥٨، وألقى فيها عدة محاضرات واحتفى به الرسميون ورجال الأدب والعلم، وكما ندد بالاستعمار فى الجزائر وتونس فعل الشىء نفسه فى المغرب، ويورد المؤلف فى ختام الفصل ملاحق مما كتبه طه حسين عن المغرب ومن محاضراته هناك وما كتب عنه بمناسبة الزيارة. ويضم الكتاب صورًا نادرة لطه حسين فى المغرب العربى مع مسئولين كبار ووسط الجموع التى احتشدت لسماع محاضراته.

□ □ □

التشويق.. رؤية الإخراج فى الدراما السينمائية والتليفزيونية

عبد الباسط سلمان المالك

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠١



يلعب التشويق فى الفنون البصرية دورًا بالغ الأهمية، وهو يمثل عنصرًا أساسيًا من عناصر البناء الدرامى يدفع المتلقى لمتابعة أحداث العمل حتى نهايته.

فى البداية يعدد المؤلف مقومات العمل الدرامى والتى تبدأ بالفكرة وهى التى تحدد طبيعة العمل وتفرض الشخصيات والأجواء التى تتحرك فى إطارها، أى أنها هى التى تغذى كل عناصر الدراما، ثم الشخصيات التى عبر التفاعل بينها ينمو البناء الدرامى وتتصاعد حالة التشويق، ويشير المؤلف إلى الحوار بين الشخصيات بوصفه أحد عناصر الدراما مؤكدًا على أن العمل الجيد هو الذى يعتمد على بلاغة الصور وقلة المساحة الممنوحة للحوار، وتأتى الحبكة فى مقدمة العناصر الدرامية عبر تصعيدها للأحداث وصولاً إلى الأزمة الدرامية ثم الذروة التى تمثل نقطة التحول فى مجرى الأحداث.. «فهى النقطة التى تشبه لحظة الانفجار أو لحظة العنف والإثارة».

الغموض وخلق الشك عند المشاهد واستمالة تعاطفه تجاه أشخاص بأعينهم داخل العمل وحنقه على آخرين والتوافق بين النص الدرامى والإخراج، هذه كلها عناصر مهمة فى تحقيق التشويق عبر الصوت والصورة.

وفى فصل تالٍ يركز المؤلف على قدرة التصوير فى التأثير على المشاهد وجذب انتباهه من خلال أحجام اللقطات وحركات الكاميرا وزوايا التصوير، حيث إن التنويع فى حجم اللقطة يكسر الرتابة والملل عند المتلقى، فضلاً عن دورها فى خلق التأثير الدرامى والنفسى المطلوب، وكذلك الحال بالنسبة لحركات الكاميرا سواء كانت حركة عمودية أو مقتربة أو مبتعدة أو موازية أو زوم.. إلخ، ثم يبين أهمية الإضاءة فى تعميق الإحساس بالعمق المكانى وخلق أجواء انفعالية ومؤثرات درامية مهمة، ويشرح الأساليب الثلاثة للإضاءة وهى السلويت والنوتان والكورسكورو، والأول: يستخدم لخلق حالة من الغموض وإخفاء تفاصيل الشخصية، والثانى: يهتم بتوزيع الإضاءة بشكل يكشف كل مكونات الصورة دون عمق حقيقى، أما الكورسكورو فيعطى إحساسًا بالتجسيد والعمق وينقل أغلب التدرجات اللونية.

ولا يستبعد المؤلف أهمية المكياج والمونتاج والموسيقى التصويرية والإيقاع الحركى كعناصر مؤثرة ومهمة فى إحداث التشويق.

□ □ □

التسامح والعنف فى الإسلام

سيد عطاء الله مهاجرانى

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١، ١٨٢ صفحة



فى خريف عام ٢٠٠٠ قدّم الوزير المسئول عن الثقافة والفنون والآداب والصحافة والإرشاد الإسلامى فى إيران استقالته، وقد كان عطاءالله مهاجرانى مرشحًا لخلافة الرئيس محمد خاتمى وقيادة سفينة الإصلاح والتغيير فى حالة عدم ترشيح خاتمى لنفسه، وبرغم أن ذلك لم يحدث فإن مهاجرانى وجد نفسه مضطرًا تحت وطأة ضغوط التيار المحافظ إلى أن يستقيل ويغادر مطبخ صناعة القرار فى إيران، وهو الذى سمّى بـ«وزير الوزراء» فى إدارة الرئيس خاتمى الإصلاحية، للدور المهم الذى لعبه فى برنامج الإصلاحات فى مجالات الصحافة والإعلام والثقافة والفنون.

ويقدم الكتاب رؤية من قريب لكثير من آراء مهاجرانى ومواقفه المبدئية فى موضوعات مختلفة فى جزءين: الجزء الأول يمثل خطابًا كان من المفترض أن يكون مناظرة مع واحد من رموز التيار المحافظ لكنها لم تحدث، والجزء الثانى هو مرافعة ألقاها مهاجرانى من فوق منبر البرلمان، شدت أنظار الرأى العام الإيرانى والعالمى.

ويقدم مهاجرانى فى البداية تعريفه لمعنى التساهل والتسامح فى الإسلام، ويشير إلى أن الشريعة سمحة وسهلة وتطبيق الأحكام الدينية سهل يسير، والدين والشريعة هما أسلوب حياة، ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يكون المؤمنون فى حرج ومشقة وضيق من دينهم، وقد جعل الله تعالى الدين يسيرًا بمخاطبته للرسول الكريم «ونيسرك لليسرى»، والتساهل بمعنى الغفران والتيسير كما يقول مهاجرانى كان مبدأ مهمًا فى أسلوب النبى الكريم فى الدعوة والتبليغ، وينقل عن الإمام على كرّم الله وجهه قوله:

«اعقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية».

ويورد المؤلف مقتبسات من القرآن والسنة وأقوال السلف الصالح تؤكد منهج التيسير والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ويؤكد على عدة أمور مهمة أهمها: التدرج فى الأحكام حتى يمكن للناس قبولها والامتثال لها، وامتياز التشريع القرآنى بعرض أمور كلية فى مجال العبادات والمعاملات وترك التفاصيل للسنة النبوية المطهرة، وامتيازه كذلك بالنظر إلى الحقائق وليس إلى القشور، وتمتعه بالمرونة والقابلية على التكيف مع المستجدات الحضارية والثقافية لمختلف المجتمعات الإنسانية، كما أن القرآن جعل الإنسان محور تشريعاته، واهتم بالبعدين المادى والمعنوى للإنسان بشكل متوازن، وجعل الفطرة الإنسانية هى معيار التشريع.

أما الجزء الخاص بالاستجواب فيتضح فيه موقفه المستنير من الأدب القصصى والشعر - حتى الماجن منه - وتسامحه مع الصحافة مهما كان نقدها، ومطالبة الصحافة فى الوقت نفسه بالإنصاف فى تعاملها مع الموضوعات التى تمس وزارته، وتشجيعه لنشر الكتب والتأليف الموسيقى والمسرحى والسينمائى بوصفها روافد ثقافية مهمة، يقول مهاجرانى ردًا على منتقديه:

«إن إقامة جمهورية من دون توافر الحرية، أى من دون وضع حدود للسلطة، تؤدى إلى فناء الجمهورية ذاتها، لأن فقدان المؤسسات الدستورية سيؤدى إلى قيام أنظمة حكم مطلقة.

عـــــروض مـــوجـــزة

كتب أجنبية

Czechoslovakia: The Short Goodbye

(تشيكوسلوفاكيا: الوداع القصير)

Abby innes

Yale, 2001, 345PP, £ 25.00



منذ تفكك تشيكوسلوفاكيا السلمي عام ١٩٩٣ إلى جمهوريتي التشيك وسلوفاكيا، والذى أطلق عليه البعض «الطلاق» فإن كثيرًا من المراقبين الغربيين لازالوا يتساءلون عن الأسباب الحقيقية وراء هذا الانفصال؟ لقد أخذ الساسة وصناع القرار في الغرب مسألة التحول من الاشتراكية إلى الديمقراطية ومن الشمولية إلى الليبرالية في تشيكوسلوفاكيا، على أنها أمر يسير وطريق يقود إلى الاستقرار بعد مرحلة قصيرة من الانتقال، لكن تبين أن العكس كان هو الصحيح. فقد ظلت الدولة متماسكة لعدة سنوات بعد نهاية الحكم الشيوعى ليفاجا العالم بعقد استفتاء على الانفصال الذى حدث بالفعل.

إن السؤال الجوهرى في هذا الصدد هو لماذا تفشل الاتحادات «الفيدراليات» المؤلفة من جنسيات متعددة؟ وقد تكون الإجابة سهلة إلى حد ما فيما يتعلق مثلاً بدولة متعددة الأعراق والديانات مثل يوجوسلافيا السابقة لأن عوامل التفكك والصراع ظاهرة للعيان، فالاختلاف الاقتصادى والاجتماعى والاستبداد السياسى وكبت الحريات أوضح الأسباب على حتمية التفكك وانهيار الاتحاد. لكن الأمر قد يبدو مختلفًا بالنسبة لتشيكوسلوفاكيا، فالتشيك والسلوفاك يتحدثان لغتين مفهومتين بالنسبة لكليهما، كما أن الشعبين ليس لهما تاريخ من العداوة والبغضاء، كما هو الأمر بالنسبة لأعراق يوجوسلافيا مثلاً. وكان الشعبان على عكس الأمر بالنسبة حتى لدول في أوروبا الغربية، يتمتعان بمستوى معيشة متقارب، فماذا حدث لكى يحدث الطلاق؟

إن الكتاب يحاول تلمس الأسباب الحقيقية من خلال تتبع عدة خيوط بحثية حول ميراث الشيوعية، وكذلك العواقب الاجتماعية لعملية الإصلاح الاقتصادى التى تمت بعد زوال الشيوعية. فقد ارتفعت نسبة البطالة في سلوفاكيا بينما ظل الأمر كما هو عليه في التشيك. واستغل اليمين التشيكى الأمر لكى يضغط من أجل انقسام الدولة من خلال عملية ديمقراطية.

لقد اختلفت أولويات الشعبين وكان الانفصال السلمى طبيعيًا وإن كان مفاجئًا للبعض.

□ □ □

Daughters of the Nile.. Photographs of Egyptian Women's Movement 1900-1960

(بنات النيل.. لقطات من حركات نسائية مصرية ١٩٠٠-١٩٦٠)

Edited by: Hind wassef and Nadia Wassef

Auc Press, 2001, 188PP., 250 Phat, LE. 90



هذا العمل هو أول محاولة لتقديم توثيق فوتوجرافى للحركات النسائية المصرية في النصف الأول من القرن العشرين. ويحتوى الكتاب على مجموعة أرشيفية من الصور الفوتوجرافية التى تضم صورًا لأشخاص محوريين وهامشيين في هذه الحركة، وأخرى لمظاهرات وحملات انتخابية وأشكال مختلفة من النشاط النسائى ورائدات نسائيات في المجالات المختلفة.

ومن خلال هذه اللقطات المصورة تمكن هذا العمل من استعادة أحداث وشخصيات من ذلك الزمن البعيد بشكل لا تنجح الكلمة المكتوبة في إبرازه. وتؤكد هذه المجموعة المصورة على تباين أشكال كفاح النساء من حيث الأهداف كالحق في التصويت في الانتخابات والتعليم ومشاركة النساء في الكفاح الوطنى.

وكانت بعض هذه الصور قد نشرت سابقًا في مجلات وجرائد، ولكنها تخرج علينا الآن لتحدثنا باستفاضة عن قصة الحركات النسائية. إن المعرفة العميقة التى تقدمها لنا هذه المجموعة المصورة تنهض بمعرفتنا عن الحركات النسائية، وسوف تكون مصدر إلهام لأجيال قادمة من النشطين في هذا المجال.

ومركز دراسات المرأة الجديدة الذى تأسس في عام ١٩٨٤ هو هيئة نسائية مصرية لا تسعى للربح، يعمل في مجال القضايا النسائية من خلال الدعوة والبحث العلمى. ومحررتا هذا الكتاب من العضوات النشيطات في المركز.

□ □ □

Tory Wars

(حروب المحافظين)

Simon Walters

London, Politico, 2001

,320PP., £10.99



يقدم هذا الكتاب تشريحًا دقيقًا للصراعات الداخلية التى تعرض لها حزب المحافظين البريطانى المعارض قبيل وبعد الانتخابات البرلمانية التى جرت في يونيو الماضى وتكبد فيها الحزب هزيمة ساحقة للمرة الثانية على التوالى خلال ٤ سنوات.

وبعد أن سيطر الحزب على الحكم في بريطانيا لمدة ١٨ عامًا متتالية، فإنه دخل منذ هزيمته التاريخية في مايو ١٩٩٧ في «حرب أهلية» أطاحت برموز شهيرة في الحزب وتركت البقية من الزعماء والأعضاء يتصارعون ويلقون اللوم على بعضهم البعض في الأوضاع التى آل إليها الحزب.

وقد كانت المفاجأة الكبرى في نتائج انتخابات زعامة الحزب بعد هزيمة يوليو الانتخابية هى خسارة مايكل بورتيللو الذى كان الجميع يتوقع أن يكون زعيم الحزب ورئيس الوزراء في حالة فوز المحافظين بالانتخابات. ويكشف مؤلف الكتاب سايمون والترز المحرر السياسى لصحيفة «ميل أون صنداى» البريطانية خبايا الخلافات التى سبقت انتخابات يونيو البرلمانية حيث انقسم الحزب إلى معسكرين أحدهما بقيادة وليام هيج زعيم المحافظين والآخر بقيادة مايكل بورتيللو وزير الخزانة في حكومة الظل. وكانت الخلافات بين المعسكرين حول كل شىء تقريبًا ابتداء من فرض الأمن وأوروبا والاقتصاد والضرائب ونهاية بالاستراتيجية والتكتيك.

إن المشكلة الأكبر التى واجهت وتواجه المحافظين منذ هزيمة ١٩٩٧ أن الحزب اتجه إلى اليمين تاركًا الوسط لحزب العمال الذى أصبح يقول إنه المتحدث باسم الطبقة الوسطى، وبالتالى تضاءلت شعبية المحافظين مما أدى لانقسام داخلى ونقاشات حول جدوى التحول لليمين.

□ □ □

le Nouvel islam Balkanique. Les Musulmans, acteurs du Post-communisme, 1990-2000

(الإسلام البلقانى الجديد.. المسلمون: العناصر الفاعلة في فترة ما بعد الشيوعية ١٩٩٠-٢٠٠٠)

Sous la direction de Xavier Bougarel et Nathalie Clayer. Ed. Maisonneuve et Larose, 512P.



طفا مصطلح الإسلام البلقانى على سطح الأحداث الجارية مرتين، الأولى: أثناء حرب البوسنة والثانية: إبان حرب كوسوفو. فمرة أخذ شكل خيالات وأوهام جعلت منه رأسًا لجسر الجهاد والإرهاب في قلب أوروبا ومرة أخرى - على النقيض من ذلك - أخذ شكل الخطاب المُسَكن الذى كان يرى في هؤلاء المسلمين شعوبًا علمانية متحضرة، أوروبية، تواجه الإبادة على أيدى جماعات من الصرب. وبين الصورتين الأولى الكاريكاتيرية والثانية الإنكارية، كيف لنا أن نقدر دور مسلمى البلقان في الوقت الذى ينهار فيه النظام الشيوعى ويفتح تفككه الطريق أمام تفجر القوميات والتطهير العرقى والنزح وأعمال القتل؟ ما الذى تعرفه عن هؤلاء الأوروبيين الأصليين المنحدرين من شعوب سلافية أو ألبانية اعتنقت الإسلام أثناء القرون الخمسة التى دام خلالها حكم العثمانيين؟

ويوضح الكتاب أن تعداد مسلمى البلقان يزيد على ثمانية ملايين نسمة يتنوعون بتنوع لغاتهم (المتحدثون باللغة السلافية أو الألبانية أو التركية أو الغجرية) وشعائرهم الدينية (هناك أتباع السنة الذين يدينون بالطاعة لأنصار الجماعات الصوفية مثل البكتاشيون وهم يحظون بنفوذ كبير في ألبانيا حتى إنه يتم اعتبارهم بمثابة الممثلين لعشيرة مستقلة) وتعدادهم الديموغرافى، فهم يمثلون أغلبية كبيرة في ألبانيا ولكنهم أقلية في البوسنة (٤٦٪) وفى مقدونيا (٣٣٪) وفى اليونان (١,٥٪). وأخيرًا، فهم يتنوعون بفعل درجة إيمانهم التى تتراوح ما بين الإلحاد الموروث من عصر الشيوعية وحتى النضال الإسلامى الراديكالى مرورًا بكافة أشكال علمنة الدولة والدين.

وأخيرًا، وفى امتداد لمسألة ألبانيا، تقدم ناتالى كلايبه مفاتيح أكثر موضوعات الساعة حساسية حيث تقوم بتحليل جوانب الإسلام التى جعلت منه عنصرًا لإعادة التشكيل الداخلى في كوسوفو ومقدونيا - آخر الجبهات البلقانية سخونة - في وسط الفوضى الناتجة عن صراع بعض المجتمعات الشيوعية السابقة والتى لا تحظى فيها مؤسسات الدولة إلا بأقل مستوى ممكن من المشروعية.

□ □ □

اقتصاد

أسواق النفط والمال.. إلى أين؟

الحسن بن طلال

عمان: منتدى الفكر العربي، ٢٠٠١

يضم هذا الكتاب أبحاث ومناقشات ندوة أقامها منتدى الفكر العربي ضمت عددًا من الخبراء والمختصين في مجال النفط، ودارت حول مستقبل النفط في العالم العربي في ضوء بحث العالم الصناعي عن مصادر بديلة للطاقة وتقليص الأهمية الاستراتيجية للنفط في الاقتصاد العالمي.

■■■

هموم اقتصادية عربية

تحرير: طاهر حمدي كنعان

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

دراسات في تكريم المفكر الاقتصادي يوسف عبد الله صايغ ساهم فيها باحثون من دول عربية عديدة اعترافًا بفضله وعطائه طوال تاريخه، ويناقش الكتاب هموم التنمية والتكامل والنفط والعولمة.

■■■

Egypt: An Economic Geography

(مصر: جغرافيا اقتصادية)

Fouad N. Ibrahim with Barbara Ibrahim

I.B.Tauris, 2002, 256P, £ 14.95(bp)

يصدر قريباً هذا الكتاب الذي اشترك في تأليفه فؤاد إبراهيم أستاذ الجغرافيا الاجتماعية بجامعة بايرويت الألمانية مع باربارا إبراهيم مديرة المكتب الإقليمي لمجلس السكان بالقاهرة. ينطلق الكتاب من الفرض أن مصر كانت منذ القدم واقعة تحت رحمة الجغرافيا. ثم يتعرض الكتاب لمشكلات اقتصادية تعانيها مصر بسبب الجغرافيا، منها: توفير الغذاء للسكان الذين يتزايدون باستمرار، ونقص المياه والأراضي الصالحة للزراعة، وأثر العولمة على محاولات مصر التصنيعية.

■■■

Thinking the Unthinkable: The Immigration Myth Exposed

(انكشاف خرافة الهجرة)

Nigel Harris

I.B.Tauris, 2001, 176P, £ 12.95(bp)

منذ أن نشأت الدولة، كانت هناك دائماً دول غنية وأخرى فقيرة، ولكن فقط في القرن العشرين بدأت توضع القيود لوقف حركة السكان بين تلك وذاك.

يرى أستاذ الاقتصاد نيجل هاريس خلافاً للادعاء السائد بان المهاجرين يسببون البطالة، أن الهجرة تعمل على إثراء الدولة المضيفة اقتصادياً واجتماعياً. فالمهاجرون يقومون بالوظائف التي لا يرغب أو لا يستطيع المواطنون القيام بها. وهو يبين من خلال الأدلة التاريخية كيف كانت الهجرة ضرورية في إحياء اقتصاديات الدول الغنية.

تاريخ

The Road to Jerusalem: Glubb Pasha Palestine and the Jews

(الطريق إلى القدس: جلوب باشا وفلسطين واليهود)

Benny Morris

I.B.Tauris, March 2002, 256P, £ 45.00

بني موريس، المؤرخ الإسرائيلي المعروف من أشهر المنتمين لطائفة «المؤرخين الجدد»، وأكثرهم تعرضاً للنقد والهجوم. في مارس القادم يصدر له كتاب عن «جلوب باشا» أو السير جون جلوب قائد القوات العربية البريطاني في الأعوام الحاسمة بين ١٩٣٦ و١٩٥٦ التي شهدت انهيار فلسطين ونشأة الدولة الإسرائيلية. الكتاب يحتوي على تحليل لرؤية جلوب الشخصية للشرق الأوسط وشعوبه، ودراسة لمواقفه من الثورة العربية في فلسطين ومخططات تقسيم فلسطين. كما يقدم تحليلا خاصا لأفكار وتحركات جلوب باشا أثناء ١٩٤٨ عندما قاد جيشه الصغير إلى فلسطين لمحاربة إسرائيل.

■■■

The Myth of Nations: The Medieval Origins of Europe

(خرافة الأمم: الأصول القروسطية لأوروبا)

Patrick J. Geary

Princeton University Press, 2002, 151PP, $ 24.95

يتحدى باتريك جيري أستاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا المشاعر الوطنية لكثير من الأوروبيين بهذا الكتاب. هؤلاء الذين يرجعون أصولهم الوطنية إلى القوطيين أو الصرب لا يعرفون تاريخهم كما يقول جيري، وإنما يستمسكون بخرافات ساعد في نسجها مؤرخون متواطئون مع أيديولوجيات سياسية وطنية.

تراث

مآثر العرب العلمية

فؤاد جميعان

عمان، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

يتضمن المؤلف ثلاثة أقسام. يتناول القسم الأول الجزيرة العربية جغرافياً وأصول العرب وتقسيماتهم وقبائلهم وثقافتهم. ويتناول القسم الثاني العلوم التي برع فيها العرب والمسلمون ودور العرب في حفظ ما كتبه العلماء الرومان وما أضافوه لعلوم اليونان. أما القسم الثالث فخصص للفلسفة ودور الفلاسفة العرب في مسيرة الفلسفة الغربية.

■■■

مخطوطات بلدية الإسكندرية. الجزء الخامس

إعداد يوسف زيدان

الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠١

تستعد مكتبة الإسكندرية لافتتاحها بعد شهور قلائل، لتواصل عطاءها بعد انبعاثها من جديد، ليستعيد العالم ذكرياته عن هذه المدينة الساحلية التي كانت قبل قرون مصدر إشعاع فكري وعلمي وفلسفي للعالم كله، وهذا الكتاب امتداد لمشروع تحقيق مخطوطات مكتبة الإسكندرية ويختص بالحديث النبوي الشريف.

دوريات

البحرين الثقافية

المنامة: المجلس الوطني للفنون والآداب، ٢٠٠١

تقدم المجلة في عددها الأخير ملفا خاصا حول تجديد الفكر العربي يشارك فيه محمد جابر الأنصاري ومحمد سليم العوا وخلدون النقيب وسعيد حارب فضلاً عن دراسات أدبية في الشعر والقصة ومتابعات لأنشطة ثقافية عربية.

■■■

الجوار الأدبي

المملكة العربية السعودية (العدد الأول)

مجلة جديدة صدر عددها الأول في السعودية برئاسة تحرير محمد علي عابدين، وتأمل المجلة في أن تكون جسرًا بين العرب وإيران من أجل مزيد من الفهم والتواصل وتكريس قيم الجوار بما ينطوي عليه من معان في الذهنية العربية والإسلامية عمومًا، وتضمن العدد الأول دراسة عن الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي وأخرى عن سهراب سبهري ونصوصًا شعرية لشعراء عرب وإيرانيين فضلاً عن متابعات ثقافية نشطة شملت عواصم عربية عدة.

■■■

الدراسات الفلسطينية

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

في العدد الجديد من المجلة حوار مع محمود درويش ومقالات لمحمود عباس «أبو مازن» وفيصل حوران وخالد الحروب وماجد كيالي، وشهادات عن فيصل الحسيني من حنان عشراوي وعبد القادر الحسيني وفدوى الحسيني وسميح شبيب، ومقارنة بين التجربتين المفاوضيتين الفيتنامية والفلسطينية، وأربعة تقارير عن الأوضاع في الأراضي الفلسطينية وكذلك تقرير لجنة ميتشيل وخطة تينيت.

■■■

The London Review of Books

Volume 23, Number 24,

13 December, 2001

في هذا العدد من مجلة عروض الكتب التي تصدر في لندن مرتين كل شهر، يكتب إدوارد سعيد مقالاً مطولاً ينعى فيه المثقف الفلسطيني إبراهيم أبو اللغد الذي لعب دورًا كبيراً في تنظيم جهود الفلسطينيين والعرب المقيمين في الولايات المتحدة لخدمة القضية الفلسطينية.

مقالات أخرى يشملها العدد تعرض سير ومذكرات كل من فرناند أوليفييه عشيقة بيكاسو الأولى، والنجم السينمائي مارلون براندو، والأديب الفرنسي جوستاف فلوبير.

■■■

International Journal of Middle East Studies

(المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط)

The Middle East Studies Association of North America, Vol. 33, No. 3, August 2001

من أهم الدوريات المتخصصة في دراسات الشرق الأوسط، تصدر هذه المجلة ربع سنوية. ويضم عددها الثالث من عام ٢٠٠١ ملف خاص عن سياسات الهوية في تركيا، وملف آخر عن الحرب الثقافية الباردة في المجتمع الإيراني، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من عروض الكتب المتعلقة بالشرق الأوسط.

■■■

The Journal of Modern African Studies

(مجلة الدراسات الأفريقية الحديثة)

Cambridge University Press, Volume 39, Number 1, 2001

في هذا العدد من دورية الدراسات الأفريقية ربع السنوية، مقال عن المجتمع المدني في نيجيريا الذي أشاع العنف والقبلية بدلاً من تعميق الديموقراطية، ومقال آخر يتناول الاستراتيجيات الدبلوماسية للدول الأفريقية في التعامل مع الهيئات والمنظمات الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة. هذا إلى جانب مجموعة كبيرة من العروض للكتب الحديثة المتعلقة بالقارة الأفريقية.

المجلة يحررها البروفيسور كريستوفر كلافام الأستاذ بجامعة لانكستر.

روايات وقصص

أرض ورماد

عتيق رحيمي

ترجمة: إسكندر حبش

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

رواية أفغانية تعيد القارئ إلى أشكال السرد القديمة، حيث مصائر الأبطال قدرية ومأساوية، ويعلو دوماً الحس الشعري والأخلاقي والدرامي بعيداً عن أية مغامرة تجريبية، لكن الرواية برغم كل عناتها البنائية والمعمارية تبقى صدى لما جرى ويجري في أفغانستان بعد تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر الماضي.

■■■

الأيام لا تخبيء أحداً

عبده خال

كولونيا: دار الجمل، ٢٠٠١

رواية جديدة للقاص السعودي صاحب التجارب المميزة في مسيرة القصة السعودية، وهي تأتي بعد ثلاث مجموعات قصصية وروايتين، ويضيف المؤلف

بروايتــه لبنة جـديـدة فى صــرح الأدب الروائى الســعـودى الذى لايزال مـحـدوداً بالقياس إلى المنتج الشعرى.

■■■

العطيلى

نبيل أبو حمد

لندن: دار الساقى، ٢٠٠١

رواية أولى لـلكاتب والشاعـر والرسام تنطوى على مـغـامرات إبداعـيـة تـنهل من ميوله ومواهبه التشكيلية أساساً: الرؤى والأحلام واللقطات البصرية التى يتكامل مع تتاليهـا النص الذى يتناول ثنائيـة الوطن/ المنفى والقلق/ الأمل من خـــلال قصـة شـحـاذ قـرر أن يعـود إلى بلده فى فلسطين لاستعادة المال الذى أودعه أمانة لدى صديقه اليهودى حاييم.

■■■

العنكبوت

عمرو عبدالسميع

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

رواية جديدة تضيف إلى رصيد الأدب الساخر عبر بناء روائى محكم، وهى تحكى عن شبكة تجسس ضد مصر نسجت خيوطها مجموعة من الأوهام المريضة لتنتهى بهم أوهامهم إلى السقوط.

والمؤلف لم يختر أن يعبر عن شخوصه عبر عوالم التجسس وخباياها وإنما من خلال كوميديا سوداء ترسم مصير هؤلاء الخونة.

■■■

وداع لم يتم

محمد صفوت

القاهرة: اتحاد الكتاب، ٢٠٠٠

مجموعة رابعة لمؤلف تتميز كتاباته ببساطة التناول وتتبدى فيها عوالمه الخاصة التى تطل فيها صورة الأم وشبح الموت وتعـانق الذاكـرة الطفلة مشـاعـر النضج والمغامرة.

■■■

The Pickup

(التقاط)

Nadine Gordimer

Farrar, Straus & Giroux, 2001, 270pp., 24.00$

ولدت الأديبة اليهودية نادين جورديمر فى جنوب أفريقيا عام ١٩٢٣، وحصلت على جائزة نوبل فى الآداب عـام ١٩٩١. كـتـبت أكثر من مائتى قصة قصيرة وعشر روايات، ومنذ شهرين صدرت لها رواية أخرى جديدة بها شىء من «صراع الحضارات». يتمثل الصراع فى قـصـة حب تنشأ فى جنوب أفريقيا بين جولى الفتاة البيضاء الثرية وإبراهيم - أو عبده كما ينادونه فى ورشة إصلاح السيارات - الشاب المسلم القادم من الطرف الآخر من القارة الأفريقية عن طريق هجرة غير قانونية.

تبين الرواية قطبيـة الخـلاف بين الحبيبين، فبينما تشعر جولى بالخجل من أهلها الأثرياء، يشعـر إبراهيم بالإعجاب تجاه الثراء والقوة والثقافة العالمية، فهو يريد الدخول فى نفس الحلقة التى تريد هى الخروج منها. وعندما تتسبب مشكلة وجوده غير القانونى فى جنوب أفريقيا فى طرده من البلاد، يتـزوجـان ويذهبـان للعيش فى قريته حيث يشعر هو بالخجل من مظاهر الفقر والقذارة، بينما تشعر جولى الرومانسية أن هذه هى الحياة الحقيقية.

«سـيـاســة»

إسرائيل.. مخاطر واحتمالات

أرنون سوفير

ترجمة: محمد حمزة غنايم

رام الله: مدار، ٢٠٠١

قبل شهور نشر المؤلف دراسته التى توصل فيها إلى أن ٤٢٪ فقط من اليهود مقابل ٥٨٪ من العرب، سيعيشون فى المنطقة الواقعة بين الأردن والمتوسط فى سنة ٢٠٢٠ من مجموع ١٥,٢ مليون نسمة هم إجمالى السكان، وهو ما أفزع اليهود لأنه يعنى اختفاء الكيان الصهيونى عن الخريطة خلال ٢٠٢٠، وهذا الكتاب ترجمة لما ذهب إليه الباحث الإسرائيلى الذى أفزعت دراسته المجتمع الإسرائيلى كله.

■■■

الصداقة اللبنانية الفرنسية

بيار عطا الله

باريس: منشورات بيروت سير سان، ٢٠٠١

يتضمن الكتاب بشـهادات جمعها المؤلف عن لبنانيين يعيشون فى فرنسا ويسـاهمون فى نسج علاقات البلدين ومنهم أدباء وفنانون وموسيقيون واقتصاديون وسياسيون. ويؤكد المؤلف على متانة العلاقة التى تربط اللبنانيين بفرنسا وأبعادها التاريخية والثقافية.

■■■

انتخابات مجلس الشعب، ٢٠٠٠

تحرير: هالة مصطفى

القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠١

ترتبط الانتخابات ارتباطاً وثيقاً بعملية التطور الديمقراطى، وتشكل الدراسات الانتخابية واحدة من مجالات المعرفة المهمة فى النظم السياسية المقارنة، وهذا الكتاب يضم مجموعة من الدراسات والمتابعات التى رصدت الانتخابات البرلمانية الأخيرة فى مصر.. دلالاتها ونتائجها، والتغيرات التى شهدتها الساحة السياسية وأثرت على مجريات الانتخابات.

■■■

صنع القرار فى الاتحاد الأوروبى

محمد كمال وفؤاد نهرا

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

مع الانحياز الأمريكى السافر للجانب الإسرائيلى فى صراع الشرق الأوسط، يبحث العرب عن معادل موضوعى فى المواجهة التى ستمتد لسنوات عديدة فى المستقبل، ومن هنا يأتى الاهتمام بعملية صنع القرار فى الاتحاد الأوروبى حتى يمكن التأثير عليه لصالح الجانب العربى.

■■■

صورة الأتراك لدى العرب

إبراهيم الداقوقى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

بعد كتابه الأول «صورة العرب لدى الأتراك»، يكمل المؤلف الصورة ويسعى عبر عمليات تحليل مضمون لما ينشر فى الإعلام العربى عن الأتراك وكذلك فى الكتب المدرسية والدراسات البحثية ومواقف النخبة، إلى بيان الحقائق والأوهام فى حقيقة العلاقات بين العرب والأتراك.

■■■

مؤامرة الغرب الكبرى

تعليق: سوسان جورج

ترجمة: محمد مستجير

القاهرة: سطور، ٢٠٠١

هذا الكتاب ترجمة لتقرير لوجاتوا وهو التقرير الخطير الذى ينبه بصورة جذرية إلى مخاطر العولمة وانقلاب آلياتها بصورة شرسة تهدد خصوصيات الشعوب وتؤثر بشكل مباشر على التنمية فى الدول الفقيرة.

■■■

The Tragedy of Great Power Politics

(مأساة سياسات القوى العظمى)

John J. Mearsheimer

W.W.Norton & Co., 2001, 555P, $ 27.95

يقدم المؤلف نظرية واقعية يفسر بها سياسات القوى العظمى. فهو يرى أن الأمم القوية لا يمكن أن تتفادى الصراع من أجل بسط النفوذ والسيطرة.

على سبيل المثال لا يهم إن كانت ألمانيا فى عـام ١٩٠٥ كـان يقودها بسمـارك أو كايزر أو هتلر، ولا يهم إن كانت ديمقراطية أو أتوقراطية، المهم حسب هذه النظرية كم من القوة النسبية امتلكتها ألمانيا فى ذلك الوقت. وهو بنفس المنطق يرى أن القـوى العظمى الوحيدة الموجودة حالياً هى الولايات المتحدة وروسيا والصين بفضل امتلاكهم للسلاح النووى.

«شـعـر»

الديناصورات تشتم ستيفن سبيلبيرج

جمال بدومة

الرباط: وزارة الثقافة والاتصال، ٢٠٠١

ديوان أول للشاعر الذى تتعدد مشاغله عبر صفحات الديوان، وهى شواغل إنسانية وطموحات تجريبية فى اللغة والتشكيل أيضاً مستنداً إلى البداهة والبساطة ومعيداً الاعتبار إلى المشاعر الرقيقة البريئة.

■■■

غجرية

نصيرة محمدى

الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠١

اختارت الشاعرة نمط القصائد الطويلة، وفى معظم القصائد يحضر الوطن كمعادل موضوعى للطبيعة المفقودة، حيث تتبدى بقوة مناجاتها للبحر والشجر والرياح والصحراء والطيور، ومن هنا تأتى تسمية الديوان، حيث الطبيعة هى الملاذ ومناط الترحال للغجر فى كل عصر وأى مكان.

■■■

غوارب

أبو بكر زمال

الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠١

شفافية وحساسية شابة فى التعامل مع العالم، لا تتوقف على اللغة وحدها وإنما الدلالات والاستعارات والتشبيهات، والشاعر يدافع عن تجربته وتجريب زملائه من الشعراء الشباب فى الجزائر معتبراً أنه يرسم خريطة جديدة للأدب فى بلاد التى تعيش لحظة انتقالية سياسياً واقتصادياً وعلى كافة الأصعدة.

«فكر»

الحياة والشاعر

ستيفن سبندر

ترجمة: محمد مصطفى بدوى

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠١

الكتاب الأصلى صدر فى ذروة الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٤٢)، ويعد صدى للاحتجاج على الحرب التى كادت تعصف بالحضارة الغربية، ويتضمن رؤى عن علاقة الشعر بالحياة وإعلاء لشأن الروح الإنسانية فى مواجهة مناورات الساسة وألاعيب السياسة، كما يرصد تجليات ثورة الشعراء على الحضارة الصناعية.

■■■

السنة والشيعة خصام أم وئام؟

محمود مراد

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠١

صار الحوار سمة من سمات عصر العولمة، والحوار بين الأديان ضرورة ملحة لرأب الصدع وإزالة الأوهام التى لا صلة لها بصحيح الأديان، ومن باب أولى يأتى الحوار بين المذاهب داخل الدين الواحد بالغ الأهمية، هذا ما سعى إليه المؤلف عبر ندوات ولقاءات ضمت نخبة من رموز الفكر السنى والشيعى فى مصر وإيران، وانتهت جميعاً إلى نبذ الأوهام الشعبية عن العلاقة بين السنة والشيعة.

«فكر دينى»

شهر رمضان وفقه الصيام والقيام

يوسف القرضاوى

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

شهر رمضان مناسبة سنوية مهمة عند المسلمين فى العالم أجمع، ومن أدركه هذا الشهر ولم يتب أو يتقرب إلى الله بصالح الأعمال فهو من الخاسرين.

المؤلف وهو أحد الدعاة والعلماء الكبار

يعرِّف الناس بفضائل هذا الشهر الكريم وأحكام صيامه وزكاة الفطر ونصابها، وما الذى يجب على المسلم عمله حتى يستفيد إلى أقصى حد من بركات هذا الشهر الكريم.

فلسفة

Wittgenstein's Poker

(عصا وتجنستاين)

David Edmonds and John Eidinow

Ecco Press. 2001, 352pp., $ 24.00

فى أكتوبر من عام ١٩٤٦ حدثت مواجهة تاريخية بين الفيلسوفين كارل بوبر ولديويج وتجنستاين فى حلقة نقاشية عقدت بكامبردج.

كانت الخلفية وراء هذه المواجهة الجدل الدائر بين الفيلسوفين النمساويين حول طبيعة الفلسفة، فبينما يرى كارل بوبر أن الفلسفة تعالج مشكلات جادة وحقيقية كان يرى وتجنستاين أن الفلسفة ما هى إلا ألغاز لغوية. وقد دعى بوبر فى ذلك اليوم من جانب جمعية يرعاها وتجنستاين للحديث عن أحد الألغاز الفلسفية.

وحسب ادعاء بوبر فإن وتجنستاين كان عنيفًا فى استجابته لمجموعة من المشكلات الفلسفية التى أدرجها بوبر وأخذ يلوح بعصا مدفأة ساخنة. وعندما تحول النقاش إلى الأخلاق طلب وتجنستاين من بوبر أن يذكر له قاعدة أخلاقية. فرد بوبر: «أن لا تهدد محاضرًا زائرًا بعصا مدفأة» هنا غضب وتجنستاين وألقى بعصاه ثم اندفع خارجًا من القاعة.

هذا الكتاب الذى أعده صحفيان من الـ «بى بى سى» يجمع بين الفلسفة والصحافة والسيرة الشخصية وحصل على إعجاب معظم النقاد ليصبح واحدًا من أهم وأفضل الكتب التى صدرت عام ٢٠٠١.

■■■

Perspectives on Habermas

(رؤى عن هابرماس)

Lewis Edwin Hahn

Open Court Publishing Co., 2000, 672 PP., $29.95

مجموعة من ثمانية وعشرين مقالاً نقديًا لعدد كبير من الفلاسفة المعاصرين حول أعمال الفيلسوف الألمانى جورجن هابرماس. المعروف أن هابرماس من أبرز ممثلى مدرسة أو تيار «النظرية النقدية». وقد خصص معظم حياته العملية للدفاع عن المثل التنويرية مثل العقلانية والإنسانية وإمكانات الخطاب.

فنون

الألوان فى القرآن

أحمد رأفت

القاهرة: دار الجيل، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف السمات البارزة للفنون الإسلامية والقيم التشكيلية الأساسية التى تتوافق مع صحيح القرآن والعقيدة، ويركز المؤلف بالذات على فكرة الألوان ودلالاتها كما وردت فى القرآن الكريم.

■■■

مسرح صلاح عبدالصبور

أحمد مجاهد

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠١

يضم الكتاب خمسة فصول يتناول كل فصل منها إحدى مسرحيات صلاح عبدالصبور الخمسة فى محاولة لتحليل خصوصية الخطاب الشعرى عنده، خصوصاً أن عبدالصبور استكمل الدور البارز الذى لعبه شوقى وعزيز أباظة فى النهوض بالمسرح الشعرى عبر رؤى وهموم جديدة ووفق تيار الحداثة الذى يقف عبدالصبور فى طليعته.

■■■

Big Parades and Grand Illusions The Anti-War Cinema of the First World War

(مواكب كبيرة وأوهام عظيمة: السينما المضادة للحرب فى الحرب العالمية الأولى)

Andrew Kelly

I.B.Tauris, 2002, (revisecl paper back), 224PP, £ 14.95.

«كل شىء هادئ على الجبهة الغربية» و«الاستعراض الكبير» و«الوهم العظيم» عناوين لأفلام سينمائية مهمة ظهرت منذ نهاية العشرينيات لتقدم رؤية جديدة عن الحرب العالمية الأولى، مخالفة للأفلام التى أنتجت قبل هذه الفترة كأدوات دعائية تخدم الحرب. فقد بيّنت هذه الأفلام وغيرها كيف دمرت تلك الحرب شباب الأمم. يقدم هذا الكتاب القصة الكاملة لهذه الأفلام وكيف استقبلت وما أثارته من جدل.

■■■

The Lute in Britain.. A History of the Instrument and its Music

(العُــود فى بريطانيــا: تاريخ الآلة وموسيقاها)

Mathew Spring

Oxford University Press, 526pp., £95.00

كان العود من أهم الآلات الموسيقية المستخدمة فى أوروبا من أواخر القرون الوسطى وحتى القرن الثامن عشر، سواء كآلة منفردة أو مجتمعة مع آلات أخرى أو بمصاحبة الغناء، حتى أنه أطلق عليه «بيانو عصر النهضة». يكشف لنا هذا الكتاب التاريخ التفصيلى لآلة العود فى بريطانيا، خاصة حين كانت أهم آلة موسيقية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

مذكرات وسير

ذكريات إسبانية مع نزار قبانى

سلمى الحفار الكزبرى

بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

سبع عشرة رسالة من نزار قبانى إلى الناقدة والأديبة سلمى الكزبرى التى جمعتها بالشاعر صداقة أدبية ومشاعر إنسانية صادقة، وهو نوع من الأدب أدب الرسائل، تضاءل وجوده إلى حد كبير فى عصرنا الحاضر.

■■■

هندسة أقل.. خرائط أقل

أمين صالح

المنامة: دار الأيام، ٢٠٠٠

مقالات عدة ينتقل فيها المؤلف بين الكتابة السينمائية والفنية والأدبية، كاشفًا عن لحظات إنسانية بالغة الثراء والعمق يجمع بينها خيط رئيسى هو الإحساس بالاغتراب وألم المنفى.

■■■

محمد الماغوط.. وطن فى وطن

لؤى آدم

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

يستعين المؤلف بقدر كبير من مصطلحات علوم النفس والاجتماع والفلسفة لتقويم تجربة الماغوط وهو واحد من رواد الحداثة فى الشعر العربى المعاصر. ويسبر أغوار سيرة الماغوط من خلال حوارات ولقاءات بأناس عاش بينهم، وينحو إلى قراءة تفصيلية فى بذرة التمرد لدى الماغوط وقوة الإيماءات الشعرية فى نصوصه.

■■■

نجيب محفوظ.. أمير الرواية العربية

سلوى العنانى

القاهرة: الدار العربية للكتاب

يتناول الكتاب سيرة حياة وكتابة نجيب محفوظ، متتبعاً رحلته من الجمالية إلى العباسية، ورحلته مع القلم، ومشواره مع السينما، ومصر كما عبّر عنها فى رواياته، وكيف ساهمت كل هذه المدخلات فى تتويج مشوار محفوظ وفوزه بجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٩٨.

نقد أدبى

الخطاب النفسى فى الأدب العربى

حسن البندارى

القاهرة: مكتبة الآداب ومكتبة الأنجلو، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى عرض الدوافع النفسية فى نصوص النقد العربى القديم عبر خمسة فصول تتناول أعمال عبد العزيز الجرجانى وعبد القاهر الجرجانى وابن رشيق القيروانى مستهدفًا إشراك القارئ فى تأمل النصوص وطرق تحليلها لدى النقاد القدامى.

■■■

جهة خامسة

غسان عبد الخالق

عمان: دار الفارس، ٢٠٠٠

لم تستطع إغراءات الحداثة ونظريات النقد الحديث أن تجذب نجيب محفوظ بعيدًا عن العالم الروائى المميز الذى اختاره لنفسه منذ البداية، عالم الحارة الشعبية وتجلياتها وإسقاطاتها اللافتة على الواقع السياسى والاجتماعى المصرى. فكيف أفلت محفوظ من هذه الإغراءات واستمر بدأب فى الطريق الذى اختاره.

■■■

شخصية المرأة فى الأدب العربى القديم

على التبنونى

عمان: دار الكرمل، ٢٠٠٠

اهتمت دراسات اجتماعية وإنسانية عديدة بالمرأة من جميع الجوانب، ويعنى هذا الكتاب بالمرأة فى التراث الأدبى العربى، القصصى والشعرى والفلكلورى مما يكمل الصورة ويغطى جانبًا مهمًا منها ويجيب عن السؤال: كيف عبر الأديب العربى عن المرأة وكيف كانت نظرته إليها؟

■■■

ملحمة الحدود القصوى

سعيد الغانمى

بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

دراسة فى أدب الكاتب الليبى البارز إبراهيم الكونى الذى برغم إقامته الدائمة فى سويسرا، إلا أنه يكتب دومًا عن الصحراء التى أرادها أن تكون تاريخًا لمجتمع يعيش على حافة الحياة، مجتمع بلا زمن، بعد أن ظلت الرواية العربية مشغولة بالمجتمعات الحديثة فى المدن.

■■■

نظرية التلقى

بشرى موسى صالح

الدار البيضاء: بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

شغلت نظرية التلقى عديدا من النقاد أخيرًا بفعل تيار الحداثة النقدى. والتفت النقاد إلى الجمهور بعد أن انصب تركيزهم طويلاً على النص ومؤلفه متناسين الطرف الثالث، والمؤلفة هنا تقدم دراسة نظرية وتطبيقية لموضوع التلقى حللت فيه نصوص الشعراء نزار قبانى ونازك الملائكة وحميد سعيد وعبد الأمير معلة.

■■■

Painted Shadow: A Life of Vivienne Eliot

(حياة فيفيان إليوت)

Carole Seymour - Jones

Constable, 2001, 682 PP, £ 20

كانت فيفيان إليوت الزوجة الأولى للشاعر الأمريكى تى.إس إليوت الذى أمضى حياته فى انجلترا وحاز جائزة نوبل ويعتبر من أهم شعراء القرن العشرين وأكثرهم تأثيراً.

من التفاصيل المثيرة التى يرويها الكتاب العلاقة الآثمة التى نشأت بين فيفيان إليوت والفيلسوف البريطانى برتراند راسل الذى يظهره الكتاب فى صورة شخص كريه ومغرور وخائن.

وقد أثار هذا الكتاب الذى يتناول سيرة حياتها اهتمام الأوساط الأدبية لما يحتويه من هجوم على شخصية تى.إس إليوت وسلوكه يصل إلى حد اتهامه بتدبير موت زوجته عام ١٩٤٧ بعد أن تخلى عنها وأودعها إحدى المصحات العقلية.

■■■

فريد الأطرش.. رؤية أخرى

تلقت مجلة «وجهات نظر» الرسالة التالية تعليقًا على ما جاء في مقال «فريد الأطرش.. نغم في حياة العرب» للكاتب نبيل حنفي في عدد أكتوبر ٢٠٠١ ونظرًا لضيق مساحة باب «رسائل»، فإن المجلة تورد الأفكار الرئيسية في الرسالة.

المحرر

انقضضت بلهفة على مقال الأستاذ نبيل حنفي محمود. ولكن خيبة أملي، منذ السطور الأولى في المقال، تساوت تماما مع لهفتي الأولى لقراءته.

وإنني إذ أرجو المعذرة من كاتب المقال ومن هيئة تحرير «وجهات نظر»، فإنني سأسارع إلى عرض الوقائع الموضوعية التي ساقتني إلى هذه الملاحظات الأولية، سواء في المعلومات التي تضمنها المقال، أو في القيم الثقافية التي بنيت عليها الأحكام العامة التي أطلقها.

أولا: في المعلومات

١ـ يفتتح الكاتب مقاله بمعلومة عن العلاقة بين محمد عبد الوهاب وسيد درويش، ليبين أهمية الأحداث الفنية التي شهدها العام ١٩٢٣ (وهو العام الذي شهد هجرة فريد الأطرش وأسمهان إلى القاهرة)، فيؤكد أن «محمد عبد الوهاب، عمل مع الشيخ سيد درويش في أوبرا كليوبترة التي نظمها أمير الشعراء أحمد شوقي». هذه المعلومة الواحدة تضم سلسلة من المعلومات الخاطئة، الناجمة عن الخلط بين مجموعة من الحقائق غير المدققة.

صحيح مثلا أن عبد الوهاب تعاون مع سيد درويش بين ١٩٢١، و١٩٢٣، ولكن ذلك كان في مسرحية شهرزاد، حين مرض سيد درويش الذي كان يلعب في المسرحية دور «زعبلة»، فعرض الدور على زكريا أحمد، ثم على محمد عبد الوهاب.

وصحيح أن سيد درويش قد بدأ تلحين مسرحية «كليوبترة ومارك انتوني»، ولكنه توفي بعد أن أنهى تلحين الفصل الأول، وبعض ألحان الفصل الثاني، ولم تظهر المسرحية عمليا إلا في العام ١٩٢٧، عندما أكمل تلحينها محمد عبد الوهاب نفسه، ولعب دور البطولة فيها أمام منيرة المهدية، ولم يحدث أن قدمت هذه المسرحية ـ الأوبرا في حياة سيد درويش، لأنه أصلا توفي قبل إتمامها، كما هو معروف.

غير أن الخطأ الأكبر في هذه المعلومة المثلثة الأخطاء، هو نسبة نص الأوبرا التي اشترك سيد درويش وعبد الوهاب في تلحينها (وليس في تمثيلها كما أكد المقال) إلى أمير الشعراء أحمد شوقي. أما الحقيقة فهي أن لأمير الشعراء فعلا مسرحية بعنوان «مصرع كليوبترة»، ولكن قصيدة واحدة منها هي التي أخذت طريقها إلى التلحين والغناء، هي قصيدة عبد الوهاب الشهيرة «أنا أنطونيو، وأنطونيو أنا». أما نص المسرحية التي لحنها سيد درويش وعبد الوهاب فهو نص آخر لا علاقة له بأحمد شوقي، ولم يحدث أصلا أن قام سيد درويش بتلحين أي قصيدة لأمير الشعراء. والفارق واضح بين عنواني المسرحيتين: ـ مصرع كليوبترة، لأحمد شوقي وكليوبترة ومارك أنتوني.

٢ ـ في السطر السادس من بداية المقال، يتابع الكاتب سرد معلوماته، للتأكيد على الصفة التاريخية للعام ١٩٢٣، فيذكر أنه إضافة إلى كونه عام نزوح أم كلثوم للقاهرة (وهذه معلومة صحيحة ودقيقة)، فإن «عبد الوهاب سجل في هذا العام أيضا، سبع أغنيات على أسطوانات، ساهمت في دعم انتشاره، وتأكيد مكانه على قمة الغناء».



والحقيقة أن ما سجله عبد الوهاب من أسطوانات في ذلك العام (كما هو ثابت في كل المراجع الجادة والموثوق بها في هذا المجال) لم تكن «دعما لانتشاره»، بل كانت البداية الأولى لهذا الانتشار. أما الأسطوانات التي أدت إلى «تأكيد مكانه على قمة الغناء»، فقد ظهرت في العامين ١٩٢٧ و١٩٢٨ (وليس العام ١٩٢٣).

فالقوائم التاريخية لأرشيف الراحل الأستاذ عبد العزيز عناني (وهو أحد أدق المراجع في هذا المجال، لأنه استمد تواريخ الأغاني من مجموعة الأسطوانات الكاملة التي يملكها) تقول إنه في العام ١٩٢٧، ظهرت أسطوانات: اللي انكتب (موال)، اللي يحب الجمال، أنا أنطونيو، يا حبيبي كحل السهد. أما في العام ١٩٢٨ فسجل عبد الوهاب اسطوانات منها موال اللي راح راح، أهون عليك، دور أحب أشوفك، قصيدة يا جارة الوادي، والطقطوقتان الشهيرتان حسدوني وباين في عينيهم، وخايف أقول اللي في قلبي. وكانت أسطوانات هذين العامين بالذات هي التي «ساهمت في دعم انتشار عبد الوهاب، وتأكيد مكانه على قمة الغناء».

٣ـ في نهاية العمود الثالث من المقال، يشير الكاتب إلى إحدى أشهر الأغنيات في بدايات فريد الأطرش «يا ريتني طير لا طير حواليك»، على أنها من ألحان «الفنان الفلسطيني يحيى اللبابيدي، الذي كان يعمل آنذاك مديرا لقسم الموسيقى العربية بالإذاعة الفلسطينية».

والحقيقة أن الكاتب خلط بين جنسية يحيى اللبابيدي، وجنسية الإذاعة التي كان يعمل بها. صحيح أنه كان مديرا لقسم الموسيقى في الإذاعة الفلسطينية، التي كانت تعرف أيضا باسم إذاعة القدس (وهي غير الإذاعة الفلسطينية الشهيرة الأخرى، التي كانت معروفة باسم إذاعة الشرق الأدنى، وكان مقرها في جنين، ثم في يافا بعد ذلك)، ولكن يحيى اللبابيدي لم يكن فلسطينيا، بل من أسرة لبنانية معروفة في بيروت.

٤ ـ في سرد مطول لدعم الرأي القائل بأن الأفلام الغنائية العربية الحقيقية بدأت مع فريد الأطرش، وليس مع عبد الوهاب أو أم كلثوم، يرتكب الكاتب خطأ فادحا في تاريخ أفلام كل من عبد الوهاب وأم كلثوم، فيؤكد أن آخر أفلام عبد الوهاب كان «ممنوع الحب» (١٩٤٢)، وآخر أفلام أم كلثوم «عايدة» (١٩٤٢). والحقيقة أن عبد الوهاب مثل بعد ممنوع الحب فيلمين شهيرين هما «رصاصة في القلب (١٩٤٤) مع راقية إبراهيم، و«لست ملاكا» (١٩٤٦) مع نور الهدى وليلى فوزي. أما أم كلثوم، فقد مثلت بعد «عايدة» فيلمين آخرين «سلامة» (١٩٤٤) وفاطمة (١٩٤٨).

أما مسألة حصر صفة «البداية الحقيقية للسينما الغنائية» بفيلم «انتصار الشباب» لفريد الأطرش، فإن لمعظم (إن لم أقل لجميع) النقاد السينمائيين والموسيقيين الجادين والمعروفين رأيا مخالفا.

صحيح أن فريد الأطرش جاء في انتصار الشباب وما تلاه من أفلام، يساهم في إضافات مميزة للأغنية السينمائية (خاصة في مجال الأوبريت الاستعراضي) ولكن ذلك لا يسمح لأحد بإلغاء ريادة عبد الوهاب والقصبجي وزكريا والسنباطي في هذا المجال. (راجع البحث القيم للناقد السينمائي المعروف سمير فريد في عدد سابق من «وجهات نظر»، عن دور عبد الوهاب الريادي في السينما الغنائية).

٥ ـ بعد ذلك، ينسب المقال إلى فريد الأطرش أنه لحن أول دعوة غنائية للوحدة العربية، في أوبريت «غنا العرب» (من فيلم بلبل أفندي، ١٩٤٨) وأوبريت «بساط الريح» (من فيلم آخر كذبة، ١٩٥٠). وفي هذا الادعاء سعي آخر إلى شد الحقائق التاريخية من شعرها، وتدجينها أو إخفائها، لتسمح بتبرير الرأي المعد سلفا، أو الانطباع العام، القائم على اعتقاد ما، لا يريد الالتزام بالتسلسل الدقيق لوقائع التاريخ الموسيقي والغنائي.

فقد غنت أم كلثوم في مارس في العام ١٩٤٥، يوم تأسيس جامعة الدول العربية قصيدتها الشهيرة (شعر محمد الأسمر، ألحان زكريا أحمد) زهر الربيع، وذلك احتفاء بالملوك والرؤساء العرب الذين أسسوا الجامعة العربية. كما غنى عبد الوهاب في الأربعينيات قصائد وطنية مضمخة بمشاعر الوحدة العربية مثل قصيدة دمشق، وقصيدة فلسطين (١٩٤٨).

٦ ـ ويتابع كاتب المقال في هذا الموضوع بالذات، فينسب إلى فريد الأطرش أنه لحن «أجمل أغاني الوحدة وأخلدها على الإطلاق»، عند قيام دولة الوحدة بين مصر وسورية في العام ١٩٥٨»، وهي «الموسكي لسوق الحميدية» (١٩٥٨) و«حموي يا مشمش» (١٩٥٩)، وقد غنتها صباح.

إن الكاتب لا يكتفي في وصف هاتين الأغنيتين الجميلتين فعلا، بصفة «أجمل» و«أخلد» أغاني الوحدة، بل يضيف إلى ذلك وصفا ثالثا يذهب إلى أقصى ما في اللغة من أفعل التفضيل والجزم والحسم، هو وصف «على الإطلاق».

لا أدري في الحقيقة من أين أتى الكاتب بكل هذه الثقة في التقييم «المطلق»، والكل يذكر ظهور أغنيات للوحدة، مع لحني فريد الأطرش لصباح، مساوية على الأقل (بل ربما متفوقة) في قوتها الإيقاعية واللحنية، إضافة إلى طابعها الشعبي العميق، مثل لحن محمود الشريف «على الأحباب سلام الله، وعالوحدة ما شاء الله» الذي غنته فايدة كامل، ولحن عبد العظيم عبد الحق «وحدة ما يغلبها غلاب» الذي غناه محمد قنديل، والمتضمن البيت الفائق الجمال:

أنا واقف فوق الأهرام وقدامي بساتين الشام

٧ ـ يحمّل الكاتب لحن قصيدة «عدت يا يوم مولدي» أحكاما تفضيلية مطلقة، مرة على لسان بليغ حمدي، فيؤكد أن فريد الأطرش «أعطى الموسيقى الشرقية أفكارا جديدة ومتطورة وممتازة وجريئة... لم يعطها أي ملحن آخر معاصر له»، ثم يضيف الكاتب من جعبته أن ما أحدثته هذه الأغنية من أثر في تاريخ الغناء العربي يؤكد ما قاله بليغ حمدي، وأن الناقد الكبير كمال النجمي أكد ذلك أيضا عندما أشار إلى أن هذا اللحن خارج عن كل تقاليد تلحين القصيدة العربية.

لا شك أولا بأن هذا اللحن يعد من أقوى وأجمل ما لحن فريد الأطرش، وأنه إضافة جيدة في فصيلة التلحين المعاصر للقصيدة العربية، ولكن هل هو أول لحن من هذه الفصيلة، وهل هو لحن وحيد في لونه، لم يلحن أحد قبله أو بعده، قصيدة لها هذه الصفات، كما يوحي الكاتب؟

على سبيل المعلومات فقط (وعلى سبيل المثال لا الحصر) نذكر نماذج من بعض ما فعله عبد الوهاب في هذا المجال منذ بداية الثلاثينيات، أي قبل ثلاثة عقود من ظهور لحن فريد الأطرش المذكور.

ففي النصف الثاني من القصيدة ـ المونولوج «على غصون البان» سجل عبد الوهاب أول خروج على الكلاسيكية

التقليدية فى تلحين القصيدة العربية (١٩٢٨)، فى مقطع «طير يا فؤادى وغن». وفى العام ١٩٣٣ لحن عبدالوهاب قصيدته الأعجوبة «جفنه علَّم الغزل» التى لا داعى لإطالة الشرح حول مدى جدتها وخروجها على التقاليد الكلاسيكية فى تلحين القصيدة. ثم ظهرت بعد ذلك قصيدة «أعجبت بى» (١٩٣٦) واعتبرت المنعطف التاريخى فى إرساء قواعد القصيدة الغنائية العربية الحديثة.

ثانيا ـ فى التحليل الفنى، والقيم الثقافية

١ ـ فى مسالة تطور الموسيقى العربية وتطويرها (ولعلها المسالة الأهم التى أثارها المقال المذكور، وبنى على أساسها منح حجم معين ودور معين لفريد الأطرش فى تطوير الموسيقى العربية جعله سابقا لعبد الوهاب فى هذا المجال، أو منافسًا وحيدا له، مبعدا عن حلبة المنافسة روادا عمالقة من أمثال محمد القصبجى ورياض السنباطى وزكريا أحمد (الذى أغفل كاتب المقال ذكره نهائيا)، ثم محمد فوزى ومحمود الشريف وأحمد صدقى وسواهم من الجيل التالى، مثل كمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى.

والحقيقة أن الخلل فى المعيار الذى ينطلق منه أى كاتب، هو الذى يقود عادة إلى الخلل فى التقييم والاستنتاجات العامة، وتحديد الأدوار والمواقع التى يستحقها كل فنان.

لقد بدأ الخلل فى المعايير المعتمدة لقياس تطور (أو عدم تطور) الموسيقى العربية فى مطلع المقال، عندما أكد الكاتب أن سيد درويش قد رحل عن عالمنا فى العام ١٩٢٣ «قبل أن يقطف ثمار ما بذره من أفكار متطورة فى تربة الغناء المصرى التى لم تنتج قبله إلا التكرار والرتابة». ثم يضيف فى عبارة ثانية لاحقة، عندما انتقل إلى الحديث المباشر عن فريد الأطرش، وبعد استعراض عدد من ألحان الأطرش فى الأربعينيات والخمسينيات، أن هذه الألحان جاءت «لتكسر مونوتونات الأغنية العربية، ولتقدم غناء عربيا مؤسسا على أصول مغرقة فى المحلية، لكنه فى نفس الوقت عالمى الشكل والمضمون».

فإذا توقفنا عند العبارة الأولى، الخاصة بسيد درويش، فإن النصف الأول منها يتصف بالدقة والموضوعية، عندما ينسب إلى سيد درويش بذر أفكار متطورة فى تربة الغناء المصرى. ولكنه عندما يجزم فى النصف الثانى من العبارة أن تربة الغناء المصرى قبل سيد درويش «لم تنتج إلا التكرار والرتابة»، فإنه يلغى بسطر واحد إبداعات النهضة الموسيقية الكبرى التى انطلقت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، المسئولة عن تطوير وتركيز الأشكال الأساسية فى الموسيقى العربية.

أما حكاية تخصيص نتاج فريد الأطرش دون سواه بانه مغرق فى المحلية لكنه عالمى الشكل والمضمون، فإننا قبل الدخول فى مناقشته، فقد نبهنا كاتب المقال إلى أنه يعنى «بعالمية الشكل والمضمون» فى ألحان فريد الأطرش استنادا إلى إيقاعات الموسيقى الغربية الراقصة، مثل التانجو والرومبا والفالس، بينما يقول تاريخ الموسيقى العربية بين العشرينيات والأربعينيات أن سيد درويش والقصبجى وعبد الوهاب، بشكل خاص، كان لهم مفهوم أرقى وأعمق فى «العالمية» جعلهم ينهلون من نتاج الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية (قبل الإيقاعات الراقصة للموسيقى الخفيفة) ويتعمقون فيها، قبل أن يدخلوا فى تجارب بالغة الغنى.

٢ ـ فى مسالة عالمية ومحلية الموسيقى العربية.

يبدو أن معيار العالمية الذى استخدمه كاتب المقال، هو أن «أول لحن عربى» تجاوز الحدود العربية هو تانجو «يا زهرة فى خيالى»، وأن «أكبر أوركسترا عالمية» (لفرانك بورسيل) قد عزفت أربعة ألحان لفريد الأطرش، وأن «مغنين عالميين» قد رددوا بعض ألحانه مثل مايا كازا بيانكا، التى غنت له «ياجميل يا جميل».

باختصار شديد ننبه إلى أن ربط قيمة أى إبداع عربى موسيقى، بترديد الغربيين له، هو أخطر مفهوم يمكن أن نؤسس عليه أى نشاط فى مجال الإبداع الموسيقى والغنائى.

لقد انتشر لحن « يا مصطفى يامصطفى» ذات يوم، فى كل أرجاء الدنيا، كما لم ينتشر أى لحن عربى آخر (بما فى ذلك يا زهرة فى خيالى) فهل نبنى على ذلك أن «يا مصطفى» أعظم من جندول عبد الوهاب، ورباعيات السنباطى، ورق الحبيب للقصبجى، وأهل الهوى لزكريا أحمد، لأن أذن المستمع الأوروبى لم تستسغ هذه الألحان؟

٣ ـ مسالة تنصيب فريد الأطرش كأعظم عازف للعود.

لا شك باننا إذا أحصينا عباقرة العزف على العود العرب فى القرن العشرين، كان لفريد الأطرش موقع ممتاز فى صف الطليعة بين هؤلاء العازفين. أبدأ ملاحظتى بهذا الرأى، حتى لا تختلط الأمور أمام القارئ.

ولكن هذا الرأى شىء، والقيم الثقافية التى انطلق منها كاتب المقال، ليقول لنا إن جائزة أحسن عازف عود قد منحت لفريد الأطرش فى تركيا، دون حاجة اللجنة للاستماع إلى أى عازف آخر، مسالة أخرى تماما، هى التى نود التوقف عندها لحظة فى سياق هذا المقال.

أ ـ من هى هذه اللجنة التركية، وما هو المستوى الأكاديمى الذى تستند إليه لمنح مثل هذه الألقاب والجوائز؟ ومتى عقدت هذه المسابقة؟ وما هى وقائعها الحقيقية؟

ب ـ إذا أردنا بعد ذلك الانتقال الى مناقشة الموضوع بجدية وعمق، يمكن القول إن تحديد قيمة أى عازف للعود، يستند الى تفحص مقدرة يده اليمنى على العود، ويده اليسرى. ذلك أن اليد اليسرى، التى تحدد موضع الأصبع على الوتر، هى المسؤولة عن التعبير عن خيال العازف الموسيقى وإحساسه الموسيقى. أما اليد اليمنى فهى المسؤولة، بنسبة أكبر، عن مدى تقنية العازف، أى مدى سيطرته على آلته. فإذا اعتمدنا هذا المعيار المتعارف عليه أكاديميا، فإننا نجد أن القيمة الأساسية لفريد الأطرش كعازف للعود، إنما تستند إلى القوة التقنية الممتازة فى يده اليمنى. لذلك فإن له قدرة على إنطاق آلة العود بين يديه نطقا فصيحا مبينا، عز وجوده بين عازفى العود.

ولكن حتى فى هذا المجال بالذات، ليس الأطرش وحيدا أو أوحد، بل إنه استمد هذه التقنية من أستاذيه اللبنانى فريد غصن والمصرى محمد القصبجى.

فإذا انتقلنا إلى موضوع اليد اليسرى، المسئولة عن إظهار سعة الخيال الموسيقى وعمق الإحساس، فإن من يستمع إلى عزف فريد الأطرش (دون أن يكون من أصحاب العصبيات الموسيقية العمياء) سيلاحظ خياله المحدود، بدليل أن هناك تشابها غريبا فى كل تسجيلات تقاسيم فريد الأطرش.

٤ ـ فى مسالة تميز فريد الأطرش فى نطق الأحرف العربية.

أعتقد أن التوفيق لم يخن كاتب المقال، كما خانه فى هذه المسالة بالذات، ذلك أن نسبة عالية جدا من الدارسين الجادين للموسيقى العربية، إضافة إلى نسبة مماثلة من الذواقة تتفق على أن الأداء الغنائى لفريد الأطرش هو الحلقة الأشد ضعفا فى سلسلة مواهبه الفنية المتعددة.

وفى الختام، عذرا من الكاتب (عن الصراحة)، وعذرا من «وجهات نظر» (عن الإطالة)، وليست هذه هى المرة الأولى التى أقرأ فيها مقالا فنيا مبنيا على مثل هذه المعايير والمعلومات، ولكن صدمتى كانت أكبر من كل ما سبق، لأن ما قرأته كان منشورا فى «وجهات نظر»، وليس فى أى من المجلات الفنية، المزدانة بصور الفنانات الفاتنات، وليس بالقيم الثقافية الجادة.

إلياس سحاب

حلـــــم الإرادة

أود أن أعبر لسيادتكم عن خالص تقديرى وإعجابى الشديد بمجلتكم الراقية.. والتى سعدنا بها منذ مولدها فى فبراير عام ١٩٩٩.

وتحية إعجاب وتقدير للكاتب الكبير محمد حسنين هيكل الذى يعتبر مقاله فى مجلة «وجهات نظر» من أفضل المقالات السياسية فى الصحافة العربية.

فالمقال دائمًا عبارة عن.. لوحة لمفكر مستنير.. وفنان بارع تتداخل فيها الرؤية الشخصية الخبيرة مع النظرة الوثائقية والتحليل السياسى بحس تاريخى ونظرة جغرافية شاملة كل ذلك فى بناء محكم وباسلوب أدبى عذب وممتع وآخرها مقال «السياسة بين الحلم والإرادة» فى عدد نوفمبر ٢٠٠١ الماضى. والذى وصل فيه الأستاذ هيكل.. مع نهاية المقال.. إلى أن الإرادة تقدر أن تعيش حلمها «وتحدد وسائله» وأما العجز فليس لديه غير أن يعيش حلم الآخرين «ويذوب فيه».

ـ ونحن نشعر يا سيدى فى أمتنا العربية فى وقتنا الراهن باننا مطالبون أن نعيش حلم الإرادة قبل أى وقت مضى ونستطيع أن نجدد وسائل تحقيق هذا الحلم بما يتناسب مع تاريخنا المجيد.. وموقعنا الجغرافى الفريد وميراثنا الثقافى المديد.

فنحن نملك الإرادة.. ونقدر على الحوار مع العصر ومتغيراته وإن شاء الله فى سبيلنا لتحقيق الحلم.

على محمود
اخصائى اجتماعى جمعية العروة
الوثقى الخيرية الإسلامية بالإسكندرية

أين التكنولوجـــيـــا؟

لقد أمكننى الحصول على بعض الأعداد من مجلة «وجهات نظر» خلال العام الماضى، ومع كل عدد أقرأه أزداد ارتباطًا بهذه المجلة، حيث يكتب فيها خيرة الكُتّاب المتخصصين كُل فى مجاله. وهى مجلة متعددة المجالات، فهى مجلة ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية.

وينبع إبداع هذه المجلة من أنها نشأت فى وقت عصيب للثقافة المصرية، حيث إن البعض يظن أن نهر الثقافة المصرية قد نضب ويكمن أيضًا ارتباطى بهذه المجلة من كونها المصدر الوحيد لى لأن أتفاعل مع الحياة الثقافية والمثقفين المصريين بعيداً عن إرهاصات الجرائد اليومية والإصدارات الأسبوعية ذات الاتجاهات المختلفة.

يبقى لى تعليق واحد، وهو أن هذه المجلة رغم تناولها لمجالات شتى، إلا أنها لم تتناول مجالاً يعتبر من المجالات الحيوية فى عالمنا المعاصر، وهو مجال «التكنولوجيا». إذ إننى لم أجد أى مقال عن التكنولوجيا وأهميتها فى حياتنا، سواء كان فى العموم أو بالأخص فى المجتمع والاقتصاد المصرى، وكيفية تأثيرها على مختلف ألوان الحياة.

محمد شوقى
مهندس حاسبات
ڤانكوڤر ـ كندا

نـــون

١٠٠ يوم غيَّرت وجه العالم!

مائة يوم تقريبًا غيرت وجه العالم أو كادت. وأصبحت هي الحد الفاصل بين قرن وقرن. وأكبر الظن أن القرن الواحد والعشرين لم يبدأ فعليًا وعمليًا إلا بعد الحادى عشر من سبتمبر الماضى، أى بعد انهيار البرجين التوأم فى نيويورك والهجوم الذى تعرض له مبنى وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون). وبعد أن وجدت أكبر دولة فى العالم نفسها لأول مرة عرضة لهجوم حقيقى، عجزت حتى الآن عن تحديد مصادره. ولكنه أطاح بتفوقها الأمنى الذى حصنها من أى عدوان خارجى على مر تاريخها القريب كله. وأطاح معه بكثير من المبادئ والقوانين والأعراف التى استقرت أساسًا للعلاقات الدولية طوال القرن العشرين.

دخل العالم خلال المائة يوم الأخيرة مرحلة جديدة تمامًا. جعلت العام المنصرم من أخطر الأعوام التى شهدها التاريخ الحديث.. وحفلت هذه الأيام الكئيبة بأكبر قدر من المآسى والفواجع وسفك الدماء، فى حرب غير متكافئة، بين أحدث ما امتلكته البشرية من أساليب العلم والتكنولوجيا لأسلحة دمار متطورة، استخدمت على نطاق واسع على يد أقوى وأكبر دولة فى العالم، فى مواجهة أشد القوى تخلفًا ورجعية وتعصبًا، فوق أرض شعب من أفقر وأتعس شعوب العالم وأكثرها تعرضًا للقحط والجفاف والصراعات القبلية، ووسط بيئة دولية غير متوازنة، رجحت فيها كفة القوة العسكرية الكاسحة التى تملكها دولة عظمى وحيدة تفرض سطوتها على العالم.

ومن المؤكد أن ثمة انقلابًا طرأ على الموازين العالمية نتيجة هذا الهجوم وما أعقبه من تداعيات، لعلنا لم نشهد منها غير البدايات. ولكن أكثر الدول والشعوب تأثرًا بهذا الانقلاب، كانت الدول العربية بصفة خاصة والشعوب الإسلامية بصفة عامة. التى وجهت إليها مسئولية احتضان الإرهاب وتصديره لأسباب مجتمعية وحضارية وسياسية. وأصبح لزامًا عليها. من ثم. أن تدفع ثمنًا باهظًا.. ليس فقط لأن المتهمين بارتكاب الهجوم وتدبيره وتمويله ينتمون إلى دول عربية سواء كانت هذه الادعاءات صحيحة أو خاطئة، ولكن أيضًا لأن الفجوة الفاصلة بين مستويات الفكر والحياة والنظم السياسية والاجتماعية فى كلا الجانبين، اتسعت بدرجة غير مسبوقة. ضاعف منها عجز الدول العربية عن بلورة استراتيجيات عسكرية وسياسية متناسقة، قادرة على مواجهة الهجمة التوسعية الشرسة للاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين وعدد من الدول العربية طوال نصف قرن من صراع غير متكافئ.. أوهن القوى العربية وفكّ إرادة الشعوب فيها، وأفسد النظم السياسية وشلّ فاعليتها عن التطور.

ردود الفعل العربية إزاء هذه التحولات، التى وضعت العالم العربى وقضاياه ومصيره منفردًا ودون سند أو حليف، فى مواجهة تكتل عالمى واسع تقوده أكبر دولة فى العالم، لم تزد على محاولة تبرئة نفسها من الاتهامات الموجهة إليها بأنها البيئة الحاضنة للإرهاب والانخراط فى سجال عالمى لدفع الشبهات والاتهامات التى نسبت إلى الفكر الإسلامى بأنه يحبذ العنف ويولده، ويحارب خصومه بالإرهاب والخديعة، والتعلل بأن الانحياز الغربى المسيحى إلى الصهيونية العالمية والإرهاب الاستيطانى الإسرائيلى هو السبب فى وقوع هذه الكوارث، وتخريج أجيال غاضبة محبطة من الشباب، لم تجد لها منفذًا غير الاحتماء بالتطرف الدينى والعنف المجتمعى بهدف التغيير بالقوة.

وقد يكون كل هذا صحيحًا بدرجة أو بأخرى، ولكنه لم يعد يكفى لمواجهة الضغوط العالمية، ولا للتنصل من مسئوليتنا كشعوب ومجتمعات عربية.. كما أنه لم يعد يكفى لمواجهة الأخطار المحدقة التى لا تهدد إرادة الدول العربية وحريتها واستقلالها فحسب، بل باتت تهدد فوق ذلك وجودها وحدودها وهويتها.

لم تعد مؤتمرات القمة، ولا اجتماعات وزراء الخارجية العربية والإسلامية، ولا اللجوء إلى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية تغنى شيئًا عن الفشل الذى منيت به سياسات النخب العربية، وعجزها عن الالتفاف حول القضايا القومية وحول منهج لتحقيق المصالح المشتركة يخلو من التناقضات. كما أن الظن بأن اللجوء إلى أسلوب الحوار بين الثقافات، والبحث عن أرضية مشتركة أو جسور للتفاهم والتوافق بين الغرب والشعوب العربية والإسلامية، ليس وحده كافيًا لكى يضيق الفجوة ويبدد الأخطار، ويولد جوا من التعاطف والمساندة لقضايانا.. وهو ما حاولت الجامعة العربية أن تدعو إليه، بعد أن أخفقت محاولات توحيد الصف على المستوى الرسمى.

تهلّ الأيام الأولى من العام الثانى فى الألفية الثالثة، وأجواء الخوف والتوجس تخيم على العالم العربى.. التهديدات تحاصر معظم دوله من كل جانب نتيجة لأحداث سبتمبر. واحتمالات التدخل تحت ستار محاربة الإرهاب وضرب قواعده تلوح أمام الأعين. ولا يوجد حتى الآن أساس لانتهاج سياسة عربية واقعية عقلانية ليس فقط تجاه القضية الأولى التى تشغل العالم، بل أيضًا تجاه المجتمعات العربية ذاتها وموقفها من الإرهاب واستخدام العنف. وقد حاولت كل دولة عربية على حدة أن ترتب أمورها باتفاقيات سرية أو علنية مع الدولة الكبرى، اتقاء للشرور والأخطار. ولم يعد أحد يلقى بالاً إلى كثير من الآراء والتحذيرات والنصائح التى لا يكف الزعماء العرب عن إطلاقها فى الهواء أو إبلاغها إلى العالم..

هل تظل حالة الخدر اللذيذ التى يعيش فيها العرب مستمرة لا تؤثر فيها الصراعات المتوالية؟ وهل هناك من سبيل إلى استعادة الوعى وإيقاظ الهمم ومواجهة الأخطار المحدقة؟

إن أى حوار مع الآخر فى الغرب أو فى الشرق، لن يجدى ما لم يسبقه حوار داخلى بين النخب الاجتماعية والقوى الفكرية على المستوى السياسى والاجتماعى والاقتصادى.. وأهم شىء هو أن تفسح النظم العربية للشباب مكانًا للمشاركة والحوار وتحمل المسئولية. وهو ما لن يتأتى إلا بإطلاق الحريات، والقيام بإصلاحات حقيقية تفتح مجالات العمل السياسى، وتتيح حرية التعبير، وتكفل الدفاع عن مصالح الفئات الاجتماعية كلها دون تمييز أو استثناء.

إن الفئات العمرية الشبابية تمثل فى المجتمعات العربية نسبة عالية تصل إلى أكثر من النصف فى حالات كثيرة. ولكنها فئات مهملة، ضائعة، مستبعدة من تحمل المسئولية وممارستها والتدرب عليها. ولا توجد فى المجتمعات العربية تقاليد تسمح بالحوار بين الأجيال فى البيت وفى المدرسة والجامعة. وفى التشكيلات الاجتماعية والسياسية. ولا تقتصر المشكلة فقط على تخلف الخطاب الدينى وعجزه عن مخاطبة الأجيال الجديدة التى تتعامل مع الكمبيوتر ووسائل الاتصال الحديثة، والتى اختلفت أذواقها ومعارفها وميولها اختلافًا جذريًا عن آبائهم. ولكن تخلف الخطاب السياسى والاجتماعى يبدو أفدح ضررًا وأبعد أثرًا فى تشويه عقول أجيال بأكملها. وحين يصعب التوفيق بين الموروث والواقع، وبين الواقع والطموح، وبين الطموح وما تفرضه القيود السياسية والاجتماعية.. فلا بد أن ينتج نوع من العنف الذى يبدأ فى الداخل ثم لا يلبث تحت وطأة القمع أن يتجه إلى الخارج.

ويكفى أن ننظر فى الأرقام التى ترددت عن «الأفغان العرب» وتنظيم القاعدة الذى اجتذب الألوف من الشباب العربى من كل الجنسيات بدون استثناء. وبعضهم يعيش فى مجتمعات أوروبية وأمريكية هاجر إليها سعيًا وراء تحقيق ذاته، ولكنه لم يستطع أن يتكيف مع هذه المجتمعات كما لم يستطع أن يتكيف مع مجتمعه الأصلى.. ربما تفوق فى مجال عمله أو دراسته، ولكنه ظل محصورًا داخل قيود وقوالب فكرية هيأته نفسيًا وذهنيًا لموقف الصدام مع المجتمع الذى هاجر إليه.

وسواء كان هؤلاء الشباب العرب من تنظيم القاعدة هم المسئولون عن أحداث سبتمبر بإيعاز وإيحاء وتدبير من بن لادن، أو كان غيرهم.. فقد تهيأت للغرب بقيادة أمريكا من خلال التذرع بالقضاء على الإرهاب، فرصة لإعادة ترتيب الأوضاع فى المنطقة العربية وصياغة استراتيجية جديدة ظهرت ملامحها فى إطلاق يد إسرائيل فى المنطقة. وحتى لو لم تكن الدول العربية مسئولة عما حدث، فإن ضعفها لا شك يغرى بها لكى تدفع الثمن. وقد بدأ يغرى بالفعل بعض القوى فى الغرب للمطالبة بتغيير المناهج الدراسية الدينية التى يتحتم على دول عربية تعديلها، لنزع فتيل الإرهاب وتجفيف منابع التعصب الدينى، كشرط لقبولها فى المجتمع الدولى.

إلى هذا الحد بلغت درجة الانقلاب الذى شهده العالم خلال مائة يوم. وحين يدور العام دورته، فلا أحد يدرى أين يكون موقع أقطار عربية عديدة تحت عجلات التاريخ.. وهل توقظ الصدمة أهل الكهف النائمين فى العالم العربى؟

سلامة أحمد سلامة